

لقاءٌ في بَغْداد







لقاءٌ في بَغْداد

بغداد هي الموقع الذي وقع عليه الاختيار لعقد اجتماع سري يضم قادة الدول العظمى بعد الحرب العالمية الثانية، غير أن هذه المعلومة تسربت -لسوء الحظ- فوصلت إلى منظمة سرية تسعى إلى إفشال هذه القمة.

تجد فكتوريا جونز نفسها في وسط هذه الأجواء المتوترة. إنها فتاة جريئة تحب المغامرة، ولكنها تحصل على قدر من المغامرة يفوق كلّ توقعاتها حين يلفظ عميلٌ سري جريحٌ أنفاسه الأخيرة في غرفتها بالفندق!





رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجِمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَيْ مليون نسخة!

الناشر وصاحب الحق الحصري
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم







الفصل الأول

خرج الكابتن كروسبي من المصرف بفرح امرئ صرف شيكاً واكتشف أن لديه في حسابه مبلغاً أكبر قليلاً مما كان يظن.

وغالباً ما يبدو الكابتن كروسبي مسروراً بنفسه، فقد كان من ذلك النوع من الرجال. أما بالنسبة لجسمه فقد كان قصيراً قوي البنية، ذا وجه أحمر قليلاً وشارب عسكري منتصب الشعيرات. كان يختال قليلاً في سيره عندما يمشي، وربما كان في ملابسه شيء قليل جداً من الزينة والألوان النافرة، وكان مغرماً بالقصص الممتعة، ويحظى بشعبية بين الرجال الآخرين. رجل مرح، عادي ولكنه لطيف، وغير متزوج. ليس فيه ما يبهر أو يثير الانتباه، وهناك في الشرق أكوام من أمثاله.

كان الشارع الذي خرج إليه الكابتن كروسبي يسمى شارع البنوك، لسبب وجيه جداً هو أن معظم مصارف المدينة توجد فيه. كان الجو داخل المصرف بارداً مظلماً فيه شيء من رائحة الهواء الراكد، والصوت المسيطر فيه هو صوت العدد الهائل من الطابعات التي تطقطق في خلفية المشهد.

أما في شارع البنوك في الخارج فقد كان الجو مشمساً تملؤه زوابع الغبار، ويطغى فيه الضجيج الرهيب المتنوع. فقد كان هناك الزعيق المستمر لأبواق السيارات، وصيحات الباعة من كل جنس ولون. وثمة مشاجرات صغيرة بين مجموعات قليلة ممن يُخيَّل للمرء أنهم مستعدون لقتل بعضهم بعضاً، ولكن سرعان ما تراهم أصدقاء في الواقع. رجال وفتيان وأطفال كانوا يبيعون كل شيء؛ من الأشجار إلى الحلويات والبرتقال والموز ومناشف الحمّام والأمشاط والشفرات، وغير هذا من البضائع التي تُحمل بسرعة في الشوارع على الصواني. وفوق كل ذلك كان يُسمَع صوت العويل الرفيع الكئيب لرجال يقودون الحمير والخيول بين مجرى السيارات.

كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً في مدينة بغداد.

أوقف الكابتن كروسبي صبياً يركض بسرعة حاملاً ملء يده من الصحف واشترى واحدة منها، ثم انعطف عند زاوية شارع البنوك وخرج إلى شارع الرشيد، وهو الشارع الرئيس في بغداد ويمتد نحواً من أربعة أميال متوازياً مع نهر دجلة.

ألقى الكابتن كروسبي نظرة سريعة على عناوين الصحيفة، ثم دسها تحت إبطه ومشى نحواً من مئتي متر، ثم انعطف ليدخل زقاقاً صغيراً قاده إلى خان ضخم، وعند النهاية البعيدة للخان فتح باباً عليه لوحة نحاسية ليجد نفسه في مكتب هناك.

ترك موظف عراقي شاب مرتب الشكل آلته الطابعة وتقدم منه بابتسامة ترحيب قائلاً: صباح الخير يا كابتن كروسبي. بماذا يمكنني أن أخدمك؟

- هل السيد داكين موجود؟ حسناً، سأصعد إليه.

عبَرَ أحد الأبواب، ثم صعد درجاً ذا انحدار حاد جداً، ثم قطع ممراً، وعند نهايته قرع باباً فجاءه صوت يقول: ادخل.

كانت الغرفة عالية السقف شبه فارغة، وكانت فيها مدفأة نفطية عليها إناء ماء، بالإضافة إلى مقعد طويل أمامه طاولة قهوة صغيرة ومكتب ضخم بالٍ إلى حدٍّ ما. كان المصباح الكهربائي مضاء، وقد تم استبعاد ضوء النهار بحرص. وخلف المكتب البالي جلس رجل ذو وجه متعب ينقصه الحزم... وجه امرئ لم يفلح في هذه الحياة وهو يعرف ذلك ولم يعد يهتم له.

تبادل الرجلان النظرات؛ كروسبي المرح الواثق بنفسه، وداكين الكئيب المرهق، وأخيراً قال داكين: مرحباً يا كروسبي. هل عدت لتوك من كركوك؟

أومأ الآخر برأسه بالإيجاب، ثم أغلق الباب خلفه بحذر. كان الباب يبدو بالياً بدوره، لم يُحسَن طلاؤه، ولكن به صفة واحدة غير متوقعة، وهي أنه محكم الإغلاق دون فتحات أو شقوق أو فراغ في أسفله... كان -في الحقيقة- باباً كاتماً للصوت.

ومع إغلاق الباب تغيرت قليلاً شخصية كل من الرجلين؛ فقد أصبح الكابتن كروسبي أقل جرأة وثقة، فيما ارتخى كتفا داكين أكثر من ذي قبل وأصبح سلوكه أقل تردداً. ولو قُدِّر لأحد أن يكون في الغرفة مستمعاً لحديثهما لدهش وهو يكتشف أن داكين هو الذي كان في موقع السلطة.

سأل كروسبي: هل توجد أية أخبار يا سيدي؟

قال داكين: "نعم"، ثم تنهد. كانت أمامه ورقة كان -لتوّه- منشغلاً في فك رموزها. وقام بتنقيط حرفين آخرين ثم قال: سيتم انعقاده في بغداد.

ثم أشعل عود ثقاب وأشعل الورقة وراقبها وهي تحترق. وعندما أصبحت رماداً نفخ برفقٍ فطار الرماد وتبعثر، ثم قال: نعم، لقد استقر رأيهم على بغداد، في العشرين من الشهر القادم. وعلينا أن «نحافظ على السرية التامة».

قال كروسبي بهدوء: لقد كانوا يتحدثون عن الأمر في السوق... ولثلاثة أيام.

ابتسم الرجل الطويل ابتسامته السَئِمة وقال: سري للغاية! لا يوجد شيء سري للغاية في الشرق، أليس كذلك يا كروسبي؟

- بلى يا سيدي. ولو أردتَ رأيي لقلتُ إنها لا توجد أسرار في أي مكان. كثيراً ما لاحظتُ خلال الحرب أن حلاقاً في لندن يعرف أكثر من القائد العام.

- ولكن الأمر لا يهم كثيراً في هذه الحالة، فإن تم ترتيب الاجتماع ليكون في بغداد فسرعان ما سيصبح الأمر معروفاً بالضرورة، وعندها تبدأ المتعة... أعني متعتنا الخاصة.

سأل كروسبي بارتياب: أتظن أن هذا الاجتماع يمكن أن يتم أساساً يا سيدي؟ هل ينوي العم جو القدوم حقاً؟

بهذا القدر من قلة الاحترام كان كروسبي يشير إلى رئيس قوة أوروبية عظمى! وردّ داكين وهو يتأمل: أظنه ينوي الحضور هذه المرة يا كروسبي. نعم، أظن ذلك. وإذا ما نجح الاجتماع... (أعني إن نجح دون عوائق)... فعندها يمكن أن يعني ذلك إنقاذ كل شيء. لو أمكن فقط الوصول إلى تفاهم ما...

ثم توقف. ولكن كان كروسبي ما يزال يبدو متشككاً قليلاً، فقد قال: وهل... اعذرني يا سيدي، هل الوصول إلى تفاهم من أي نوع مسألة **ممكنة**؟

- بالمعنى الذي تقصده أنت -يا كروسبي- **قد لا تكون** مسألة ممكنة. إن كان الأمر مجرد جمع رجلين يمثلان مذهبين فكريين مختلفين جداً فربما انتهى الأمر كله كما ينتهي عادة... بزيادة في الشكوك وسوء الفهم. ولكن لدينا الآن العنصر الثالث. إن كانت قصة كارمايكل الخيالية تلك صحيحة...

ثم سكت فقال زميله: ولكن من المؤكد أنها لا يمكن أن تكون صحيحة يا سيدي؛ فهي **شديدة الخيالية**!

بقي الآخر صامتاً بضع دقائق. كان يتخيل -بكل وضوح- وجهاً جدياً قلقاً، ويسمع صوتاً هادئاً يصعب تصنيفه وهو يقول أشياء خيالية لا تُصدَّق. كان يقول لنفسه كما قال وقتها: "إما أن يكون أفضل رجالي وأكثرهم مصداقية قد فقد عقله، أو أن يكون هذا الأمر صحيحاً!".

قال بنفس صوته الرفيع الكئيب: إن كارمايكل يؤمن بأن الأمر صحيح. كل ما استطاع العثور عليه أكد فرضيته، وقد أراد الذهاب إلى هناك ليكشف المزيد... ليحصل على دليل. لا أدري إن كنتُ قد

تصرفت بحكمة أو غير ذلك عندما تركته يذهب. فإذا لم يعد، فلن يوجد ما يمكن الاستناد عليه إلاّ روايتي أنا عما قاله لي كارمايكل، وهي -بدورها- قصة قالها أحدهم له. هل يكفي هذا؟ لا أظن ذلك. إنها -كما قلت- قصة خيالية جداً، ولكن إن جاء الرجل نفسه إلى هنا، إلى بغداد، في العشرين من الشهر القادم... ليحكي قصته الخاصة، قصة شاهد عيان، ولكي يقدم دليلاً...

قال كروسبي بحدة: دليلاً؟!

أومأ الآخر برأسه وقال: نعم، لديه دليل.

- كيف عرفت؟

- الصيغة المتفق عليها. جاءت الرسالة من صلاح حسن.

ثم اقتطف من الرسالة بحذر ما يلي: «**جمل أبيض محمَّلٌ بالشوفان سيأتي عبر الممر الجبلي**». وتوقف قليلاً ثم مضى قائلاً: وهكذا فقد حصل كارمايكل على ما ذهب من أجله، ولكنه لم ينجُ دون أن تحيط به الشكوك. إنهم يسعون في أعقابه، وأي طريق يسلكه سيكون مراقَباً، والأخطر من ذلك بكثير أنهم سيكونون بانتظاره... هنا. في البداية على الحدود، وإن نجح في عبور الحدود فسوف يُضرَب طوق حول السفارات والقنصليات. انظر إلى هذه.

بحث بين أوراقه، ثم أخرج ورقة وقرأ بصوت عالٍ: "إنكليزي مسافر بسيارته من إيران إلى العراق أُطلقتْ عليه النار فقُتل، ويُفترض أن ذلك من عمل قطاع الطرق... تاجر كردي نزل من الجبال مسافراً جنوباً نُصِب له كمين وقُتل... كردي آخر اسمه عبد الحسن يُشتبَه بأنه مهرب دخان قتله الشرطة... العثور في طريق راوندوز على جثة رجل



تبين فيما بعد أنه سائق شاحنة أرمني". لاحِظْ أنهم جميعاً متقاربون في الصفات العامة؛ الطول والوزن والشعر والبنية... كلها قريبة من صفات كارمايكل. إنهم لا يريدون أي مجازفات. لقد خرجوا للقضاء عليه، وبمجرد أن يصبح في العراق سيكون الخطر عليه أشد أيضاً. بستاني في السفارة.. خادم في القنصلية.. موظف في المطار.. في الجمارك.. في محطات القطار. كل الفنادق مراقبة... طوق أمني مضروب بكل إحكام.

رفع كروسبي حاجبيه وقال: أتظن أن أمرهم اتسع إلى هذا الحد يا سيدي؟

- ليس عندي أي شك في ذلك. حتى في معسكرنا توجد محطات تسرب المعلومات، وهذا أسوأ ما في الأمر. كيف لي أن أتأكد من أن الإجراءات التي نتبعها من أجل إيصال كارمايكل سالماً إلى بغداد ليست معروفة أصلاً من قبل الجانب الآخر؟ إن إحدى القواعد الأساسية لهذه اللعبة -كما تعلم- هي أن تشتري كلُّ جهة شخصاً محسوباً على الجهة الأخرى وتدفع له المال.

- هل يوجد أحد... تشتبه فيه؟

هز داكين رأسه ببطء نافياً، فتنهد كروسبي وقال: وهل نواصل عملنا في هذه الأثناء؟

- نعم.

- ماذا عن كروفتن لي؟

- تمت الموافقة على حضوره إلى بغداد.

- الجميع قادمون إلى بغداد. حتى العم جو قادم كما تقول يا سيدي، ولكن إن حدث أي شيء للرئيس أثناء وجوده هنا فستشتعل حرائق الانتقام.

- ينبغي أن لا يحدث شيء. هذا هو دورنا... أن نمنع حدوث أي شيء.

عندما ذهب كروسبي انحنى داكين فوق مكتبه، وتمتم بين أسنانه: **لقد جاؤوا إلى بغداد...**

وعلى رزمة ورق المسوّدات أمامه رسم دائرة وكتب تحتها: «بغداد»، ثم أخذ ينقّط تحتها ليرسم جَمَلاً، وطائرة، وباخرة، وقطاراً صغيراً ينفخ دخانه... وكل ذلك يتجه نحو الدائرة. ثم رسم في زاوية الورقة شبكة عنكبوت، وفي وسط شبكة العنكبوت كتب اسماً: «آنا شيل»، وتحت ذلك وضع علامة استفهام كبرى.

بعد ذلك أخذ قبعته وغادر المكتب. وفيما هو يمشي في شارع الرشيد سأل رجلٌ ما صاحبه: مَن هو هذا الرجل؟

- ذاك؟ آه، إنه داكين. إنه يعمل في إحدى شركات النفط، وهو رجل لطيف ولكنه لم ينجح أبداً، فهو خامل جداً، ويقولون إنه يشرب الخمر. لن ينجح أبداً. لا بد أن تكون متحمساً طموحاً حتى تنجح في هذه المنطقة من العالم.

* * *

- هل حصلتِ على التقارير الخاصة بعقارات كروغنهورف يا آنسة شيل؟

- نعم يا سيد مورغانثال.

وضعت الآنسة شيل الهادئة القديرة الورقة أمام رئيسها. همهم وهو يقرأ ثم قال: هذا مقنع كما أظن.

- أظنه كذلك بالتأكيد يا سيد مورغانثال.

- هل شوارتز هنا؟

- إنه ينتظر في المكتب الخارجي.

- أرسليه لي على الفور.

ضغطت الآنسة شيل على جرس... كان واحداً من ستة أجراس، ثم قالت: هل ستحتاجني يا سيد مورغانثال؟

- لا، لا أظن ذلك يا آنسة شيل.

انسلت آنا شيل من الغرفة بهدوء. كانت شقراء ذات شعر بلاتيني، ولكنها لم تكن شقراء ساحرة الجمال. كان شعرها الكتاني الباهت مُسرّحاً مباشرة من جبينها إلى الخلف ليجتمع في لفافة مرتبة عند عنقها، وكانت عيناها الزرقاوان الفاتحتان الذكيتان تنظران إلى العالم من خلف نظارة سميكة، أما وجهها فكان ذا قسمات دقيقة متناسقة، ولكنه يفتقر لأي تعبير. لم تعتمد في شق طريقها في هذا العالم على فتنتها، بل على كفاءتها المجردة؛ فبمقدورها أن تحفظ غيباً أي شيء مهما كان معقداً، وتستذكر الأسماء والتواريخ دون

العودة إلى دفتر ملاحظات، وكان بوسعها تنظيم مِلاك مكتب كبير بطريقة تجعله يعمل كآلة أُحسِن تزييتها، وهي رمز للتكتم والمحافظة على الأسرار. ورغم أن طاقتها كانت منظمة منضبطة، إلاّ أنها طاقة لم تفتر أبداً.

وقد كان أوتو مورغانثال، رئيس شركة مورغانثال وبراون وشيبرك (وهي شركة صرافة عالمية)، يدرك تماماً أن ما يدين به لآنا شيل كان أكبر مما يستطيع المال تسديده. فقد وثق بها كل الثقة، وكانت ذاكرتها، وخبرتها، وأحكامها، وعقلها البارد المتزن... كل ذلك كان لا يُقدَّر بثمن. وقد دفع لها راتباً ضخماً، وكان من شأنه أن يزيده ضخامة لو طلبت ذلك.

ولم تقتصر معرفتها على عمله، بل تعدت ذلك إلى تفصيلات حياته الخاصة. وعندما استشارها بخصوص قضية زوجته الثانية نصحته بالطلاق، واقترحت عليه المبلغ الدقيق للنفقة التي يدفعها لزوجته. لم تُظهر شفقة أو فضولاً، فما كان ليصفها بأنها من ذلك النوع. لم يكن ليظن أن لها أية مشاعر، ولم يخطر له أبداً أن يتساءل عما تفكر به، بل إنه كان سيندهش لو قيل له إن لها أي أفكار أخرى غير تلك المتعلقة بالشركة وبمشكلات أوتو مورغانثال.

ولذلك كله فقد دهش تماماً عندما سمعها تقول وهي تتهيأ لمغادرة مكتبه: أرغب بإجازة لمدة ثلاثة أسابيع إن كان ذلك ممكناً يا سيد مورغانثال، بدءاً من الثلاثاء المقبل.

قال وهو يحدق إليها: سيكون ذلك مربكاً... مربكاً جداً.

- لا أظن أن ذلك سيكون صعباً جداً يا سيد مورغانثال؛

فالآنسة وايغيت قادرة تماماً على التعامل مع الأمور. سأترك لها دفتر ملاحظاتي مع تعليمات كاملة، وبوسع السيد كورنوول أن يعنى بعملية اندماج شركة آرشر.

سأل وهو ما زال متململاً: أرجو أن لا يكون ذلك لمرض أو عارض ما؟

إنه لا يستطيع تخيل الآنسة شيل مريضة. حتى الجراثيم تحترم آنا شيل وتبتعد عن طريقها.

- آه، لا يا سيد مورغانثال. أريد الذهاب إلى لندن لرؤية أختي هناك.

- أختك؟

لم يكن يعرف أن لها أختاً. لم يكن قد تخيل أن للآنسة شيل أية عائلة أو أقرباء، فهي لم تذكر شيئاً من ذلك. وها هي الآن تشير إلى أخت لها في لندن! لقد كانت معه في لندن في الخريف الماضي، ولكنها لم تُشِرْ أبداً -وقتها- إلى أن لها أختاً.

قال بشيء من المشاعر المجروحة: لم أعرف أبداً أن لك أختاً في إنكلترا؟

ابتسمت الآنسة شيل ابتسامة باهتة جداً وقالت: آه، بلى يا سيد مورغانثال، وهي متزوجة برجل إنكليزي ذي صلة بالمتحف البريطاني. من الضروري لها أن تخضع لعملية جراحية شديدة الخطورة، وهي تريدني أن أكون معها، وأنا أرغب بالذهاب.

رأى أوتو مورغانثال أن خلاصة القول هي أنها قد حزمت أمرها على الذهاب، فقال متذمراً: حسناً، حسناً، ولكن عودي في أقرب وقت ممكن. إنني لم أرَ السوق متذبذباً أبداً بهذا الشكل من قبل. هذه الشيوعية القذرة! يمكن أن تندلع الحرب في أية لحظة، وأكاد أحسّ -أحياناً- بأنها الحل الوحيد. البلد كله مشغول بها... مشغول بها تماماً، والرئيس مصمم الآن على الذهاب إلى هذا المؤتمر التعيس في بغداد. إنه شَرَك خادع برأيي؛ فهم يسعون جاهدين للنيل منه. بغداد... من بين كل الأماكن الغريبة المستهجنة!

قالت الآنسة شيل على سبيل التهدئة: آه، أنا واثقة أنه سيحظى بحماية ممتازة.

قال السيد مورغانثال: "ألم يقتلوا شاه إيران في العام الماضي؟ كما قتلوا برنادوت في فلسطين. إنه جنون... هذه هي حقيقة الأمر؛ جنون". ثم أضاف بحزن: ولكن لا غرابة؛ فالعالم كله مجنون!

* * *

الفصل الثاني

جلست فِكتوريا جونز معكّرة المزاج على مقعد في حدائق فيتزجيمس. كانت غارقة تماماً في التأمل... بل يكاد المرء يقول إنها غارقة في المحاكمات الأخلاقية المتعلقة بالمساوئ الكامنة في استخدام المرء لمواهبه الخاصة في الوقت غير المناسب.

كانت فِكتوريا مثل الكثيرين منا؛ فتاةً ذات محاسن ومساوئ. فأما في جانب المحاسن فقد كانت كريمة ودودة شجاعة، وربما أمكن اعتبار ميلها الطبيعي للمغامرة ميزة يمكن تصنيفها في أيٍّ من جانبَي المحاسن أو المساوئ في هذا الزمن الذي يضع اعتباراً عالياً للأمن. أما عيبها الأساسي فكان ميلها للكذب في اللحظات المناسبة وغير المناسبة على حد سواء، وكان ولعها الدائم الهائل بالخيال على حساب الحقيقة ولعاً لا يمكنها مقاومته. كانت تكذب بطلاقة وبسهولة وبحماسة، ولئن تأخرت فكتوريا عن موعد (وهو ما كان يحدث غالباً) فلن تكتفي بأن تتمتم بعذر عن توقف ساعتها (الذي كان فعلاً كثير الحدوث) أو بعذر عن حافلة تأخرت على غير عادتها، بل كانت تفضّل تقديم التفسير الكاذب القائل إن ما أخرها كان فيلاً هارباً من حديقة الحيوان تمدد في الطريق الذي تسلكه الحافلة، أو حادثة سطو

خاطفة لعبت هي فيها دوراً في مساعدة الشرطة... فالعالَم المقبول بالنسبة لفكتوريا سيكون ذلك العالَم الذي تكمن فيه النمور في ساحة ستراند ويملأ فيه رجال العصابات الخطيرون شوارع المدينة!

وكانت فكتوريا فتاة نحيلة ذات جسم مقبول، ولكن كان يمكن -عملياً- وصفُ ملامحها بأنها قبيحة؛ فقد كانت ملامحَ صغيرةً ومرتبة، ولكن كان فيها شيء من الحدة اللاسعة، إذ كان «وجهها المطاطي» -كما وصفه أحد المعجبين بها- قادراً على لوي تلك الملامح الساكنة في تقليد ساخر لا يكاد أحد ينجو منه.

وقد كانت موهبتها الأخيرة هذه هي التي قادتها إلى موقفها الحالي الصعب؛ فقد كانت فكتوريا طابعة عند السيد غرينهولتز، مدير شركة غرينهولتز وسايمُنز في شارع غريزهولم غربي لندن. وقد كانت تحاول «قتل وقت» صباحٍ ممل، وذلك بالترفيه عن زميلاتها الطابعات الثلاث وصبي المكتب، عن طريق تقديم عرضٍ حي تؤدي فيه فكتوريا دور زوجة السيد غرينهولتز وقد جاءت لزيارة زوجها في مكتبه. وقد أطلقت فكتوريا العنان لنفسها بعد أن اطمأنت إلى أن السيد غرينهولتز قد ذهب إلى محاميه. صاحت بصوت عالٍ منتحب: لماذا تقول إننا لن نشتري تلك الأريكة الفخمة يا دادي؟ لقد اشترت السيدة ديفتاكِس واحدة منجدة بالساتان الأزرق. تقول إن المال ينقصك؟ فلماذا -إذن- اصطحبتَ تلك الفتاة الشقراء إلى العشاء والرقص؟ إيه! أتظن أنني لا أعلم؟ فإذا أخذت أنت تلك الفتاة، فإنني -بالمقابل- اشتريتُ أريكة منجدة على أجمل طراز ومعها الطنافس والوسائد الذهبية. وعندما تقول إنه لم يكن إلاّ عشاء عمل فإنك تكون مغفلاً جداً... نعم، وتأتيني وأحمر الشفاه على قميصك!

ولذلك اشتريت الأريكة، وطلبت معطف فراء جميلاً جداً يشبه فروُه فروَ المنك، ولكنه ليس فرو المنك فعلاً، وقد اشتريته بثمن رخيص، وكان صفقة جيدة...

كان مستمعوها -في البداية- مسحورين بتقليدها الساخر، ولكنهم انخرطوا الآن فجأة بالعمل، مما جعل فكتوريا تتوقف وتلتفت إلى حيث كان السيد غرينهولتز واقفاً عند مدخل الباب يراقبها. وعندما لم تجد شيئاً مناسباً تقوله اكتفت بالقول: آه!

دمدم السيد غرينهولتز، ثم نزع معطفه بقوة وتقدم إلى مكتبه الداخلي حيث صفق الباب بقوة خلفه، وعلى الفور -تقريباً- رنّ جرسه رنتين قصيرتين ورنة طويلة، وكان ذلك استدعاء لفكتوريا.

قالت إحدى صاحباتها بشكل لا داعي له: "هذا الجرس لك يا فكتوريا"، ثم التمعت عيناها بالفرح الذي يأتي من مصائب الآخرين. وقد ساهمت بقية الطابعات في هذا الشعور بأن علّقن قائلات: "لقد وقعتِ يا فكتوريا" و"لقد نلتِ حمّاماً ساخناً!"... أما صبي المكتب، وهو طفل كريه، فقد اكتفى بأن مرر سبابته أمام حنجرته موحياً بالذبح ومطلقاً صوتاً منذراً بشر مستطير.

أخذت فكتوريا دفتر ملاحظاتها وقلم الرصاص ومضت إلى مكتب السيد غرينهولتز بكل ما يمكنها استجماعه من ثقة، وعندما دخلت عليه تمتمت وهي تركز عليه نظرةً صافية شفافة: لقد طلبتَني يا سيدي؟

كان السيد غرينهولتز يخشخش بثلاث ورقات من فئة الجنيه ويبحث في جيوبه عن قطع نقود معدنية أخرى، وقد قال لها: ها أنت



ذي إذن. لقد تحملتُ منك ما يكفي أيتها الشابة. هل ترين أي سبب خاص يمنعني من أن أدفع لك أجر أسبوع بدل الإشعار وأطردك في هذه اللحظة؟

كانت فكتوريا (اليتيمة الأبوين) قد فتحت فمها لتوّها لتشرح كيف أن محنة أمها التي تعاني -في هذه اللحظة- من عملية جراحية كبرى قد أثرت على معنوياتها إلى الحد الذي جعلها خفيفة العقل تماماً، وكيف أن راتبها هو كل ما تعتمد عليه الأم المذكورة، ولكنها عادت وأغلقت فمها وغيرت رأيها بعد أن نظرت نظرة أولية إلى وجه السيد غرينهولتز السقيم.

وبدلاً من ذلك قالت بكل انطلاق وعذوبة: إنني أتفق معك كل الاتفاق. أعتقد أنك محق تماماً، إن كنت تفهم ما أعنيه.

بدا وكأن السيد غرينهولتز قد فوجئ قليلاً؛ إذ لم يكن معتاداً على تعامل الناس مع حالات الطرد بمثل هذه الروحية الراضية المهنّئة، ولكي يخفي مسحة عدم الارتياح قام بترتيب مجموعة من النقود المعدنية على المكتب أمامه. ثم أخذ يبحث مجدداً في جيوبه وتمتم بنكد: ينقص المبلغ تسعة بنسات.

قالت فكتوريا بلطف: لا تهتم لذلك. اذهب بها إلى السينما أو اشترِ لنفسك بها بعض الحلويات.

- كما لا يبدو أن لديّ أية طوابع أيضاً.

- لا يهم؛ إنني لا أكتب رسائل أبداً.

قال السيد غرينهولتز، ولكن دون كثير من القناعة: يمكنني إرسال باقي المبلغ إليك لاحقاً.

- لا تزعج نفسك، ولكن ماذا عن تزويدي بكتاب تزكية؟

عاد الغضب إلى السيد غرينهولتز وسأل بحنق: ولماذا يتعين عليّ إعطاؤك كتاب تزكية؟

- هذا هو الإجراء المعتاد.

سحب السيد غرينهولتز ورقة وكتب عليها بضعة أسطر على عجل، ثم مدها إليها وقال: هل يكفيك هذا؟

لقد عملت الآنسة جونز معي لمدة شهرين كطابعة اختزال، واختزالها مليء بالأخطاء، وهي لا تُحسن التهجئة. وقد تم إنهاء خدماتها بسبب تبديدها للوقت أثناء ساعات العمل.

كشرت فكتوريا وقالت: لا تكاد هذه تكون تزكية!

- لم يكن المقصود أن تكون كذلك.

- أظن أن عليك القول -على الأقل- إنني نزيهة ومتزنة ومحترمة؛ فأنا كذلك بالمناسبة، وربما أمكنك أن تضيف أنني كتومة.

صاح السيد غرينهولتز: كتومة؟!

قابلت فكتوريا نظرته بنظرة بريئة وقالت بهدوء: كتومة.

تذكر السيد غرينهولتز العديد من الرسائل التي أملاها على

فكتوريا وطبعتها، فقرر أن الرأيَ قبل شجاعة الشجعان. سحب الورقة بنزق ومزقها وكتب رسالة جديدة:

لقد عملت الآنسة جونز معي لمدة شهرين كطابعة اختزال، وهي تغادر العمل نتيجة الفائض في مِلاك المكتب.

- كيف تجدين هذه؟

- كان بالإمكان أن تكون أفضل، ولكنها تفي بالغرض.

* * *

كان ذلك -إذن- هو موضوع تأملات فكتوريا حين جلست وفي حقيبتها راتب أسبوع (إلاّ تسعة بنسات) على مقعدٍ في حديقة فيتزجيمس التي كانت قطعة مستطيلة من الخضرة تحيط بها الأشجار ويطل عليها مخزن عالي البناء.

كان من عادة فكتوريا في كل يوم لا مطر فيه أن تشتري شطيرة جبن بالخس والبندورة من أحد الأكشاك، وأن تأكل ذلك الغذاء البسيط في هذا الجو شبه الريفي. واليوم، وهي تقضم وجبتها متأملة، كانت تقول لنفسها -مرة أخرى- إن لديها وقتاً ومكاناً لكل أمر... وإن المكتب لم يكن المكان المناسب لتقليد زوجة رب العمل. إن عليها في المستقبل أن تكبح تلك الحيوية الطبيعية التي قادتها إلى محاولة إضفاء الحياة والبهجة على وظيفة مملة، وفي هذه الأثناء ستكون متحررة من تلك المؤسسة التي كانت تعمل بها، وقد ملأها توقع الحصول على عمل في مكان آخر بإحساس لذيذ من الترقب.

لقد كانت فكتوريا تفرح دائماً عندما تكون على وشك تولي وظيفة جديدة، وكانت تشعر دوماً بأن المرء لا يدري أبداً ما الذي يمكن أن يجدّ من أمور.

وزّعت آخر ما تبقى لديها من فتات الخبز على ثلاثة من عصافير الدوري اليقظة التي راحت تتصارع فوراً بحميّة على ذلك الفتات، وما أن أكملت توزيع الفتات حتى انتبهت لوجود شاب يجلس على الطرف الآخر من المقعد. كانت فكتوريا قد انتبهت لوجوده بشكل مبهم أصلاً، ولكنها لم تكن قد لاحظته عن كثب حتى الآن، فقد كان عقلها ممتلئاً بالحلول المستقبلية الجيدة. وقد أعجبها ما لاحظته الآن من الشاب (ولكن بزاوية عينها فقط)، فقد كان شاباً وسيماً أشقر ذا ذقن يوحي بالحزم وعينين شديدتي الزرقة خُيِّل إليها أنهما كانتا تراقبانها منذ بعض الوقت بإعجاب خفي.

لم يكن لدى فكتوريا كوابح تمنعها من مصادقة شباب غرباء في أماكن عامة، فقد كانت تعتبر نفسها حَكَماً ممتازاً على الشخصيات وقادرة تماماً على كبح أي تعبير غزلي وقح من جانب الرجال.

ابتسمت له بشكل مكشوف، فاستجاب الشاب (مثل دمية متحركة جذب المرء خيوطها) قائلاً: مرحباً، هذا مكان رائع. هل تأتين دوماً إلى هنا؟

- كل يوم تقريباً.

- لم يسعفني حظي في المجيء إلى هنا أبداً من قبل. أكان ذلك الذي أكلتِه هو غداءك؟

- نعم.

- لا أحسبك أكلتِ ما يُشبعك. كنت سأتضور جوعاً لو لم آكل شيئاً سوى ما أكلتِ. ما رأيك بالذهاب لتناول السجق في مطعمٍ في شارع توتنهام كورت؟

- لا، شكراً. لقد أكلت، ولا أستطيع تناول المزيد الآن.

توقعتُ منه أن يقول: "هل نذهب في يوم آخر؟"، ولكنه لم يقل ذلك، بل اكتفى بأن تنهد ثم قال: اسمي إدوارد، ما هو اسمك؟

- فكتوريا.

- ولماذا أسماك أهلك على اسم محطّة القطارات؟

- ليست فكتوريا محطة قطارات فحسب؛ إذ توجد الملكة فكتوريا أيضاً.

- مممم، نعم. ما هو اسم عائلتك؟

- جونز.

قال إدوارد محاولاً تجربة الاسم على لسانه: فكتوريا جونز... الاسمان غير متناسبين.

أجابت فكتوريا بحماسة: أنت محق تماماً. لو كان اسمي جيني لكان ذلك رائعاً... جيني جونز. ولكن اسم فكتوريا يحتاج إلى اسم آخر يوحي بالطبقات العليا. فكتوريا ساكفيل وست مثلاً... هذا ما يحتاجه المرء؛ شيءٌ يملأ نطقُه الفم.

قال إدوارد باهتمام يوحي بالتعاطف: يمكنك إلحاق اسم آخر مع اسم جونز.

- مثل بدفورد جونز.

- أو كريسبروك جونز.

- أو سينت كلير جونز.

- أو لونسديل جونز.

لم يقطع هذه اللعبة المسلية إلاّ نظر إدوارد إلى ساعته، حيث هتف فجأة برعب: ينبغي أن أهرع عائداً إلى مديري النكد. همم... وماذا عنك أنت؟

- لقد تركت عملي؛ طُردتُ هذا الصباح.

قال إدوارد باهتمام حقيقي: آه، إنني آسف لذلك.

- لا تبدد عواطفك، فأنا غير آسفة أبداً على ذلك. وهذا لسبب واحد؛ وهو أنني سأحصل على عمل آخر بسهولة، وفوق ذلك فقد كان الأمر ممتعاً حقاً.

ثم قامت بتأخير إدوارد أكثر بأن سردت له وصفاً حياً للمشهد الصباحي الذي جرى معها، معيدة تمثيل شخصية السيدة غرينهولتز وإدوارد يصغي وهو بغاية الاستمتاع. وأخيراً قال: أنت رائعة حقاً يا فكتوريا. ينبغي أن تكوني ممثلة.

تقبلت فكتوريا هذا الإطراء بابتسامة سعيدة وقالت إن من

الأفضل لإدوارد أن يركض إلى عمله إن كان لا يرغب بأن يُطرَد هو الآخر.

قال: "نعم... ولن أكون قادراً على الحصول على وظيفة جديدة بنفس السهولة التي ذكرتِها". ثم قال وفي صوته شيء من الحسد: لا بد أن من الرائع أن يكون المرء طابع اختزال جيداً.

اعترفت فكتوريا بصراحة قائلة: أنا لست طابعة اختزال جيدة في الواقع، ولكن من حسن الحظ أن أسوأ طابعات الاختزال يمكنهن الحصول على عمل في هذه الأيام. إنهن يحصلن -على الأقل- على عمل في التعليم أو في المؤسسات الخيرية؛ فهذان المجالان لا يسعهما دفع رواتب عالية، ولذلك فهما يأخذان موظفات من أمثالي. إنني أفضل تلك الوظائف التي تكون مع المؤسسات عالية الثقافة، فتلك الأسماء والعبارات العلمية فظيعة إلى الحد الذي لا يشعر المرء معه بالخجل حقاً من عدم معرفته بتهجئتها... لأن أحداً لا يعرف تهجئتها أصلاً! ما هو عملك؟ أحسب أنك خارج من الخدمة العسكرية. هل كنت في القوة الجوية الملكية؟

- تخمين جيد.

- أكنت طياراً مقاتلاً؟

- صحيح مرة أخرى. لقد كانوا منصفين جداً معنا هناك، ولكن المشكلة أننا لسنا على تلك الدرجة من الذكاء... أعني أن المرء لم يكن بحاجة لأن يكون ذكياً في القوة الجوية. لقد وضعوني في مكتب فيه الكثير من الملفات والأرقام، ويتطلب الكثير من التفكير، فما

كان مني إلاّ أن انهرت. وقد بدا وكأن كل شيء كان دون أي هدف على أية حال، ولكن هذا هو الموجود. إن مما يثبط المعنويات قليلاً أن يدرك المرء أنه لا يُحسن شيئاً أبداً.

أومأت فكتوريا برأسها متعاطفة، وتابع إدوارد يقول بمرارة: لم نعد على علاقة بالواقع ولا اطلاع لنا على ما يجدّ من أمور أبداً. كان الأمر على ما يرام أثناء الحرب، حيث كان بوسع المرء أن يقوم بواجبه رغم كل الصعوبات. لقد حصلت على وسام الطيران مثلاً... أما الآن، فربما كان بوسعي اعتبار نفسي شخصاً لا يقدم ولا يؤخر.

- ولكن لا بد أن يوجد...

ثم توقفت في وسط جملتها وقد شعرت بأنها غير قادرة على أن تصوغ -في كلماتٍ- قناعتَها بأن تلك الخصائص التي جلبت لأصحابها أوسمة الشجاعة والتميز لا بد أن يكون لها موقعها في مكان ما من عالم سنة ١٩٥٠.

قال إدوارد: لقد ثَبّط همتي -بعض الشيء- أن لا أكون نافعاً مفيداً في أي مجال. الأفضل أن أسرع بالذهاب. أقول... هل تمانعين... أعني هل سيكون من الوقاحة الشديدة أن... أن أطلب منك...

وفيما فتحت فكتوريا عينين دهشتين وهي تدمدم وتحمرُّ خجلاً أخرج إدوارد آلة تصوير صغيرة وقال: أحب كثيراً أن آخذ لك صورة؛ فأنا مسافر غداً إلى بغداد.

هتفت فكتوريا بخيبة أمل محببة: إلى بغداد؟!

- نعم. وأنا أتمنى لو لم أكن ذاهباً... الآن. مع أنني كنت متحمساً تماماً لهذه السفرة صباح اليوم؛ وهذا هو السبب في قبولي بهذه الوظيفة في الواقع... لكي أخرج من هذا البلد.

- ما نوع هذه الوظيفة؟

- وظيفة فظيعة تماماً. ثقافة، وشِعر، وما إلى ذلك. رئيسي اسمه الدكتور راثبون. تمتدّ قائمة من الألقاب خلف اسمه، وهو ينظر إليك بعاطفة مفرطة من خلال نظارته. إنه حريص جداً على السمو ورفعة الأخلاق وعلى نشر ذلك جهد استطاعته، ولذلك فهو يفتتح مكتبات في أماكن بعيدة... ويريد افتتاح مكتبة في بغداد الآن. لقد أشرف على ترجمة أعمال شكسبير ومِلتون إلى العربية والكردية والفارسية والأرمنية، وهو ما أراه أمراً سخيفاً؛ لأن المجلس الثقافي البريطاني يقوم بنفس المهام تقريباً في كل تلك المناطق. ومع ذلك، فهذا هو الواقع. هذا يوفر لي وظيفة، ولذلك عليّ أن لا أتذمر.

- ما هي طبيعة العمل الفعلية؟

- إنه لا يعدو أن يكون بمثابة خادم مطواع للرجل في نهاية المطاف. أشتري البطاقات، وأجري الحجوزات، وأملأ استمارات جوازات السفر، وأتأكد من حزم كل تلك الكتب الشعرية الفظيعة، وأركض من هنا إلى هناك. وبعدها، عندما نصل إلى هناك يُفترض بي أن أُقيم صداقات... شيء أشبه بتشجيع الحركات الشبابية المجيدة والتقاء الأمم كلها في توجه واحد من أجل الرفعة والسمو.

كانت نبرة إدوارد تزداد كآبة باضطراد، ثم قال: إنه عمل كريه جداً بصراحة، أليس كذلك؟

لم تكن فكتوريا قادرة على تقديم الكثير من العزاء. ومضى إدوارد قائلاً: ولذلك إن لم يكن لديك مانع من تصويري لك؟ صورة جانبية وصورة وأنت تنظرين مباشرة إليّ. نعم، هذا رائع.

طقطقت آلة التصوير مرتين وأظهرت فكتوريا ذلك الرضا الذي تظهره شابة أدركت أنها نالت إعجاب رجل.

قال إدوارد: ولكن من المؤسف حقاً أن أضطر إلى المغادرة بعدما قابلتك. إنني نصف عازم على التخلي عن هذه الرحلة. ولكن أحسب من غير الممكن أن أفعل ذلك في اللحظة الأخيرة... ليس بعد كل تلك الاستمارات الكريهة والتأشيرات وغير ذلك. لن يكون ذلك تصرفاً لائقاً، أليس كذلك؟

قالت فكتوريا معزية: قد لا يكون الأمر على تلك الدرجة التي تظنها من السوء.

أجابها إدوارد بارتياب: نـ... نعم. الأمر الغريب هو أنني أحسّ بأن في هذه المسألة شيئاً مريباً في مكان ما.

- شيئاً مريباً؟

- نعم؛ شيء زائف ما. لا تسأليني لماذا، فليس لدي أي سبب. إنه من تلك المشاعر التي تنتاب المرء أحياناً. انتابني مرة نفس الشعور إزاء زيت المحرك الأيسر في طائرتي، فبدأت أبحث

وأفتش، وبالفعل كانت هناك حلقة معينة عالقة في المغيّر الاحتياطي لسرعة المضخة.

كانت اللغة الفنية التي تحدث بها غير مفهومة أبداً بالنسبة لفكتوريا، ولكنها فهمت الفكرة العامة. قالت: أتظنه منتحِلاً زائفاً... أقصد السيد راثبون؟

- لا أرى كيف يمكن أن يكون كذلك. أعني أنه محترم جداً ومثقف، وينتمي إلى تلك الجمعيات الفكرية... وتربطه علاقة وثيقة بكبار رجال العلم وعمداء الكليات. لا، إنه مجرد شعور. حسناً، سيبيّن الزمن ذلك. ولكن حتى ذلك الحين... لطالما أتمنى لو كنتِ قادمة معنا أيضاً.

- وكذلك أنا.

- ما الذي ستفعلينه؟

أجابت فكتوريا بتجهم: سأذهب إلى وكالة غيلدريك في شارع غاور وأبحث عن وظيفة أخرى.

- وداعاً يا فكتوريا.

- وداعاً يا إدوارد، أتمنى لك حظاً موفقاً.

- لا أحسب أنك ستفكرين بي أبداً مرة أخرى.

- بلى، سأفكر.

- إنك تختلفين كل الاختلاف عن أية فتاة عرفتها من قبل. كنت أتمنى فقط...

دقت ساعة الكنيسة القريبة فهتف إدوارد: آه، يا إلهي! يجب أن أطير كالريح.

ثم هرع ليختفي في قلب لندن. أما فكتوريا -التي تخلفت وراءه على المقعد غارقة في تأملاتها- فقد شعرت أنها وإدوارد كانا -إلى حدٍّ ما- في موقف يشبه موقف روميو وجولييت: لقاء، فانجذاب فوري... فحرمان وإحباط! قلبان محبان يُفرّق بينهما.

نهضت فكتوريا أخيراً وهي تنفض فتات الخبز عن حِجْرها، ثم مشت سريعاً خارجةً من حديقة فيتزجيمس باتجاه شارع غاور. كانت قد توصلت إلى قرارين: أولهما هو أنها (مثلما وقع لجولييت) قد أحبت هذا الشاب وتريد الفوز به. أما القرار الثاني الذي أخذته فكتوريا فكان يقول: بما أن إدوارد سيكون قريباً في بغداد، فليس أمامها إلاّ أن تذهب إلى بغداد أيضاً. وكان الأمر الذي يشغل بالها الآن هو كيفية تحقيق ذلك. ولم يراودها شك في إمكانية تحقيق ذلك بشكل أو بآخر؛ فقد كانت شابة متفائلة قوية الشخصية.

قالت لنفسها: لا بد لي من السفر إلى بغداد بطريقة ما!

* * *

الفصل الثالث

رحب فندق السافوي بالآنسة آنا شيل بكل العناية التي يبديها الفندق بزبون قديم بالغ الأهمية، فقد سأل القائمون على الفندق عن صحة السيد مورغانثال وأكدوا أن ما عليها سوى أن تخبرهم إذا لم يعجبها الجناح الذي خصصوه لها... ذلك أن آنا شيل كانت تمثل الدولار.

بدّلت الآنسة شيل ملابسها وأجرت اتصالاً هاتفياً مع رقم في منطقة كينسينغتن، ثم استقلت المصعد إلى الطابق السفلي لتخرج من خلال الباب الدوار وتطلب سيارة أجرة. أتت السيارة فاستقلتها وأمرتها بالتوجه إلى محل كارتييه للحلي في شارع بوند.

وفيما خرجت سيارة الأجرة من مدخل السافوي إلى شارع ستراند نظر إلى ساعته -فجأة- رجلٌ أسمر ضئيل الجسم كان يقف ناظراً إلى واجهات المحلات، ثم لوّح لسيارة أجرة كانت تمر قريباً منه لحسن الحظ بعد أن غفلت تماماً قبل لحظات قليلة عن سيدة كانت تحمل أكياساً وتلوح لها بانفعال.

انطلقت سيارة الأجرة في شارع ستراند تاركة السيارة الأولى

على مرمى النظر، وعندما توقفت السيارتان أمام الإشارات الضوئية عند منعطف ساحة ترافلغار نظر الرجل الذي استقل السيارة الثانية من النافذة اليسرى وأشار بيده إشارة خفيفة، فاشتغل محرك سيارة خاصة كانت تقف في الشارع الجانبي عند قوس الأدميرالية وانطلقت إلى الشارع خلف سيارة الأجرة الثانية.

استؤنف السير من جديد، وفيما سلكت سيارة الأجرة التي تستقلها آنا شيل الطريق المتجه يساراً إلى شارع بول مول، انعطفت السيارة الأخرى التي تقل الرجل الأسمر يميناً، مستمرة في الالتفاف حول ساحة ترافلغار. كانت السيارة الخاصة (وهي رمادية من نوع ستاندرد) قد أصبحت الآن قريبة من سيارة آنا شيل، وكان فيها شخصان، شاب أبيض البشرة جامد النظرة خلف عجلة القيادة، وشابة أنيقة الثياب إلى جانبه. تبعت سيارةُ الستاندرد سيارةَ آنا شيل في بيكاديللي، ثم في شارع بوند، وهناك توقفت لحظة قرب الرصيف حيث خرجت منها الشابة وقالت بمرح وبصورة تقليدية: شكراً جزيلاً لك.

مضت السيارة، ومشت الشابة في الشارع تنظر -بين حين وآخر- إلى واجهات المحلات. توقف سير السيارات عند أحد الحواجز، وتجاوزت الشابةُ سيارة ستاندرد التي كانت تقلها وسيارة آنا شيل معاً، حتى وصلت إلى محل كارتييه ودخلته.

دفعت آنا شيل الأجرة للسائق ودخلت محل الحلي بدورها، وهناك قضت بعض الوقت وهي تنظر إلى قطع مختلفة من الحلي، وفي النهاية اختارت خاتماً من الياقوت الأزرق والألماس، ثم كتبت

شيكاً بثمنه. وعندما رأى مدير المحل الاسم على الشيك اتسم أسلوبه بمزيد من العناية وقال: يسعدني أن أراك ثانية في لندن يا آنسة شيل. هل السيد مورغانثال هنا؟

- لا.

- كنت أتساءل عن ذلك؛ لأن لدينا هنا قطعة رائعة جداً من الياقوت النجمي الأزرق، وأنا أعرف اهتمامه بهذا النوع من الياقوت. هل تمانعين في رؤيتها؟

أعربت الآنسة شيل عن عدم ممانعتها، ثم أبدت ما يتطلبه الموقف من إعجاب بالياقوتة ووعدت بذكرها أمام السيد مورغانثال. ثم خرجت ثانية إلى شارع بوند، فيما أعربت الشابة التي كانت تنظر إلى قرط من الحلي عن عدم قدرتها على اختيار ما تريده ثم خرجت هي الأخرى.

كانت السيارة الرمادية قد انعطفت شمالاً إلى شارع كرافتن وذهبت إلى ميدان بيكاديللي، وكانت الآن تدخل لتوها شارع بوند من جديد. ولكن الشابة لم تُظهر ما يفيد تعرفها على السيارة.

انعطفت آنا شيل إلى شارع آركيد، ثم دخلت محلاً لبيع الأزهار، وهناك طلبت عشرات من الورود طويلة الساق، وآنية من زهور البنفسج القرمزية الضخمة، وعدداً من أزهار الليلك، وآنية من أزهار الميموزا، ثم أعطت البائع عنواناً ليرسلها إليه. قال البائع: سيكلف ذلك اثني عشر جنيهاً وثمانية عشر شلناً يا سيدتي.

دفعت له المبلغ وخرجت. وسألت الشابةُ التي كانت قد دخلت محل الأزهار لتوها عن ثمن باقة من الورد، ولكنها لم تشترِها.

عبرت آنا شيل شارع بوند ومضت في شارع بيرلنغتن، ثم انعطفت إلى شارع سافيل راو، وهناك دخلت محلاً للخياطة كان متخصصاً بأزياء الرجال، ولكن القائمين عليه كانوا يوافقون على تفصيل بدلة نسائية لزبائن خاصين في بعض الأحيان.

استقبل السيد بولفورد الآنسة شيل بكل ما يستحقه الزبون الخاص القيِّم، وتم استعراض الأقمشة المناسبة للبدلة. قال السيد بولفورد: يمكنني -لحسن الحظ- أن أعطيك النوعية الجيدة التي تتميز بها صادراتنا الخاصة. متى ستعودين إلى نيويورك يا آنسة شيل؟

- في الثالث والعشرين من هذا الشهر.

- يمكننا -إذن- تدبر الأمر بشكل جيد. أحسب أنك ستعودين بالباخرة، أليس كذلك؟

- بلى.

- وكيف هي الأمور في أمريكا؟ إن الأمور محزنة جداً هنا... محزنة جداً بالفعل.

هز السيد بولفورد رأسه أسفاً كطبيب يصف حالة مريض ثم قال: لم يعد للأمور طعم... إن كنتِ تفهمينني، ولا يأتينا أحد ممّن يقدرون جودة العمل حق قدرها. أتدرين من سيفصِّل لك بدلتك

يا آنسة شيل؟ إنه السيد لانتويك؛ عمره اثنان وسبعون عاماً، وهو الوحيد الذي أستطيع حقاً أن أثق بتفصيله لثياب زبائننا المتميزين. كل الباقين...

ثم نحّى السيد بولفورد الباقين بإشارة من يده السمينة وقال: الجودة... هذا ما كانت هذه البلاد مشهورة به، الجودة! ما من شيء رخيص... ما من شيء مبهرج. وعندما انخرطنا في الإنتاج الجماهيري الكبير لم نحسنه. هذه حقيقة. هذا من اختصاص بلدك أنت يا آنسة شيل. وإنني أقول -ثانية- إن ما ينبغي أن نركز عليه هو الجودة. أن نأخذ وقتنا في صنع السلعة ونعنى بها ونُخرجها بحيث لا يمكن لأحد في العالم التفوق عليها. والآن، في أي يوم نجري القياس الأول للبدلة، في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم؟ في الحادية عشرة والنصف؟ شكراً جزيلاً.

شقت الآنسة شيل طريقها عبر لفائف القماش القديمة الكثيبة وخرجت ثانية إلى ضوء النهار. لوّحت لسيارة أجرة وعادت إلى فندق السافوي، واقتربت سيارة أجرة أخرى من الجانب الآخر من الشارع وهي تقل رجلاً أسمر ضئيل الجسم، ثم أخذت نفس طريق السيارة السابقة، ولكنها لم تنعطف إلى فندق سافوي، بل انعطفت خلفه، وهناك صعدت إلى السيارة امرأة قصيرة مكتنزة الجسم كانت قد خرجت -لتوها- من المدخل الخاص بالخدمات في الفندق.

- ماذا حصل معك يا لويزا؟ هل فتشتِ غرفتها؟

- نعم. لا يوجد شيء.

تناولتْ آنا شيل غداءها في المطعم، حيث تم حجز مائدة لها قرب النافذة. وقد استفسر رئيس الندلاء في المطعم بمحبة عن صحة السيد أوتو مورغانثال.

بعد الغداء أخذت آنا شيل مفتاح غرفتها وصعدت إلى جناحها. كان السرير قد رُتِّب، وقد وُضعت مناشف جديدة في الحمام، وكان كل شيء مرتباً نظيفاً. ذهبت آنا إلى الحقيبتين الصغيرتين اللتين تحويان أمتعتها، وكانت إحداهما مقفلة والأخرى غير مقفلة. ألقت نظرة على محتويات الحقيبة المفتوحة، ثم أخرجت مفاتيحها من حقيبة يدها وفتحت الحقيبة الأخرى. كان كل شيء مرتباً ومطوياً كما طوته هي، ولم يتم -ظاهرياً- لمس شيء أو إفساده. كانت حقيبة جلدية صغيرة موضوعة في أعلى محتويات الحقيبة، كما كان هناك آلة تصوير صغيرة وفِلمان في زاوية الحقيبة. أما الفِلمان فكانا ما يزالان مختومَين مغلقين. مررت آنا ظفرها على غطاء الحقيبة ثم قلبته للأعلى، وابتسمت بكل هدوء. فالشعرة الشقراء الوحيدة التي كانت موضوعة هناك لم تعد موجودة. قامت برش شيء من البودرة على الجلد اللامع للحقيبة الصغيرة ثم نفختها فوجدت أن الحقيبة ظلت نظيفة لامعة. لم تكن عليها بصمات. ولكنها كانت قد أمسكت بتلك الحقيبة في ذلك الصباح بعد أن وضعت على شعرها قليلاً من الكريم لتمسده وتطريه به، ولذلك ينبغي أن تكون على الحقيبة بصمات... بصماتها هي.

ابتسمت ثانية وقالت لنفسها: عمل متقن، ولكنه ليس متقناً بما فيه الكفاية!

وبسرعة وضعت بعض الملابس في حقيبة صغيرة ونزلت ثانية إلى الطابق السفلي حيث تم استدعاء سيارة أجرة لها، وقد طلبت من السائق التوجه إلى المبنى رقم ١٧ في ساحة إيلمزلي غاردنز.

كانت منطقة إيلمزلي غاردنز ساحة هادئة متسخة قليلاً في كينسينغتن. دفعت آنا أجرة السيارة وأسرعت صاعدة الدرج وصولاً إلى الباب الأمامي للمبنى المقصود. قرعت الجرس ففتحت لها البابَ -بعد دقائق- امرأةٌ كهلة ذات وجه يتسم بالارتياب، ولكن سرعان ما انفرجت أساريرها لتبتسم مرحّبة: كم ستفرح الآنسة إيلسي برؤيتك! إنها في المكتب في مؤخرة المنزل. إن فكرة قدومك هي وحدها التي كانت تبقي على معنوياتها جيدة.

مضت آنا بسرعة عبر الممر المظلم وفتحت باباً عند نهايته. كانت غرفة صغيرة قديمة ولكنها مريحة، وفيها مقاعد بالية ضخمة منجدة بالجلد. قفزت المرأة التي كانت تجلس على أحد تلك المقاعد وقالت: آنا، حبيبتي.

- إيلسي.

تبادلت المرأتان القبلات بكل حب، ثم قالت إيلسي: لقد تم ترتيب كل شيء. سأدخل هذه الليلة. إنني أرجو...

قاطعتها آنا قائلة: هيا ابتهجي، سيكون كل شيء على ما يرام تماماً.

* * *

دخل الرجل الأسمر الضئيل بمعطفه المطري إلى أحد أكشاك الهاتف في محطة كينستغتن وأدار قرص الهاتف على رقم معين.

- أهذه شركة غراموفون فالهالا؟

- نعم.

- معك ساندرز يتكلم.

- ساندرز صاحب النهر؟ أي نهر؟

- نهر دجلة. أقدّم تقريراً عن «أ. ش.»: لقد وصلَتْ هذا الصباح من نيويورك. ذهبت إلى محلات كارتييه حيث اشترت خاتم ياقوت وألماس كلّف مئة وعشرين جنيهاً، ثم ذهبت إلى محل للأزهار واشترت ما قيمته اثنا عشر جنيهاً وثمانية عشر شلناً من الأزهار لتُرسَل إلى مصحة في منطقة بورتلاند، ثم طلبت خياطة معطف وتنورة في محلات بولفورد وأفوري. إن أياً من هذه الشركات والمحالّ لم تُعرَف عنه اتصالات مشبوهة، ولكن سيتم فحصها بعناية مستقبلاً. تم تفتيش غرفة أ. ش. في الفندق، فلم يُعثر على شيء يثير الريبة. توجد حقيبة جلدية صغيرة داخل حقيبة سفر تحتوي على أوراق تتعلق باندماج شركة بيير مع شركة وولفنشتاين، وليس في ذلك ما يثير الريبة. هناك آلة تصوير وفِلمان لم يُستخدما بعد كما يبدو، وبسبب احتمال وجود سجلات وثائقية على الفلمين قمنا باستبدالهما، ولكن تبين أن الفلمين الأصليين كانا عاديين ولم يُستخدَما بعد. أخذتْ أ. ش. حقيبة صغيرة وذهبت إلى أختها في ١٧ إيلمزلي غاردنز. وقد دخلت أختها هذا المساء مصحة في منطقة بورتلاند لإجراء عملية داخلية،

وتم التأكد من ذلك من المصحة نفسها ومن دفتر مواعيد الجرّاح أيضاً. وتبدو زيارة أ. ش. بريئة تماماً وليس فيها ما يثير الشكوك. ولم يبدُ عليها أي ارتباك أو انتباه لملاحقتنا لها. وقد فهمتُ أنها ستقضي هذه الليلة في المصحة، وقد أبقت على غرفتها في فندق سافوي. ستكون عودتها إلى نيويورك بواسطة الباخرة التي حجزت فيها مقعداً في الثالث والعشرين من الشهر.

توقف الرجل الذي أسمى نفسه «ساندرز صاحب النهر»، ثم أضاف ملاحظة استدراكية بدا وكأنه لا يريد تسجيلها رسمياً: ولئن سألتني عن رأيي لقلت إن الأمر كله خدعة وتضليل! إن كل ما تفعله هو إلقاء الأموال ذات اليمين وذات الشمال. اثنا عشر جنيهاً وثمانية عشر شلناً على الأزهار فقط؟ أمر عجيب!

* * *



الفصل الرابع

يمكن الإسهاب كثيراً في وصف ما تتحلى به فكتوريا من بهجة وانطلاق، بحيث لا تخطر لها للحظة واحدة إمكانية الفشل في الحصول على ما تريده. إنها امرأة لا تعرف اليأس، ولقد كان من المؤسف بالتأكيد أن يتبين لها في اللحظة التي وقعت فيها في حب ذلك الشاب الوسيم أنه على وشك المغادرة إلى مكان يبعد نحواً من ثلاثة آلاف ميل، ولو كان ذاهباً إلى بيرمنغهام أو بروكسل لهان الأمر.

أما أن تكون وجهته بغداد فقد رأت فكتوريا أن ذلك عائد لحظِّها التعس! ومع ذلك، ورغم صعوبة الأمر فقد نوت الذهاب إلى بغداد بشكل أو بآخر. مشت في شارع توتنهام كورت وهي تجيل في ذهنها الطرق والوسائل الممكنة. بغداد... ما هو العمل الممكن في بغداد؟ يقول إدوارد إنه «الثقافة». أيمكنها -يا ترى- أن تلعب لعبة الثقافة بشكل ما؟ اليونسكو مثلاً؟ كانت اليونسكو ترسل الناس دوماً إلى كل مكان في هذه الدنيا، وأحياناً ترسلهم إلى أجمل الأماكن. ولكن فكتوريا فكرت بأن مَن ترسلهم اليونسكو هم -في

العادة- نساء متفوقات ذوات شهادات جامعية التحقن بهذا المجال في وقت مبكر.

قررت فكتوريا أخيراً أن الأهم يأتي قبل المهم، فوجهت خطواتها نحو إحدى وكالات السفر، وهناك قامت بطرح أسئلتها. وقد بدا أن السفر إلى بغداد لا ينطوي على أية مصاعب؛ إذ يمكن للمرء أن يسافر جواً، أو بالطريق البحري الطويل إلى البصرة، أو بالقطار إلى مرسيليا ثم بالباخرة إلى بيروت ثم عبر الصحراء بالسيارة. يمكن للمرء الذهاب عبر مصر، كما يمكن له الذهاب بالقطار طوال الطريق إذا ما عزم على ذلك، ولكن التأشيرات كانت صعبة وغير مؤكدة في الوقت الحاضر، وتكاد مدة صلاحيتها تنقضي -عملياً- عندما يستلمها المرء. خلاصة القول أن الوصول إلى بغداد لا يشكل أية صعوبة أبداً طالما أن لدى المرء مبلغاً يتراوح بين ستين جنيهاً ومئة جنيه في جيبه.

وبما أن فكتوريا لا تملك الآن إلاّ ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات (إلاّ تسعة بنسات)، بالإضافة إلى خمسة جنيهات واثني عشر شلناً في صندوق توفير البريد، فإن سفرها بالطريقة البسيطة المستقيمة كان أمراً مستحيلاً.

قامت بتحريات حول إمكانية حصولها على وظيفة مضيفة جوية، ولكنها فهمت أن هذه الوظائف يكثر حولها التنافس ولها قوائم انتظار طويلة. بعد ذلك قامت فكتوريا بزيارة وكالة غيلدريك حيث حيتها الآنسة سبينسر وهي تجلس بثقة خلف مكتبها، حيتها

كمن يحيي شخصاً كُتب عليه طول التردد إلى هذه الوكالة بين الحين والآخر.

- يا إلهي! الآنسة جونز... لا تقولي إنك تركت عملك من جديد. لقد كنتُ آمل -حقاً- أن تكون هذه الوظيفة الأخيرة...

قاطعتها فكتوريا بحزم قائلة: وظيفة مستحيلة تماماً، لا يمكنني أن أشرح لك ما اضطررت إلى معايشته فيها.

احمرّت وجنتا الآنسة سبينسر الشاحبتان على نحو جميل وقالت: آمل أن لا يكون... أرجو فعلاً أن لا يكون... إنه لم يبدُ لي حقاً من ذلك النوع من الرجال، ولكنه رجل فظٌ بعض الشيء بالطبع. أرجو أن لا يكون...

قالت فكتوريا: "لا؛ الأمر على ما يرام"، ثم احتالت لإخراج ابتسامة باهتة شجاعة وأضافت: "أستطيع الاعتناء بنفسي جيداً". ثم ابتسمت ثانية ابتسامتها الجريئة.

راجعت الآنسة سبينسر سجلاتها ثم قالت: جمعية سينت ليونارد لمساعدة الأمهات تريد طابعة، ولكنهم لا يدفعون الكثير بالطبع.

سألت فكتوريا بسرعة: أتوجد أية فرصة في الحصول على عمل في بغداد؟

قالت الآنسة سبينسر بدهشة محببة: في بغداد؟!

رأت فكتوريا أن رد فعل الآنسة سبينسر يوشك أن يوحي بأنها

طلبت وظيفة في القطب الجنوبي. قالت: إنني أود كثيراً الذهاب إلى بغداد.

- لا أكاد أرى... أتقصدين الذهاب بوظيفة سكرتيرة؟

- بأية وظيفة كانت، ممرضة أو طباخة أو للعناية بمجنون... بأي شكل كان.

هزت الآنسة سبينسر رأسها نفياً وقالت: أخشى أن لا يكون لديّ الكثير من الأمل في ذلك. كانت هنا سيدةٌ بالأمس لديها ابنتان صغيرتان وطلبت اصطحاب أحد معها إلى أستراليا.

نحّتْ فكتوريا أستراليا بإشارة من يدها ونهضت قائلة: إذا سمعتِ بأي شيء. مقابل أجرة الطريق فقط... هذا كل ما أحتاجه.

ثم أجابت على الفضول في عيني سبينسر بأن قالت شارحة: إن لديّ... قريبة هناك. وقد سمعت عن وجود وظائف ذات دخل مرتفع، ولكن على المرء طبعاً أن يذهب إلى هناك أولاً.

وعندما خرجت فكتوريا من وكالة غيلدريك كررت قائلة لنفسها: نعم، لا بد للمرء أن يذهب إلى هناك.

وقد ظهر عامل إزعاج جديد لفكتوريا، فكما هو معتاد عندما يركز المرء انتباهه فجأة على اسم أو موضوع معين، بدا لها أن كل شيء قد تواطأ فجأة ليفرض فكرة بغداد على ذهنها. ففي صحيفة المساء التي اشترتها رأت فقرة قصيرة تقول إن الدكتور باونْسفوت جونز، عالم الآثار الشهير، قد بدأ التنقيب عن مدينة موريك الأثرية

التي تقع على بعد مئة وعشرين ميلاً من بغداد، وأتى إعلانٌ في الصحيفة علىٰ ذكر خطوط الشحن البحري إلى البصرة (ومن هناك بالقطار إلى بغداد والموصل وغيرهما من المدن)... وفي الصحيفة التي فرشت بها أرضية درج الجوارب استرعت انتباهها بضعة أسطر تتحدث عن الطلبة في بغداد... وكان فِلم «لص بغداد» يُعرض في دار السينما القريبة... وفي المكتبة الراقية التي يتردد عليها كبار المثقفين (وكانت فكتوريا غالباً ما تحدق إلى واجهتها) كانت تُعرض سيرة حياة جديدة لهارون الرشيد، خليفة بغداد.

وبدا لها أن بغداد قد أصبحت -فجأة- في بؤرة اهتمام العالم كله. ومع ذلك، فحتى الساعة الثانية إلاّ ربعاً من بعد ظهر ذلك اليوم لم تكن قد سمعت ببغداد، ولم تكن قد فكرت فيها أبداً بالتأكيد.

كانت احتمالات الوصول إلى هناك ضعيفة، ولكن لم تكن لدى فكتوريا فكرة بالاستسلام. كان لها عقل خصب ونظرة متفائلة تؤمن بأنك إذا ما أردت عمل شيء فستجد دوماً طريقة ما لعمله.

وقد استغلّت ليلتها في وضع قائمة بالطرق التي يمكن اتباعها. وقد جاء في القائمة:

المحاولة مع وزارة الخارجية؟

وضع إعلان؟

المحاولة مع الهيئة الدبلوماسية العراقية؟

ماذا عن شركات التمور؟

أو شركات شحن التمور؟

المجلس البريطاني؟

مكتب سِلفريدج للاستعلامات؟

مكتب تقديم المشورة للمواطنين؟

ولكنها اضطرت للاعتراف بأن أياً من هذه الحلول لم يكن واعداً، وعندها أضافت إلى القائمة:

وضع اليد بطريقة أو بأخرى على مئة جنيه؟

* * *

تأخرت فكتوريا في النوم بسبب جهود التركيز الذهني الكثيف الذي بذلته في الليلة السابقة، وربما بسبب قناعتها اللاشعورية بأنها لم تعد مضطرة للحضور إلى المكتب في تمام التاسعة صباحاً.

استيقظت في الساعة العاشرة وخمس دقائق، فقفزت مباشرة من سريرها وبدأت بارتداء ملابس الخروج، وقد كانت تجري آخر عملية تمشيط لشعرها الأسود المتمرد عندما رن جرس الهاتف. ذهبت إليه لتجد على الجانب الآخر الآنسة سبينسر وهي في حالة انفعال: أنا في غاية السرور لأنني وجدتك يا عزيزتي؛ إنها -حقاً- واحدة من أغرب المصادفات.

صاحت فكتوريا: نعم؟

- إنها مصادفة مخيفة كما قلت. لقد كسرت امرأة تُدعى السيدة كليب ذراعها، وهي تنوي السفر إلى بغداد بعد ثلاثة أيام. وهي تحتاج إلى مَن يساعدها في رحلتها... لقد اتصلتُ بك على الفور.

إنني لا أعلم -طبعاً- إن كانت قد لجأتْ إلى وكالات أخرى...

- أنا في طريقي إليها. أين هي؟

- في فندق السافوي.

- وما هو اسمها السخيف الذي قلتِه؟ تريب؟

- لا، بل كليب يا عزيزتي.

ثم اختتمت الآنسة سبينسر حديثها بالقول (وكأن من شأن ذلك أن يفسر كل شيء): وهي أمريكية.

- السيدة كليب في السافوي؟

- بل السيد والسيدة كليب. لقد كان الزوج هو الذي اتصل بي عملياً.

قالت فكتوريا لمحدثتها: "أنت رائعة... وداعاً". ثم نظفت بدلتها بسرعة باستخدام فرشاة وهي تتمنى لو أنها لم تكن على هذا القدر من البلى، ثم مشطت شعرها ثانية بحيث يبدو أقل نشازاً وأكثر ملاءمة لدور ملاك الرحمة ودور المسافر الخبير، ثم أخرجت التوصية التي كتبها لها السيد غرينهولتز وهزت رأسها أسفاً وهي تنظر إليها وقالت لنفسها: ينبغي أن أكون أفضل من ذلك.

نزلت فكتوريا من الحافلة رقم ١٩ في غرين بارك ودخلت فندق ريتز. كانت فكتوريا قد استفادت من نظرة سريعة ألقتها من فوق كتف امرأة تقرأ صحيفة في الحافلة، ولذلك فقد دخلت غرفة الكتابة في الفندق وكتبت لنفسها بعض أسطر المديح السخية بزعم أنها جاءتها

من الليدي سينثيا برادبيري التي كتبت الصحيفة تقول إنها قد غادرت إنكلترا لتوها في طريقها إلى شرقي أفريقيا. كتبت فكتوريا: "... **وهي رائعة في التمريض، وبالغة الكفاءة في كل شيء**".

غادرت فندق ريتز وقطعت الشارع ثم مشت قليلاً في شارع ألبيمارل حتى وصلت إلى فندق بالدرتن، المعروف بأنه مأوى لكبار رجال الدين وأرامل الطبقة الريفية العليا. وهناك كتبت توصية من أسقف لانغو كانت أقل من التوصية السابقة فخامة ومظهرية. ثم استقلّت الحافلة رقم ٩ متسلحةً بتلك التوصيات ومضت إلى فندق سافوي.

وفي قسم الاستقبال سألت فكتوريا عن زوجة هاملتون كليب، وأعطت اسمها باعتبارها قادمة من وكالة غيلدريك. وفيما كان الموظف على وشك رفع سماعة الهاتف توقف فجأة ونظر أمامه قائلاً: ها هو السيد هاملتون كليب.

كان السيد كليب أمريكياً بالغ الطول شديد النحول رمادي الشعر، وكان أسلوبه يتسم بالتهذيب والانتقاء المتمهل للكلمات.

أخبرتْهُ فكتوريا باسمها وأشارت إلى وكالة التوظيف فقال: آه، نعم يا آنسة جونز. الأفضل أن تصعدي مباشرة وتري السيدة كليب. إنها ما تزال في جناحنا في الأعلى، وأظنها تجري مقابلة مع شابة أخرى، ولكن ربما كانت الشابة قد ذهبت الآن.

اعتصر ذعرٌ شديد قلب فكتوريا. أيُقدَّرُ لأمنيتها أن تكون على هذه الدرجة من القرب، وعلى هذه الدرجة من البعد أيضاً؟

صعد الاثنان بالمصعد إلى الطابق الثالث، وفيما هما يسيران في الممر المفروش بالسجاد السميك خرجت فتاة من أحد الأبواب عند نهاية الممر وجاءت باتجاههما. وقد انتاب فكتوريا نوع من الهلوسة التي رأت معها أنها هي تلك الفتاة التي تقترب، وفكرت في أن ذلك ربما كان بسبب بدلة الفتاة المفصلة يدوياً والتي كانت تماماً ما تتمنى فكتوريا أن ترتديه شخصياً. وقالت لنفسها فيما يشبه العودة إلى الوحشية الأنثوية الغريزية: "كما أن من شأن البدلة أن تناسب حجمي تماماً، إننا من نفس الحجم. لَكَمْ أتمنى أن أنزعها عنها بالقوة".

عبرت الشابة أمامهما. كانت تضع قبعة مخملية صغيرة مائلة قليلاً على شعرها الأشقر بحيث تغطي وجهها جزئياً، ولكن السيد هاملتون كليب التفت لينظر إليها بشيء من الدهشة، ثم ما لبث أن قال هامساً: ما هذا... من كان سيتخيل هذا؟ آنا شيل.

ثم قال كمن يشرح تصرفه: اعذريني يا آنسة جونز. لقد دهشتُ إذ ميزتُ شابة كنت قد رأيتها في نيويورك منذ أسبوع فقط، وهي سكرتيرة لواحد من أكبر المصارف العالمية عندنا.

توقف عن الكلام عند باب في الممر. كان المفتاح مثبتاً في القفل، وبعد طرقة صغيرة على الباب فتحه السيد هاملتون ووقف جانباً ليسمح بدخول فكتوريا إلى الغرفة.

كانت السيدة كليب تجلس على كرسي مرتفع المسند قرب النافذة، وقد جفلت عند دخولهما. كانت امرأة قصيرة في خفة الطير

ذات عينين صغيرتين حادتين، وكانت ذراعها اليمنى ملفوفة بجبيرة من الجص.

عرّفها زوجها على فكتوريا فهتفت بحماسة: آه، لقد كان الحادث كله مؤسفاً. لقد كنا هنا نستمتع برؤية لندن، وكانت كل خططنا مكتملة وتذاكرنا محجوزة. إنني مسافرة لزيارة ابنتي المتزوجة في العراق يا آنسة جونز، فأنا لم أرها منذ قرابة العامين، وفجأة قُدِّر لي أن أقع. كان ذلك في كنيسة وستمنستر... وقعت وأنا أنزل درجاً حجرياً، وها أنا ذا كما ترين. هرعوا بي إلى المستشفى وجبّروا الكسر. صحيح أن الأمر ليس مزعجاً جداً، ولكنني عاجزة بعض الشيء كما ترين ولا أدري كيف سأتدبر أمر السفر. وزوجي جورج مرتبط بعمله تماماً ولا يستطيع تركه قبل مضي ثلاثة أسابيع على الأقل، ولذلك اقترحَ عليّ أخذ ممرضة معي إلى هناك. وأنا -في الحقيقة- لن أحتاج إلى ممرضة بمجرد وصولي هناك؛ فابنتي سادي بوسعها القيام بكل ما هو ضروري، بالإضافة إلى أن اصطحاب ممرضة سيعني دفع أجور عودتها أيضاً، ولذلك فقد فكرت في الاتصال بوكالات التوظيف لأرى إن كان بوسعي العثور على مرافقة تأتي معي مقابل أجور سفرها فقط.

قالت فكتوريا: أنا لستُ ممرضة بالضبط.

قالت ذلك بلهجة استطاعت فيها أن توحي بأنها ممرضة في الواقع. ثم أضافت: ولكن لديّ الكثير من الخبرة في التمريض.

أخرجت التوصية الأولى وقالت: وقد جاءت تلك التجربة من العمل مع الليدي سينثيا برادبيري لأكثر من عام. وإن كنتِ ترغبين

بإنجاز أية أعمال سكرتاريا أو مراسلات، فإنني عملت سكرتيرة لعمي لعدة أشهر.

ثم أضافت بتواضع: إن عمي هو أسقف لانغو.

- عمك أسقفٌ إذن. كم هو ممتع.

ورأت فكتوريا أن كلا الزوجين قد أُعجبا بها بالتأكيد (وهو ما كان ينبغي أن يحصل بعد كل ما بذلته من عناء!).

أعطت السيدة كليب التوصيتين لزوجها وقالت بتأثر: "يبدو ذلك رائعاً حقاً. نعمة من السماء. إن حضورك كان استجابة لكثير من الدعاء". وفكرت فكتوريا أن ذلك كان فعلاً استجابة لدعاء كثير، ولكنه دعاؤها هي وليس العكس.

سألت السيدة كليب: أأنت ذاهبة لتولي وظيفة ما هناك، أم لتلتحقي بقريب لك؟

لقد نسيت فكتوريا -في حمأة حماستها لتزوير التوصيات- أنها قد تضطر لتفسير أسباب سفرها إلى بغداد. أما وقد أخذتها السيدة كليب على حين غرة فقد كان عليها أن تمثل ارتجالاً وبسرعة. تذكرت الفقرة التي قرأتها بالأمس فقالت: سوف ألتحق بعمي هناك... الدكتور باونْسفوت جونز.

- حقاً؟ عالم الآثار؟

-نعم.

تساءلت فكتوريا -للحظة- إن كانت قد بالغت في إحاطة نفسها

بالعديد من الأعمام المتميزين المشهورين، ولكنها مضت قائلة: إنني شديدة الاهتمام بعمله، ولكني لا أملك -بالطبع- أية مؤهلات خاصة، ولذلك كان من المستحيل أن تدفع بعثة الآثار أجور سفري، فهي ليست في وضع مالي جيد. ولكن إن استطعتُ السفر على حسابي الخاص أمكنني الالتحاق بهم والقيام بدور مفيد معهم.

قالت السيدة كليب: لا بد أنه عمل ممتع جداً، ولا شك أن بلاد الرافدين حقل هائل للأنشطة الآثارية.

التفتت فكتوريا إلى السيد هاملتون وقالت: أخشى أن عمي الأسقف مسافر إلى سكوتلاندا في الوقت الحاضر، ولكنني أستطيع إعطاءك هاتف سكرتيرته، فهي في لندن حالياً، ورقمها هو ٨٧٦٩٣. ستجدها هناك ما بين الساعة... (اختلست فكتوريا نظرة إلى الساعة على رف الموقد) ١١,٣٠ فما فوق، إن كنت تريد الاتصال بها وسؤالها عني.

قالت السيدة كليب: آه، إنني واثقة...

ولكن زوجها قاطعها قائلاً: الوقت قصير جداً؛ فتلك الطائرة تغادر بعد غد. هل لديك جواز سفر يا آنسة جونز؟

- نعم.

حمدت فكتوريا الله على أن جواز سفرها كان مجدداً بسبب إجازة قصيرة قضتها في فرنسا في العام الماضي. أضافت تقول: لقد أحضرته معي خشية الحاجة إليه.

قالت السيدة كليب باستحسان: هذا ما أسميه التصرف العملي.

ولو كانت توجد أية مرشَّحة أخرى لهذه الوظيفة لتم استبعادها الآن؛ فقد بدا واضحاً أن فكتوريا -بما تملكه من توصيات جيدة وأعمامٍ وجواز سفر جاهز- قد حققت المراد.

قالت السيدة كليب وهي تأخذ الجواز: ستحتاجين للتأشيرات المطلوبة. سوف ألجأ إلى صديقنا، السيد بيرجن، في شركة أميريكان إكسبرس، وسوف يتولى هو تأمين كل شيء. ربما كان من الأفضل أن تأتي عصر اليوم بحيث يمكنك أن توقِّعي كل ما يحتاج إلى توقيع.

وهذا ما وافقت فكتوريا على القيام به.

وعندما أغلقت باب الغرفة خلفها سمعت السيدة كليب تقول لزوجها: يا لها من فتاة لطيفة مستقيمة! إننا محظوظون حقاً.

تلطفت فكتوريا وتركت وجهها يحمرّ خجلاً. ثم عادت إلى شقتها وزرعت نفسها قرب الهاتف مستعدةً لتبنّي اللهجة الجليلة المهذبة لسكرتيرة الأسقف المفترَضة في حال سعى السيد كليب للحصول على تأكيد لقدراتها، ولكن بدا واضحاً أن السيدة كليب قد أُعجبت بشخصية فكتوريا المستقيمة إلى الحد الذي لا تريد معه إزعاج نفسها بتلك الصغائر الفنية. فلم تكن الوظيفة لتعدو -في نهاية الأمر- بضعة أيام من رفقة السفر.

بعد ذلك تم ملء الأوراق وتوقيعها والحصول على التأشيرات الضرورية، وطُلب من فكتوريا أن تقضي الليلة الأخيرة في فندق

سافوي بحيث تكون قريبة جاهزة لمساعدة السيدة كليب في النهوض عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي والذهاب إلى مركز خطوط الطيران ومن ثم إلى مطار هيثرو.

* * *

الفصل الخامس

تهادى على شطّ العرب المركبُ الذي غادر الأهوار قبل يومين. كان التيار سريعاً، ولم يكن الرجل الذي يدفع المركب بحاجة إلى القيام بجهد يُذكر. كانت حركاته هادئة إيقاعية، وعيناه نصف مغمضتين، ومن بين أسنانه كان يغني بكل رقة موّالاً عربياً حزيناً لا ينتهي:

اسري بليل يا جملي،

هذي إلك يا بن علي.

وهكذا كان عبد السليمان (وهو من عرب الأهوار) قد قطع النهر في مناسبات سابقة لا حصر لها نزولاً إلى البصرة. وكان في المركب رجل آخر، رجل ذو هيئة غالباً ما تُرى في هذه الأيام وقد خلطت الشرق والغرب في ثيابها بشكل يدعو إلى الشفقة، فقد ارتدى فوق ردائه الطويل من القطن المخطط سترة خاكية متروكة قديمة ممزقة، وحشر تحت السترة البالية وشاحاً أحمر بهت لونه، وعلى رأسه بدت من جديد عزة اللباس العربي، الكوفية التي لا بد منها بلونيها الأبيض والأسود التي يثبتها العقال الحريري الأسود.

كان يسرح بعينيه الشاردتين دون تركيز على ما حول النهر، وسرعان ما بدأ هو الآخر يدمدم بنفس اللحن. كان رجلاً كآلاف الرجال الذين يصادفهم المرء في بلاد الرافدين. لم يكن فيه ما يوحي بأنه إنكليزي وبأنه يحمل معه سراً يسعى أصحاب نفوذ في كل بلد في العالم تقريباً إلى الحيلولة بينه وبين إيصاله، وإلى كتمه وكتم أنفاس من يحمله.

عاد بذهنه ليستعرض الأسابيع القليلة الماضية بشكل مشوش: الكمين في الجبال... برودة الثلج وهو يهوي فوق الوادي... قافلة الجِمال... الأيام الأربعة التي قضاها هائماً على قدميه في الصحراء الجرداء وبصحبته رجلان يحملان «سينما» محمولة... الأيام التي قضاها في الخيمة السوداء، وترحاله مع قبيلة عَنَزَة التي يرتبط معها بصداقة قديمة. كانت كلها أياماً صعبة، أياماً محفوفة بالخطر... وهو يتملص مرة بعد مرة من الطوق الأمني الذي تم نشره للبحث عنه واعتراض سبيله.

«هنري كارمايكل. عميل إنكليزي، عمره في نحو الثلاثين، شعره بني، عيناه سوداوان، طوله ١٧٦ سم. يتكلم العربية والكردية والفارسية والأرمنية والهندوستانية والتركية، بالإضافة إلى العديد من اللهجات الجبلية. له صداقات مع زعماء القبائل. خطير».

ولد كارمايكل في كاشغار حيث كان أبوه موظفاً حكومياً، وكان لسانه قد درج وهو طفل على العديد من اللهجات وأساليب الكلام المحلية. كانت مربياته (وخدمه فيما بعد) من قوميات مختلفة، وله صداقات في كل مجاهل الشرق الأوسط تقريباً.

لم تكن صِلاته وعلاقاته لتخذله إلاّ في المدن الكبيرة، وقد عرف الآن -وهو يقترب من البصرة- أن اللحظة الحرجة لمهمته قد أزفت. لا بد له -عاجلاً أو آجلاً- من الدخول ثانية إلى مناطق الحضر، ومع أن بغداد كانت وجهته النهائية، فقد قدَّر أن من الحكمة أن لا يأتي إليها مباشرة. في كل بلدة في العراق كانت تنتظره بيوت وأماكن تمت دراستها وإعدادها قبل أشهر عديدة، وقد تم الاتفاق على أن يُترك لتقديره الخاص أن يحدد أين سيحط رحاله، إذا صح التعبير. لم يكن قد أرسل أي خبر لرؤسائه، حتى من خلال القنوات غير المباشرة التي كان بوسعه استخدامها لذلك؛ فقد كان ذلك آمن له. كانت الخطة السهلة (التي تقضي بأن تنتظره الطائرة في الموعد المحدد) قد فشلت كما توقع لها، فقد عرف أعداؤه بذلك الموعد. التسرب... العلة دوماً في ذلك الأمر القاتل غير المفهوم... في التسرب.

وقد بلغ الأمر به حداً جعل مخاوفه من الخطر تتفاقم الآن. فهنا في البصرة، حيث المنظر الذي يوحي بالأمان، أحس بثقة غريزية بأن الخطر سيكون أكبر مما تعرض له خلال مجازفات رحلته الخطيرة. وأن يأتي ليفشل في المرحلة الأخيرة أمر لا يكاد يستطيع التفكير فيه.

وفيما كان العربي العجوز يجدِّف بشكل إيقاعي، قال دون أن يلتفت: لقد اقتربت اللحظة يا بني... الله يحفظك.

تمنى -للحظة- لو أنه كان ذا دماء شرقية لا غربية، كيلا يقلق على فرص النجاح والفشل، وكيلا يحسب المخاطر مرات عديدة

وهو يسأل نفسه إن كان تخطيطه سليماً يتسم ببعد الرؤية، وحتى يقول لنفسه بثقة أهل الشرق: إن شاء الله سأنجح!

بمجرد ترديد الكلمات مع نفسه غمرته سكينة البلد وتسليمها بالقدر، وقد رحب بهذا الشعور. إن عليه أن ينزل من القارب بعد لحظات، وأن يمشي في شوارع المدينة تحفّ به نظرات الأعين الثاقبة. لن يكون بوسعه أن ينجح إلاّ إذا شعر بشعور العربي، ولم يكتفِ فقط بالظهور بمظهر العربي.

انعطف القارب بهدوء إلى يمين النهر، وهناك كانت جميع أنواع القوارب والمراكب مربوطة على الشاطئ، وكانت قوارب أخرى تدخل قبل مركبهما وبعده. كان منظراً جميلاً يكاد يماثل مناظر البندقية، حيث المراكب بمقدماتها المنتصبة المزركشة والألوان الهادئة الباهتة لدهاناتها. كانت هناك مئات من المراكب مربوطة بعضها قرب بعض.

سأل العجوزُ بسرعة: لقد حانت اللحظة، هل توجد ترتيبات مهيئة لك؟

- نعم؛ الحقيقة أن خططي قد وُضعت. لقد جاءت ساعة مغادرتي.

- فليسهل الله لك طريقك، وليُطِل في عمرك.

جمع كارمايكل حوله أثوابه المقلّمة وصعد الدرجات الحجرية الزلقة إلى الرصيف الذي كان ينتشر حوله الناس الذين يجدهم المرء عادة في الموانئ؛ صبية صغار، وباعة برتقال يجلسون قرب صواني

بضاعتهم، ومشاة غارقون في تأملاتهم يسيرون على غير هدى ويسعلون بصوت عالٍ من وقت لآخر، وهم يتجولون ومسابحهم تطقطق في أيديهم. وفي الجانب الآخر من الشارع، حيث المحلات والمصارف، يمشي بسرعةٍ شبابٌ «أفندية» يرتدون بدلات أوروبية تميل ألوانها قليلاً إلى الحمرة. كما كان هناك أوروبيون أيضاً، من الإنكليز والأجانب. ولم يبد أي اهتمام واضح أو فضول لمجرد أن عربياً من ضمن خمسين غيره قد صعد لتوه من القارب إلى الشاطئ.

مشى كارمايكل بكل هدوء في الشارع كمن لا هدف له، وعيناه تستوعبان المشهد بالقدر المناسب تماماً من الفرح الطفولي بما يراه حوله، وبين فينة وأخرى كان يسعل دون إصدار صوت مبالغ به، بل لمجرد وضع نفسه في إطار المشهد حوله.

وهكذا اقترب الغريب من المدينة، ووصل الجسر في أعلى القناة فعبره ودخل السوق. وهنا كان الجو كله حركة وضوضاء؛ كان رجال القبائل النشطون يمشون ويدفعون الآخرين عن طريقهم، والحمير المحملة تشق طريقها وأصحابها يصيحون بصوت عالٍ: "بالَك... بالَك..."، والأطفال يتشاجرون ويصرخون ويركضون خلف الأوروبيين وهم يتادون بأمل: "بخشيش مدام، بخشيش... مسكين، مسكين...".

هنا كانت منتجات الغرب والشرق تُعرَض للبيع جنباً إلى جنب: أوانٍ من الألمنيوم، وصحون وفناجين وأباريق شاي، وأوان من النحاس المطروق، وتحف فضية، وساعات رخيصة، وأكواب

مطلية بالمينا، وسجاد ذو نقشات بهيجة من إيران، وصناديق أمتعة من الكويت، ومعاطف وسراويل وملابس أطفال مستعملة، ولُحُفٌ محلية الصنع، ومصابيح زجاجية ملونة، وكوم من الأباريق والجرار الفخارية... كل ما تنتجه الحضارة من البضاعة الرخيصة جنباً إلى جنب مع السلع المحلية.

كل شيء طبيعي جداً واعتيادي. لقد بدا هذا القدر من النشاط والفوضى غريباً لكارمايكل بعد الفترة الطويلة التي قضاها في القفار غير المأهولة، ولكن ذلك كله كان كما ينبغي له أن يكون. ولم يستطع أن يميز أي أمر غير طبيعي أو أي أثرٍ للاهتمام بوجوده، ومع ذلك فقد كانت غريزته غريزة امرئ عرف لسنوات طويلة معنى أن يكون مطارداً، وقد أشعرته غريزته الآن بعدم ارتياح متزايد... بإحساس غامض بالخطر. لم يستطع العثور على أي شيء خارج عن المألوف. لم ينظر إليه أحد، كما كان واثقاً أن أحداً لا يتبعه ولا يضعه تحت المراقبة، ومع ذلك كان ينتابه ذلك اليقين الذي يصعب تعريفه بوجود الخطر.

التفت ودخل في زقاق معتم إلى يساره، ثم استدار إلى زقاق آخر شمالاً، وهنا وصل إلى مدخل خان ينتصب بين الأكشاك. دخل من الباب إلى باحة الخان الداخلية التي كانت محاطة بالمحلات من كل جانب، ثم ذهب إلى محل منها كان يعلّق قطعاً من الفرو أشبه بالمعاطف المصنوعة من جلد خراف الشمال. وقف هناك يتفحص الفروات بدقة. كان صاحب المحل يقدم القهوة لأحد زبائنه، وكان الزبون رجلاً طويلاً ملتحياً ذا حضور رائع يلفّ قماشاً أخضر حول طربوشه مما يدل على أنه كان حاجّاً عاد لتوه من مكة.

وقف كارمايكل هناك يتلمس الفروة، ثم سأل: بيش هذا؟

- سبعة دنانير.

- هذا كثير.

قال الحاج: سترسل لي السجادات إلى خاني؟

أجابه التاجر: بالتأكيد. هل ستسافر غداً؟

- نعم؛ فجراً إلى كربلاء.

قال كارمايكل: كربلاء مدينتي. لقد مرت خمس عشرة سنة منذ أن رأيت قبر الحسين آخر مرة.

قال الحاج: إنها مدينة مقدسة.

قال التاجر وهو يلتفت إلى كارمايكل: توجد فروات أرخص في الغرفة الداخلية.

- إنني أحتاج فروة بيضاء من فروات الشمال.

قال التاجر وهو يشير إلى باب في الجدار الداخلي: عندي واحدة منها في الغرفة الأخيرة.

لقد مضت العملية بالطريقة المتفق عليها... حديث كأي حديث يمكن أن يُسمَع في أي سوق، ولكن التسلسل كان مضبوطاً تماماً... كل الكلمات الأساسية كانت موجودة: كربلاء... الفروة البيضاء...

إلاّ أن كارمايكل -وهو يعبر داخلاً إلى الغرفة الداخلية- رفع بصره إلى وجه التاجر، وعرف فوراً أن الوجه ليس هو الوجه الذي

توقع رؤيته. ورغم أنه لم يرَ ذلك الرجل تحديداً إلاّ مرة واحدة من قبل، إلاّ أن ذاكرته الحادة لم تكن مخطئة. يوجد شبه بين الاثنين، بل شبه كبير جداً، ولكنه لم يكن نفس الرجل.

توقف ثم قال بشيء من الدهشة الخفيفة: أين صلاح حسن إذن؟

- لقد كان أخي، وقد مات منذ أيام، وأنا أتولى شؤونه الآن.

نعم، ربما كان هذا أخاً، فالشبه قريب جداً. ومن الممكن أن يكون الأخ -أيضاً- مُستخدَماً من قبل القسم؛ فالأجوبة كانت صحيحة دون شك. ومع ذلك فقد دخل كارمايكل الغرفة الداخلية بانتباه إضافي. وهنا أيضاً كانت البضاعة مكدسة على الرفوف؛ دلال قهوة، ومطاحن سكر نحاسية، وأوان إيرانية قديمة من الفضة، وأكوام من المطرزات والعباءات الملفوفة وأطقم شاي دمشقية مطعّمة بالمينا.

كانت هناك فروة بيضاء ملفوفة بعناية بمفردها على طاولة شاي صغيرة. ذهب كارمايكل إليها وأخذها، وكانت تحتها بدلة أوروبية فاقعة اللون قليلاً كاد البلى يلحقها، وكانت المحفظة التي تحتوي على المال والأوراق الثبوتية موضوعة في جيب صدر البدلة. لقد دخل إلى المحل عربياً مجهولاً، ولن يلبث أن يخرج منه سيداً اسمه ولتر وليامز من شركة كروس للاستيراد والشحن ليلتحق ببعض المواعيد التي أعدت له مسبقاً. لقد كان يوجد رجل حقيقي باسم ولتر وليامز بالطبع. إلى هنا بلغ الحرص، وكان ذلك الرجل ذا ماضٍ

تجاري محترم ومعروف. كل شيء يسير -إذن- وفق الخطة. وبدأ كارمايكل يفك أزرار سترته العسكرية متنهداً بارتياح، فكل شيء على ما يرام.

ولو كان الاختيار قد وقع على المسدس كسلاح لكانت مهمة كارمايكل قد انتهت هنا وفي هذه اللحظة، ولكن للسكين فوائدها... وأهمها عدم إصدار أصوات.

على الرف -أمام كارمايكل- وُضعت دلة كبيرة للقهوة، وكانت تلك الدلة قد لُمّعت حديثاً بناء على طلب زبون أمريكي كان سيأتي لأخذها، وهكذا انعكست التماعة السكين على ذلك السطح اللامع المكور... انعكست على دلة القهوة صورة كاملة، مشوهة ولكنها واضحة. الرجل الذي انسلّ من بين الثياب المعلقة خلف كارمايكل والسكين الطويلة المنحنية التي استلها لتوه من بين ملابسه... وكان من شأن تلك السكين أن تنغرس بعد لحظة في ظهر كارمايكل.

استدار كارمايكل بلمح البصر، وبصراع صامت قصير استطاع أن يطرح الرجل أرضاً، وطارت السكين عبر الغرفة. خلص كارمايكل نفسه بسرعة وقفز من فوق الرجل الممدد، ثم اندفع خارجاً عبر الغرفة الخارجية حيث لمح الوجه الحاقد المصعوق للتاجر والدهشة الهادئة للحاج السمين. ثم خرج عابراً الخان ليدخل من جديد إلى السوق المزدحم، ثم استدار في اتجاه معين، ثم في اتجاه آخر، وعاد الآن ليمشي دون إبداء أية علامة للعجلة في بلد تبدو فيه العجلة أمراً غير عادي.

وهكذا مشى على غير هدى تقريباً، متوقفاً بين حين وآخر

ليتفحص بضاعة معينة أو ليلمس قماشاً، بينما كان ذهنه يعمل بشكل محموم. لقد انهارت الخطة! وها هو مرة أخرى بمفرده في أرض عدوة. وقد كان مدركاً للمغزى السيء لما حدث قبل قليل.

إن ما يخشاه لم يكن أعداءه الذين يلاحقونه، ولا أولئك الأعداء الذين يسدون عليه سبل الوصول إلى الحضر، ولكن كان ثمة أعداء عليه أن يخشاهم داخل المؤسسة نفسها؛ لأن كلمات السر قد عُرفت وجاءت الإجابات جاهزة صحيحة، وقد جاء توقيت الهجوم دقيقاً في نفس اللحظة التي يكون فيها قد استُدرج للشعور بالاطمئنان. ربما لم يكن من المدهش وجود خيانة من الداخل. لا بد أن هدف الأعداء كان -دوماً- محاولة إدخال أحد عناصرهم إلى داخل المؤسسة أو ربما شراء الشخص الذي يحتاجونه. إن شراء رجل مسألة أسهل مما قد يخيل للمرء... ويمكن للمرء أن يُشترى بأشياء أخرى غير المال.

حسناً، لقد حدث ذلك، بغضّ النظر عن طريقة حصوله. ها قد عاد للهروب والتنقل... لا معين له إلاّ إمكاناته الذاتية، دون مال، ودون مساعدة من شخصيةٍ أخرى، وبمظهره الذي غدا معروفاً. بل ربما كان أحدٌ يتبعه في هذه اللحظة نفسها.

لم يلتفت، فما فائدة الالتفات؟ إن من يتبعونه لم يكونوا مبتدئين في هذه اللعبة. استمرّ في المشي بهدوء ودون هدف، ولكنه -خلف سلوكه الكسول الظاهر- كان يدرس احتمالات مختلفة. وأخيراً خرج من السوق وعبَرَ الجسر الصغير فوق القناة، وظل يمشي إلى أن رأى تلك اللوحة الكبيرة المكتوبة فوق المدخل: «القنصلية البريطانية».

نظر يمنة ويسرة إلى الشارع. لم يبدُ أن أحداً يعيره أي انتباه. وبدا له أنه من السهل جداً أن يتسلل إلى القنصلية البريطانية. فكّر للحظة، فكّر بمصيدة فئران... مصيدة فئران منصوبة وفيها قطعة الجبن المغرية. تلك المصيدة أيضاً تراها الفأرة سهلة ميسورة!

ولكن لا بد من الإقدام على المجازفة. لم يرَ شيئاً آخر بوسعه أن يفعله، فدخل البوابة.

* * *

الفصل السادس

جلس ريتشارد بيكر في المكتب الخارجي للقنصلية البريطانية منتظراً فراغ القنصل من عمله.

كان قد نزل البر من المركب المسمى «إنديان كوين» في ذلك الصباح وأشرف على إخراج أمتعته من الجمارك، وكان جل تلك الأمتعة من الكتب، كما تم حشر بعض ثياب النوم والقمصان بين الكتب وكأنما كان ذلك استدراكاً منه.

كان المركب قد وصل في وقته المحدد، وبما أن ريتشارد كان قد استبق موعد عودته بيومين (تحسباً من التأخير الذي كان عادةً في المراكب الصغيرة من طراز إنديان كوين) لذلك فقد وجد أمامه يومين قبل أن يضطر لاستكمال طريقه -عبر بغداد- إلى وجهته النهائية، وهي تل أَسْوَدْ، موقع مدينة موريك الأثرية.

وكان قد وضع خططه أصلاً لنشاطه خلال هذين اليومين؛ فقد أثار فضوله دوماً تلٌ اشتُهر عنه احتواؤه آثاراً قديمة قرب شاطئ الكويت، وقد جاءته هذه الفرصة من السماء للبحث في ذلك التل.

ذهب إلى فندق المطار وسأل عن كيفية الذهاب إلى الكويت فقيل له إن طائرة تغادر في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، وإن بوسعه العودة في اليوم التالي، وهكذا كان كل شيء واضحاً ميسوراً، باستثناء الإجراءات الشكلية التي لا بد منها، كتأشيرة الخروج وتأشيرة الدخول إلى الكويت، ومن أجل تجاوز ذلك كان عليه أن يلجأ إلى القنصلية البريطانية. وقد سبق لريتشارد أن التقى في إيران -قبل بضع سنوات- بالقنصل العام الحالي للبصرة، السيد كلايتون، ورأى أنه سيكون من المفرح أن يراه الآن مرة أخرى.

كانت للقنصلية مداخل عدة: بوابة كبيرة لدخول السيارات، وبوابة صغيرة أخرى يمر الطريق إليها بحديقة القنصلية خروجاً إلى الطريق الممتد على طول شط العرب. أما المدخل الرسمي (لأغراض العمل) فكان على الشارع العام.

دخل ريتشارد، وأعطى بطاقته إلى الموظف المناوب فقيل له إن القنصل العام مشغول حالياً ولكنه سيفرغ قريباً، ثم تم إدخاله إلى غرفة انتظار صغيرة إلى يسار الممر الذي يخترق القنصلية من مدخلها وصولاً إلى الحديقة في الطرف الآخر. وكان في غرفة الانتظار -أصلاً- عدة أشخاص لم يكد ريتشارد يعيرهم التفاتاً، إذ نادراً ما كان يهتم بأفراد الجنس البشري، ولعل قطعة من الفخار الأثري القديم كانت تثير فيه من الحماسة أكثر مما يثيره شخصٌ وُلد في مكان ما في القرن العشرين بعد الميلاد.

سرح بأفكاره سعيداً يفكر في بعض ملامح أبجدية ماري وفي تحركات القبائل المحلية عام ١٧٥٠ قبل الميلاد. ولعل من

الصعب التحديد الدقيق للشيء الذي صحّاه على إحساس حي قوي بالحاضر وبإخوانه من بني البشر. كان الأمر -في البداية- شعوراً بسيطاً بالتململ وبشيء من التوتر، ورأى أن هذا الإحساس قد جاءه عبر أنفه، رغم أنه لم يكن واثقاً من ذلك. لم يكن شعوراً يمكن وصفه بكلمات محددة... ولكنه كان موجوداً بالتأكيد، وقد أعاده ذلك الشعور إلى أيام قضاها في الحرب الأخيرة. أعاده إلى مناسبة معينة بالتحديد هبط فيها -هو واثنان من أصحابه- من الطائرة بالمظلات، وانتظر هو وأصحابه في ساعات الفجر الباردة حتى يحين موعد مهمتهم. كانت لحظة انخفضت فيها المعنويات وتمثلت لهم بكل وضوح المخاطر الكاملة لما هم مقدمون عليه، لحظة رعب خشية أن لا يكون المرء على مستوى مهمته، لحظة يتقلص فيها الجسد. إن في الجو الآن نفس ذلك الإحساس الحاد المرير الذي لا يكاد يبين... **رائحة خوف!**

لبضع لحظات لم يتم تسجيل هذا الانطباع إلاّ في اللاشعور. كان نصف عقله يسعى -بعناد- لإبقاء تركيزه على ما قبل الميلاد، ولكن إلحاح الحاضر كان أعظم من أن يُتجاهل.

إن أحد الموجودين في هذه الغرفة الصغيرة يحس برعب قاتل!

نظر حوله، فرأى رجلاً عربياً في سترته الخاكية البالية وأصابعُهُ تعبث بكسل بحبات سبحة الكهرمان التي يحملها، ورجلاً إنكليزياً ذا شارب رمادي يميل إلى البدانة، كان من نمط التجار المتجولين وكان يسجل بعض الأرقام في دفتر ملاحظات وقد بدا غارقاً في ذلك

وموحياً بالأهمية، ورجلاً نحيلاً متعب الهيئة شديد السمرة يتكئ في كرسيه إلى الخلف في جلسة هادئة ووجهه هادئ القسمات لا يوحي بأي اهتمام، ورجلاً بدا وكأنه موظف عراقي، وآخر إيرانياً كهلاً يرتدي ثياباً فضفاضة بيضاء كالثلج... جميعهم يبدون غير مهتمين.

انتظمت طقطقات كهرمان السبحة في إيقاع محدد، وبدا ذلك مألوفاً بطريقة غريبة. حرك ريتشارد نفسه ليشحذ انتباهه، فقد كان نصف نائم. معترضة... نقطة... معترضة... نقطة... إنها شيفرة مورس، الشيفرة البرقية التي ابتدعها مورس بالتأكيد. كان ذا خبرة بشيفرة مورس؛ فقد تعامل معها كجزء من واجبه أثناء الحرب، ويمكن له أن يفك رموزها بسهولة. ب.و.م.ة... بومة. إ.ي.ت.و.ن... إيتون... بومة إيتون! يا له من أمر غريب! نعم، هذا هو معناها! وقد تكررت... «بومة إيتون». كان ذلك هو الاسم الذي أُطلق عليه عندما التحق بكلية إيتون وهو يضع نظارة ضخمة جداً ذات زجاج سميك، وها هو الاسم الآن يرسله (أو بالأحرى يطقطقه) أعرابي جلف رث الثياب! ما هذا؟

نظر عبر الغرفة إلى العربي متأملاً كل صغيرة وكبيرة في هيئته: الثوب المخطط... والسترة الخاكية القديمة... والوشاح الأحمر المنسوج باليد نسجاً سيئاً مليئاً بالثغرات. لا يعدو ذلك أن يكون رجلاً ممّن يرى المرء مئات منهم قرب الموانئ. والتقت عينا الرجل بعينيه بفراغ لا يدل على أي تمييز له، ولكن حبات السبحة استمرت تطقطق: «**فقير هنا. ساعدني. مشكلة**».

فقير؟ فقير؟ نعم، بالطبع! **الفقير كارمايكل!** تلك هي الصفة

التي ألحقوها باسم كارمايكل؛ لأنه وُلد في مكان ناءٍ ما من هذا العالم... تركستان أو أفغانستان؟

أخرج ريتشارد غليونه وسحب ذيله ثم نظر إلى تجويفه وأخذ ينقره في منفضة سجائر قريبة وكأنه يريد تفريغه، وكانت نقرات الغليون تقول: «استُلِمت الرسالة».

بعد ذلك حدثت الأمور بسرعة كبرى، وقد تعب ريتشارد لاحقاً في محاولة ترتيبها؛ فقد نهض العربي ذو السترة الخاكية البالية وعبَر الغرفة باتجاه الباب، وترنح وهو يمر بالقرب من ريتشارد، فامتدت يده وأمسكت بريتشارد لكي يوازن نفسه. ثم اعتدل واعتذر ومشى باتجاه الباب.

كان ما حدث عندها مدهشاً وسريعاً بحيث بدا الأمر لريتشارد أشبهَ بمشهد سينمائي منه بمشهد من الحياة الواقعية؛ فقد قذف التاجر المتجول السمين دفتر ملاحظاته وبحث عن شيء في جيب معطفه، ولكن بدانته وضيق معطفه عليه أخّراه بضع ثوانٍ عن إخراج ذلك الشيء. وفي هذه الثواني القليلة تصرف ريتشارد، فما أن أخرج الرجل المسدس حتى هاجمه ريتشارد فأوقع المسدس من يده، وانطلق المسدس لتستقر طلقة في أرض الغرفة.

كان العربي قد خرج من الغرفة واستدار باتجاه غرفة القنصل، ولكنه توقف فجأة ثم عاد وركض بسرعة في الاتجاه المعاكس ليخرج من الباب الذي دخل منه إلى الشارع المزدحم.

هرع خادم القنصل إلى جانب ريتشارد الذي كان يقف ممسكاً

بذراع الرجل البدين، أما الآخرون الذين كانوا في الغرفة فقد وقف أحدهم منفعلاً يرتعد، وظل الرجل الأسمر والإيراني الكهل يحدقان دون تحريك ساكن.

قال ريتشارد: ماذا تفعل يا رجل، ملوّحاً بمسدس على هذا الشكل؟

سادت لحظة صمت قصيرة، ثم قال الرجل السمين بلهجة لندنية شاكية: آسف يا صاحبي. كان ذلك مجرد حادث عرضي؛ سوء تصرف مني.

- هراء. كنت تريد إطلاق النار على ذلك الرجل العربي الذي هرب لتوه.

- لا، لا يا صاحبي، لم أرد إطلاق النار عليه. أردت تخويفه فقط. لقد ميزته -فجأة- بأنه الرجل الذي خدعني في تحفة ابتعتها منه. كانت مجرد تسلية.

كان ريتشارد بيكر رجلاً شديد التحرز يكره كل أنواع الفضائح، وقد دفعته غريزته إلى تقبل ذلك التفسير على ظاهره وعلاّته. إذ ما الذي يمكنه إثباته في نهاية الأمر؟ وهل من شأن كارمايكل الفقير أن يشكره على إثارة ضجة كبرى حول هذه القضية؟ الأرجح أن لا يشكره إن كان في مهمة سرية تتطلب الكتمان.

أرخى ريتشارد قبضته عن ذراع الرجل ملاحظاً أنه أصبح يسبح في عرقه، أما الخادم فتكلم بانفعال قائلاً إن إحضار أسلحة نارية إلى

القنصلية البريطانية أمر خاطئ جداً وغير مسموحٍ به، وإن القنصل سيغضب كثيراً لذلك.

قال الرجل البدين: "إنني أعتذر. مجرد حادث صغير..."، ثم دس بعض النقود في يد الخادم الذي أعادها إليه بسخط، فعاد الرجل ليقول: الأفضل أن أخرج من هنا... لن أنتظر رؤية القنصل.

ثم دفع فجأة ببطاقة إلى ريتشارد وقال: هذه بطاقتي، وأنا موجود في فندق المطار إن حدثت أية تطورات، ولكن الأمر كان مجرد حادث في الواقع... مجرد مزحة إن كنت تفهم ما أعنيه.

وبتردد راقبه ريتشارد وهو يخرج من الغرفة بشيء من عدم الارتياح ويمضي إلى الشارع. أمل أن يكون قد تصرف بالشكل الصحيح، ولكن كان من الصعب على المرء أن يعرف التصرف الصحيح وهو يجهل كل شيء كما كان شأنه.

قال الخادم: "لقد فرغ السيد كلايتون الآن"، فتبعه ريتشارد في الممر، وكان ضوء الشمس يزداد كلّما اقتربا من غرفة القنصل التي كانت آخر غرفة على الجهة اليمنى من الممر.

كان السيد كلايتون جالساً خلف مكتبه، وكان رجلاً هادئاً أشيب الشعر ذا وجه دائم التفكير. قال له ريتشارد: لا أدري إن كنت تذكرني؟ لقد قابلتك في طهران قبل عامين.

- طبعاً أتذكر. كنتَ مع الدكتور باونسفوت، أليس كذلك؟ هل ستنضم إليه مرة أخرى هذا العام؟

- نعم، أنا ذاهب إليه الآن، ولكنّ لديّ يومين لا عمل لي فيهما، وقد أردت السفر إلى الكويت. أتظن أن في ذلك صعوبة؟

- آه، لا؛ ستقلع طائرة صباح غد، ولا يستغرق الأمر أكثر من ساعة ونصف. سأبرق لأركي غونت... إنه الموظف المقيم لنا هناك، وسوف يستضيفك عنده، وسنستضيفك نحن هنا الليلة.

قال ريتشارد بشيء من الاحتجاج: آه، لا أريد إزعاجكما أنت والسيدة كلايتون؛ بوسعي الذهاب إلى الفندق.

- إن فندق المطار ممتلئ عن آخره، وسوف يسعدنا أن نستضيفك هنا. أنا واثق أن زوجتي ستسعد بلقائك مرة أخرى. إننا نستضيف حالياً السيد كروسبي من شركة النفط وشاباً مساعداً للدكتور راثبون جاء إلى هنا للتخليص على بعض صناديق الكتب في الجمارك. هيا إلى الطابق العلوي لترى روزا.

ثم نهض ورافق ريتشارد خروجاً من الباب إلى الحديقة المشمسة، ثم صعد الاثنان درجاً يفضي إلى جناح المعيشة في القنصلية. دفع جيرالد كلايتون باباً من السلك المشبّك عند أعلى الدرج وقاد ضيفه إلى مدخل طويل معتم قليلاً على أرضيته سجاد جميل وعلى جانبيه أثاث يدل على الذوق، وقد ارتاح ريتشارد لدخوله هذه العتمة الباردة بعد وهج الشمس في الخارج.

نادى كلايتون زوجته التي كان ريتشارد يتذكرها كشخصية مرحة ذات حيوية فائقة، وسرعان ما خرجت السيدة كلايتون من غرفة في نهاية الممر.

- هل تذكرين السيد ريتشارد بيكر يا عزيزتي؟ لقد سبق له أن زارنا برفقة الدكتور باونسفوت جونز في طهران.

قالت السيدة كلايتون وهي ترحب بضيفها: بالطبع، وقد ذهبنا معاً إلى السوق واشتريتَ أنت بعض السجاد الرائع.

كانت السيدة كلايتون -عندما لا يتاح لها الشراء شخصياً- تجد لذة في حث أصدقائها ومعارفها على الشراء من الأسواق المحلية، وكانت لها خبرة هائلة في قيمة الأشياء، بالإضافة إلى كونها مفاوضة بارعة في الشراء.

قال لها ريتشارد: لقد كانت تلك أفضل عملية شراء أبرمتها في حياتي، والفضل كله يعود إلى تلطُّفكِ عليّ بخدمة رائعة.

قال السيد كلايتون: يريد ريتشارد السفر جواً إلى الكويت غداً، وقد قلتُ له إن بوسعنا استضافته هنا هذه الليلة.

قال ريتشارد معتذراً: ولكن إن كان في ذلك أي إزعاج...

قاطعته السيدة كلايتون قائلة: لا يوجد أي إزعاج بالطبع. صحيح أننا لا نستطيع أن نوفر لك أفضل غرفة من غرف الضيوف (لأن الكابتن كروسبي يشغلها)، ولكن بوسعنا أن نريحك تماماً. هل تنوي شراء واحد من تلك الصناديق الكويتية الرائعة لحفظ الثياب؟ إن جيرالد لا يدعني أشتري صندوقاً آخر لبيتنا هنا، رغم أنه سيكون مفيداً تماماً لحفظ البطانيات الزائدة فيه.

علق زوجها قائلاً بلطف: لديك ثلاثة منها يا عزيزتي! حسناً،

إنني أعتذر الآن يا بيكر. عليّ العودة إلى المكتب؛ إذ يبدو أن مشكلة قد حدثت هناك. فهمتُ أن أحدهم أطلق النار من مسدسه.

قالت السيدة كلايتون: أحسبه أحد الشيوخ المحليين. إنهم سريعو الانفعال كثيراً ويحبون الأسلحة النارية بشدة.

صحّح ريتشارد قائلاً: "على العكس. كان من أطلق النار إنكليزياً، ويبدو أن هدفه كان إطلاق النار على رجل عربي". ثم أضاف بهدوء: وقد ضربتُ ذراعه.

قال السيد كلايتون: "لقد كنتَ في المعمعة إذن. لم أعرف ذلك". ثم أخرج من جيبه بطاقة وقرأ فيها: يبدو أن اسمه روبرت هول من شركة أكيل للتعهدات. لا أدري لماذا أراد رؤيتي. هل كان ثملاً؟

أجاب ريتشارد ببرود: لقد قال إنها كانت مجرد مزحة، وإن المسدس انطلق بالصدفة.

رفع كلايتون حاجبيه وقال: إن التجار المتجولين لا يحملون عادة مسدسات محشوة في جيوبهم!

رأى ريتشارد أن كلايتون لم يكن بالرجل المغفل. قال له: ربما كان عليّ أن أوقفه وأمنعه من الانصراف.

- من الصعب معرفة ما على المرء فعله في مثل هذه الحالات. هل أصيب الرجل الذي أُطلِقت عليه النار؟

- لا.

- ربما كان من الأفضل ترك المسألة عند ذلك الحد إذن.

- إنني أتساءل عما وراء ذلك.

- نعم، نعم... أنا أتساءل أيضاً.

بدا كلايتون شارداً قليلاً، ثم قال وهو يسرع بالذهاب: حسناً، ينبغي أن أعود لمكتبي.

اصطحبت السيدة كلايتون ريتشارد إلى غرفة الجلوس (وهي غرفة داخلية كبيرة ذات طنافس وستائر خضراء)، ثم سألته إن كان يفضل مشروباً حاراً أو بارداً فاختار الأخير، وسرعان ما جاءه كوب من العصير المثلج.

سألته عن سبب ذهابه إلى الكويت فأخبرها، وسألته عن سبب عدم زواجه فقال لها إنه لا يرى نفسه من النوع الذي يمكن أن يوفر ما يحتاجه الزواج من الاستقرار، وجواباً على ذلك سارعت السيدة كلايتون إلى القول إن ذلك هراء وإن الآثاريين يصبحون -عادة- أزواجاً رائعين. ثم سألته إن كانت أي شابة ستأتي للعمل في موقع الحفريات في هذه السنة، فأجابها بأن واحدة ستأتي أو اثنتين، بالإضافة إلى زوجة الدكتور باونسفورت طبعاً.

بعد ذلك دخل الغرفة رجل قصير قوي البنية قدمته السيدة كلايتون على أنه الكابتن كروسبي، وقالت له إن السيد ريتشارد بيكر عالم آثار ينقّب ويستخرج تحفاً مثيرة جداً عمرها آلاف السنين.

قال الكابتن كروسبي: أنا لم أستطع أن أفهم -أبداً- كيف

يستطيع علماء الآثار أن يحددوا عمر هذه الآثار بدقة، ولقد رأيت دائماً أن علماء الآثار هؤلاء هم -دون شك- أكثر خلق الله كذباً، ها.. ها.. ها..

نظر إليه ريتشارد نظرة فيها شيء من السأم، فقال الكابتن كروسبي: عفواً، ولكن كيف يستطيعون معرفة عمر كل أثر؟

أجابه ريتشارد بأن شَرْح ذلك يتطلب وقتاً طويلاً، وسارعت السيدة كلايتون إلى أخذ ريتشارد لرؤية غرفته، وهناك قالت: إنه لطيف، ولكن له عيوباً. ليست لديه أية فكرة عن الثقافة.

وجد ريتشارد غرفته -وقد انفرد بها بنفسه- مريحة جداً، وازداد إعجابه بالسيدة كلايتون كمضيفة ممتازة. ثم تحسس جيب معطفه فوجد فيه شيئاً، أخرجه فوجده ورقة متسخة مطوية. ونظر إليها مدهوشاً، فقد كان متأكداً أنها لم تكن في جيبه عند الصباح.

تذكر كيف أمسك العربي به عندما ترنح. إن من شأن رجل خفيف اليد أن يدسّ هذه الورقة في جيبه دون أن يحس هو بذلك. بعد ذلك فتح الورقة. كانت متسخة، وبدا أنها طويت ثم فتحت مراراً عديدة من قبل.

كان فيها ستة أسطر ذات خط سيء، وموضوعها تزكية من الميجر جون ويلبرفورس لشخص يدعى أحمد محمد، يصفه فيها بأنه عامل مجدٌّ ونشيط وقادر على قيادة شاحنة والقيام بتصليحاتٍ ثانوية، وأنه نزيه جداً... وكانت مؤرخة قبل ثمانية عشر شهراً، وهو أمر لا يعتبر مستهجناً، إذ يحتفظ أصحاب تلك التزكيات بها بكل حرص ولفترة طويلة.

قطب ريتشارد جبينه وأخذ يستعرض أحداث الصباح بطريقته الدقيقة المنظمة. لقد أصبح الآن متأكداً تماماً من أن الفقير كارمايكل كان خائفاً على حياته. كان مطارَداً فاندفع إلى القنصلية. لماذا؟ ليجد الأمن؟ ولكنه وجد -بدلاً من ذلك- خطراً أشدّ وأقرب؛ فقد كان العدو (أو ممثلٌ عن العدو) بانتظاره. لا بدّ أن هذا التاجر الجوال كانت لديه أوامر محددة تماماً حتى يُقدم على المجازفة بإطلاق النار على كارمايكل في القنصلية وبحضور شهود. لا شك أن الأمر كان عاجلاً ومُلحّاً جداً إذن، وقد التمس كارمايكل مساعدة صديقِ دراسة قديم، واستطاع أن يمرر إليه هذه الورقة التي تبدو بريئة في ظاهرها. لا بد أن هذه الورقة شديدة الأهمية إذن، وإن استطاع أعداء كارمايكل أن يمسكوا به ويجدوا أنه لم يعد يمتلك هذه الوثيقة فلا شك أنهم سيجرون حساباتهم ثم يبحثون عن أي شخص أو أشخاص كان بوسع كارمايكل تمرير الوثيقة إليهم.

ماذا يفعل ريتشارد بيكر بهذه الورقة إذن؟ بوسعه أن يدفعها إلى السيد كلايتون باعتباره ممثلاً لحكومة جلالة الملكة. أم تراه يحتفظ بها في حوزته حتى يأتي الوقت الذي يطلبها كارمايكل؟

بعد لحظات من التفكير قرر ريتشارد اعتماد الخيار الأخير، ولكنه اتخذ -بدايةً- بعض الاحتياطات. مزق نصف ورقة بيضاء من رسالة قديمة، وجلس ليكتب تزكية لسائق شاحنة بنفس الصفات التي ذُكرت في الورقة الأصلية، ولكن بصياغة مختلفة... فإن كانت تلك الرسالة شيفرة معينة أمكن لهذه الجديدة أن تضلّل من يقرؤها... مع أنه كان ممكناً -بالطبع- أن تكون رسالة مكتوبة بحبر سري ما.

ثم قام بتلطيخ الرسالة التي كتبها بالتراب من باطن حذائه وفركها بين يديه، ثم طواها وأعاد فتحها عدة مرات حتى بدت في حال معقولة من القِدَم والاتساخ، ثم كورها ووضعها في جيبه. أما الأصلية فقد نظر إليها لحظات وهو يفكر ويرفض العديد من الخيارات. وأخيراً ابتسم وراح يطوي الورقة حتى أصبحت مستطيلاً صغيراً، ثم أخرج من حقيبته إصبعاً من المعجون (الذي لا يسافر دونه لحاجته إليه في عمله) وبدأ بأن أحاط الرسالة المطوية بقطعة من النايلون الذي لا ينفذ منه الماء اقتطعها من باطن حقيبته، ثم أحاطها بالمعجون تماماً. بعدها قام بدعك المعجون بشكل دائري، ثم سطّحه حتى غدا ذا سطح أملس. وعندها مرَّر على سطح المعجون ختماً دائرياً محفوراً بحيث أخذ شكل الختم.

نظر إلى ما فعله باستحسان. كان الشكل تصميماً محفوراً بشكل جميل لإله الشمس المدعو شَمَش المتسلح بسيف العدالة. وقال لنفسه: لنأمل أن يكون هذا فألاً حسناً.

في تلك الليلة، عندما بحث في جيب المعطف الذي كان يرتديه صباحاً، وجد أن الورقة الملفوفة التي كتبها قد اختفت.

* * *

الفصل السابع

فكرت فكتوريا مع نفسها قائلة: ها هي الحياة تنفتح أمامي أخيراً! كانت تجلس في مقعدها في قاعة المطار، وما لبثت أن جاءت تلك اللحظة السحرية التي أُطلق فيها النداء: "يُرجى من المسافرين إلى القاهرة وبغداد وطهران أخذ أماكنهم في الحافلة".

أسماء سحرية، رغم أنها كلمات تفتقد بريقها بالنسبة إلى السيدة كليب؛ فقد استنتجت فكتوريا أن السيدة كليب قد قضت جزءاً كبيراً من حياتها وهي تقفز من السفن إلى الطائرات، ومن الطائرات إلى القطارات، مع استراحات قصيرة بين الرحلة والرحلة كانت تقضيها في أغلى الفنادق. أما بالنسبة لفكتوريا فقد كانت تلك العبارات تغييراً رائعاً عما اعتادت سماعه باستمرار: "سأملي عليك رسالة يا آنسة جونز... هذه الرسالة مليئة بالأخطاء وعليك كتابتها من جديد... الإبريق يغلي أيتها البنات، مَن ستعدّ الشاي؟.. سأدلك على أحسن محل يصفف الشعر...". أحداث يومية تافهة مملة! أما الآن فبغداد والقاهرة وطهران... كل رومانسية الشرق العظيم (وفوق ذلك كله إدوارد)!

عادت فكتوريا من شرودها إلى أرض الواقع لتسمع حديث

مستخدِمتها التي صنفتها فكتوريا ثرثارةً لا تصمت. كانت السيدة كليب تختتم سلسلة ملاحظاتها قائلة: ... وليس هناك شيء نظيف حقاً، إن كنتِ تفهمين قصدي، وأنا دائماً حذرة جداً جداً فيما آكله...

كانت فكتوريا تصغي إلى تلك الملاحظات المُحبِطة من باب الواجب، ولكن شعورها الخاص بألق الشرق ظل متوهجاً، فالقذارة والجراثيم لم تكن لتعني لها شيئاً في عمرها الشاب. وصلتا إلى مطار هيثرو وقامت فكتوريا بمساعدة السيدة كليب على النزول من الحافلة. وكانت قد تولت أصلاً مسائل الجوازات والبطاقات والنقود وغير ذلك. قالت لها السيدة كليب: إنه لمن المريح -بالتأكيد- اصطحابي إياك يا آنسة جونز. لا أدري ما الذي كنت سأفعله لو قُدِّر لي أن أسافر بمفردي.

رأت فكتوريا أن السفر جواً عملية تشبه الذهاب إلى وليمة مدرسية، فهناك يجد المرء الأساتذة (اللطفاء رغم حزمهم) قريبين منه جاهزين للمساعدة في كل أمر، وهنا أيضاً تحوم المضيفات بزيّهن الموحد وهن يتصرفن بسُلطةٍ أشبه بسلطة مربية تتعامل مع طفل قاصر عقلياً، فيشرحن بلطف ودقة ما يتعين على المرء فعله. ولقد أوشكت فكتوريا أن تتوقع منهن استهلال كلامهنّ بعبارة: "والآن يا أطفال...".

وفي المطار جلس شباب يبدو عليهم التعب من موظفي الجوازات خلف مكاتبهم، يتأكدون من الجوازات بسأم، ويسألون بصوت خافت عما يحمله كل مسافر من مال أو حلي. وقد أفلحوا في

بث شعور بالذنب لدى من وُجِّهت لهم تلك الأسئلة. ولقد شعرت فكتوريا -وهي التي تتأثر بالإيحاء بطبيعتها- بشوق مفاجئ إلى وصف ذلك الدبوس الرخيص الذي تملكه بأنه تحفة ألماسية تساوي عشرة آلاف جنيه، وذلك لمجرد رؤية التعبير الذي سيظهر على وجه الشاب الضجِر... ولكن تفكيرها بإدوارد منعها من ذلك.

وبعد اجتياز العديد من الحواجز جلس المسافرون في قاعة كبيرة تطل مباشرة على مدرج المطار، وفي الخارج كان هدير طائرة وهي تزيد تسارع محركاتها يكمل رسم الجو العام للمكان. أما السيدة كليب فقد كانت منشغلة الآن -بسعادة- في إطلاق تعليقات سريعة على بقية المسافرين: ألا يبدو هذان الطفلان هناك في غاية الذكاء؟ ولكن سفر المرء بمفرده مع طفلين محنة لا توصف. أظنهما بريطانيين، ولكن البدلة التي تلبسها أمهما جيدة التفصيل، مع أنها تبدو متعَبة بعض الشيء. ذلك الرجل وسيم، يبدو كالإسبان أو الإيطاليين. ما تلك المربعات ذات اللون الصارخ التي يرتديها ذلك الرجل؟ أحسب ذلك ذوقاً سيئاً جداً. أظنه رجل أعمال! أما ذلك الرجل هناك فهو ألماني؛ كان يقف أمامنا تماماً عند بوابة التفتيش. تلك العائلة هناك إما تركية أو إيرانية كما أظن. لا يبدو أن هناك أي أمريكيين. أحسبهم يسافرون على متن خطوط بان أميريكان على الأغلب. رأيي أن أولئك الرجال الذين يتحدثون هناك من العاملين في شركات النفط، ماذا تقولين؟ إنني أحب النظر إلى الناس والتساؤل عن أمورهم. يقول السيد كليب لي إن لديّ ولعاً بطبائع النفس البشرية. يبدو لي أن من الطبيعي تماماً أن يهتم المرء بإخوته

من بني البشر. ألا تعتقدين أن معطف الفرو ذاك قد كلف أكثر من ثلاثة آلاف دولار؟

وأخيراً تنهدت السيدة كليب بعدما فرغت من تأمل زملائها المسافرين. بدأت تتململ، ثم قالت: بودّي لو أعرف ما الذي ننتظره بجلستنا هذه. لقد هدرت تلك الطائرة أربع مرات لتسخين محركاتها ونحن كلنا هنا. لماذا لا يَمضون قُدماً في أمورهم؟ من المؤكد أنهم لا يلتزمون بموعدهم.

- أترغبين في كوب من القهوة يا سيدة كليب؟ أرى مقصفاً في نهاية القاعة هناك.

- لا، شكراً يا آنسة جونز. لقد تناولت القهوة قبل انطلاقنا، ومعدتي مرتبكة الآن بحيث لا أستطيع تناول شيء. ولكن بودي أن أعرف ما الذي ننتظره؟

جاءت الإجابة على سؤالها هذا قبل أن تفرغ من طرحه؛ فقد انفتح فجأة الباب المؤدي من قسم الجمارك والجوازات إلى القاعة ودخل منه رجل طويل القامة كما تدخل هبة ريح قوية، وهرع موظفو المطار والخطوط الجوية حوله. وكان ثمة موظف يحمل كيسين ضخمين مختومين.

اعتدلت السيدة كليب في جلستها متيقظة وقالت: "إنه رجل ذو أهمية بالتأكيد"، وقالت فكتوريا لنفسها: "وهو يعرف ذلك تماماً".

كان في ذلك المسافر الأخير ما يوحي بشيء من تعمُّد الإثارة الحسية المحسوبة؛ فقد ارتدى ما يشبه رداء سفر رمادياً غامقاً ذا

غطاء ضخم للرأس يتدلى من الخلف، أما رأسه فكان مغطى بقبعة كانت -في الحقيقة- كقبعات المكسيك العريضة، ولكن لونها كان رمادياً فاتحاً. وقد تدلى شعره الفضي الملتف طويلاً بعض الشيء، وكان شاربه الفضي الجميل ينعكف صعوداً عند طرفيه. وهكذا أعطى شكله العام انطباعاً أقرب إلى ممثل يؤدي دور قاطع طريق أَشِر.

نظرت فكتوريا إليه بعدم استحسان، إذ كانت تكره الذين يتخذون سمت الممثلين في تصرفاتهم. وقد لاحظت -باستياء- أن موظفي الطيران كانوا يزدحمون حوله مدمدمين: نعم يا سير روبرت، طبعاً يا سير روبرت، ستقلع الطائرة فوراً يا سير روبرت.

وبلفَّةٍ لردائه السابغ عبَر السير روبرت الباب المفضي إلى أرض المطار وتأرجح الباب بقوة وراءه. تمتمت السيدة كليب قائلة: السير روبرت... من عساه يكون يا ترى؟

هزت فكتوريا رأسها حيرة، رغم أن شعوراً غامضاً قد انتابها بأن الوجه والمظهر العام لم يكونا غريبين عنها. قالت السيدة كليب: ربما كان شخصاً مهماً في حكومتكم.

- لا أظن ذلك.

كان العدد القليل من رجال الحكومة الذين التقتهم فكتوريا قد أعطوها انطباعاً بأنهم رجال يكادون يعتذرون حتى عن كونهم أحياء، ولم يكونوا يتمثلون دور الواعظ المتبجح إلاّ على منصات الخطابة.

قالت المضيفة المتأنقة بروح مربية تخاطب أطفالها: والآن

رجاء، ستأخذون أماكنكم في الطائرة. من هنا رجاء... بأسرع ما يمكنكم رجاء.

كاد موقفها يوحي بأن الأطفال الأشقياء قد أعاقوا كثيراً الكبار الصابرين. ونهض الجميع وخرجوا إلى أرض المطار حيث كانت الطائرة الضخمة في الانتظار ومحركها يهدر كزئير أسد ضخم يعبر عن رضاه.

تعاونت فكتوريا مع مضيفةٍ لإدخال السيدة كليب ووضعها في مقعدها، ثم جلست فكتوريا بجانبها باتجاه الممر الفاصل بين صفَّيْ المقاعد بعدما تأكدت من جلوس السيدة كليب في مقعدها بشكل مريح وربطت حزام مقعدها، وعندها -فقط- أتيح لها الوقت لتلاحظ أن الرجل العظيم يجلس أمامهما.

أُغلقت الأبواب، وبعد بضع ثوان بدأت الطائرة تتحرك ببطء على المَدْرَج. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها بانفعال: إننا ننطلق حقاً. آه! أليس هذا مخيفاً؟ ماذا لو لم تستطع الطائرة الإقلاع عن الأرض؟ إنني لا أفهم حقاً كيف يمكنها أن تقلع!

وخلال فترة بدت دهراً كاملاً دارت الطائرة حول المدرج، ثم استدارت ببطء وتوقفت. تصاعد هدير المحرك بشكل رهيب، وتم توزيع العلك والقطن. ثم تعالى الصوت أقوى فأقوى، وأشد فأشد، ثم تقدمت الطائرة مرة أخرى، بطيئة في البداية، ولكنها أخذت تتسارع خاطفة أرض المطار.

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "إنها لن تقلع أبداً، وسوف نُقتل"!

ولكن الطائرة تسارعت أكثر... ولم تعد ترتج أو تهتز، فقد أقلعت عن الأرض مرتفعة، ثم ارتفعت أكثر ليبدو تحتها قطار صغير تافه ينفث دخانه وبيوت كبيوت الدمى ودمى سيارات على الشوارع، ثم ارتفعت أكثر... وفجأة فقدت الأرض في الأسفل ما كانت تلقاه من اهتمام، فلم تعد فيها مظاهر الحياة والإنسانية، بل غدت مجرد خريطة ضخمة منبسطة عليها خطوط ودوائر ونقاط.

في داخل الطائرة حل المسافرون أحزمة الأمان، وأشعلوا لفافات التبغ، وفتحوا المجلات. أما فكتوريا فقد كانت في عالم جديد... عالم طوله العديد من الأقدام وعرضه بضعة أقدام قليلة، يسكنه نحو من عشرين إلى ثلاثين شخصاً. وفيما عدا ذلك، لم يكن أي شيء موجوداً بالنسبة لها.

أطلّت -ثانيةً- من النافذة الصغيرة فوجدت تحتها سحاباً، طبقات من الغيوم كأنها زغب القطن. هناك في مكان ما -تحت الغيوم- كان يرقد العالم الذي عرفته فكتوريا حتى الآن. اعتدلت وتمالكت نفسها. كانت السيدة كليب تتكلم، ونزعت فكتوريا القطن من أذنيها والتفتت إليها بانتباه.

في المقعد أمامها نهض السير رويرت ونزع قبعته ذات الحواف العريضة فوضعها على الرف فوق رأسه، ثم غطى رأسه بالغطاء الملحق بأعلى ردائه واسترخى في مقعده. قالت فكتوريا لنفسها بتحيز لا مبرر له: يا له من حمار متبجح!

كانت السيدة كليب مستقرة في مقعدها وأمامها مجلة مفتوحة، وكانت تنبّه فكتوريا -بين الحين والآخر- بحركة خفيفة من مرفقها،

وعندما حاولت قلب الصفحة بيدها السليمة انزلقت المجلة ووقعت على الأرض.

نظرت فكتوريا حولها، ثم رأت أن السفر جواً مسألة مملة حقاً. فتحت مجلة، فوجدت أمامها مباشرة دعاية تقول: «هل تريدين زيادة كفاءتك كطابعة اختزال؟» فارتعدت وأغلقت المجلة، ثم أسندت ظهرها إلى مسند مقعدها وبدأت تفكر بإدوارد.

هبطت الطائرة بمسافريها في مطار كاستيل بينيتو في طرابلس الغرب أثناء عاصفة من الأمطار. وكانت فكتوريا قد غدت الآن مريضة بعض الشيء، ولذلك فقد احتاجت لاستجماع كل طاقتها للقيام بواجبها تجاه مستخدِمتها. وقد جيء بسيارة قادتهم وسط المطر المنهمر إلى الاستراحة. أما السير رويرت العظيم فقد لاحظت فكتوريا أن ضابطاً يرتدي بدلة رسمية وأشرطة حمراء قد كان في استقباله، وأنه أُخذ على عجل بسيارة عسكرية إلى بيت أحد المقتدرين في المدينة.

خُصِّصت لهم غرف، وساعدت فكتوريا السيدة كليب في الاغتسال وتبديل الثياب، ثم تركتها لترتاح (في ثياب النوم) حتى يحين وقت الوجبة المسائية وعادت إلى غرفتها فتمددت وأغمضت عينيها وهي تشعر بالامتنان؛ إذ وفرت عليها الظروف عناء السفر بحراً والتأرجح في سفينة طوال الطريق.

استيقظت بعد نحو ساعة من ذلك وقد تحسن حالها ونشطت معنوياتها، وذهبت لمساعدة السيدة كليب. وسرعان ما جاءت مضيفة أكثر تسلطاً لتقول إن السيارات في انتظارهم لتقلهم إلى حيث وجبة

العشاء. وبعد العشاء انخرطت السيدة كليب في حديث مع بعض رفاق السفر، ويبدو أن الرجل الذي يرتدي معطفاً ذا مربعات صارخة اللون قد أعجب بفكتوريا، وقد أخبرها -بشكل مطول- بكل تفصيلات صناعة أقلام الرصاص.

بعد ذلك أُعيد المسافرون إلى دار الاستراحة وقيل لهم إن عليهم أن يكونوا جاهزين للمغادرة في الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي. قالت فكتوريا بشيء من الحزن: ولكننا لم نرَ الكثير من طرابلس، أليس كذلك؟ أهكذا يكون السفر بالطائرة دائماً؟

أجابتها السيدة كليب: نعم، هو كذلك كما أظن. إن طريقة إيقاظهم للمرء في أول الصباح طريقة سادية تماماً. وبعد ذلك غالباً ما يتركونك تتسكعين في المطار لساعة أو ساعتين! بل إنني أذكر أنهم أيقظونا مرة في روما عند الساعة الثالثة والنصف فجراً، وتناولنا الإفطار في المطعم في الساعة الرابعة، ولما ذهبنا إلى المطار لم نغادر عملياً إلاّ في الساعة الثامنة. ومع ذلك كله، فالجيد في سفر الجو هو أنهم يوصلونك إلى وجهتك مباشرة دون لفٍّ ودوران في مختلف الأصقاع.

تنهدت فكتوريا، فقد كان يسعدها الكثير من اللف والدوران؛ فهي تريد رؤية العالم. ومضت السيدة كليب تقول بانفعال: أتدرين يا عزيزتي؟ تعرفين ذلك الرجل ذا المظهر المثير، الرجل البريطاني؟ ذلك الذي يدور اللغط كله حوله. لقد اكتشفتُ مَن يكون. إنه السير روبرت كروفتن لي، الرحالة المعروف. لا شك أنك سمعتِ به.

نعم، تذكرتْ فكتوريا الآن إذ كانت قد رأت العديد من الصور

في الصحف قبل نحو ستة أشهر. كان السير روبرت عالماً حُجَّةً في ما يخص جغرافية الصين الداخلية. كان واحداً من القلائل الذين زاروا التبت ورأوا لاسا، وكان قد جال في المناطق المجهولة من كردستان وآسيا الصغرى. وقد حققت كتبه مبيعات عالية لأنها كُتبت بأسلوب رشيق ذكي. ولئن كان في سلوك السير روبرت ما يوحي بالدعاية للذات فقد كان له سبب وجيه يبرر له ذلك. وتذكرت فكتوريا الآن أن رداءه الطويل ذا غطاء الرأس الذي يتدلى خلفه وقبعته العريضة كانا طرازاً خاصاً ومقصوداً اختاره لنفسه.

تساءلت السيدة كليب -بكل حماسة صائدي الأسود- بينما كانت فكتوريا تعدِّل أغطية السرير حول جسدها المتمدد: أليس هذا مثيراً؟

وافقتها فكتوريا على أن ذلك كان مثيراً جداً، ولكنها قالت لنفسها إنها تفضل كتب السير روبرت على شخصيته؛ فقد رأت فيه ما يسميه العامة «منفاخاً»!

كانت البداية مرتبة في صباح اليوم التالي. كان الجو قد صفا والشمس قد أشرقت، وقد ظلت فكتوريا تشعر بشيء من خيبة الأمل لأنها لم ترَ إلاّ القليل من طرابلس. ومع ذلك فقد كان مخططاً أن تصل الطائرة إلى القاهرة وقت الغداء، فيما لن تكون المغادرة إلى بغداد إلاّ في صباح اليوم التالي، ولذلك سيكون بمقدورها على الأقل أن ترى شيئاً من مصر في فترة ما بعد الظهر.

كانت الطائرة تطير فوق البحر، ولكن سرعان ما غطت الغيوم منظر البحر الأزرق فتمددت فكتوريا في مقعدها وهي تتثاءب،

وأمامها كان السير روبرت قد غطّ في النوم. كانت القلنسوة قد سقطت عن رأسه الذي انحنى للأمام مهتزاً بين الحين والآخر، ولاحظت فكتوريا -بشيء من المتعة الحاقدة- أن له بشرة متورمة تبدأ عند مؤخرة عنقه. أما سبب استمتاعها بتلك الحقيقة فقد كان عصياً على التفسير... ربما لأن ذلك جعل الرجل العظيم يبدو أكثر إنسانية وضعفاً، فها هو لا يختلف عن غيره من الناس... عرضة لإزعاجات الجسد الصغيرة. ويمكن القول إن السير روبرت قد حافظ على سلوكه المتعالي ولم يأبه قيد شعرة برفاق سفره. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: مَن تراه يظن نفسه؟

ولكن الجواب كان واضحاً، فقد كان السير روبرت كروفتن لي، رجلاً شهيراً... وكانت هي فكتوريا جونز، طابعة اختزال لا يؤبه لها وليست لها أية قيمة.

عند الوصول إلى القاهرة تناولت فكتوريا والسيدة كليب الغداء معاً، ثم أعلنت الأخيرة أنها ستأخذ قيلولة حتى الساعة السادسة، وأشارت إلى أن فكتوريا ربما أعجبها أن تذهب لرؤية الأهرامات. ثم قالت: لقد رتبت لك أمر سيارة تكون معك -يا آنسة جونز- لأنني أعرف أنك لا تستطيعين صرف أية أموال هنا بسبب تعليمات وزارة المالية البريطانية.

أحست فكتوريا (التي لم يكن معها أصلاً مال لتنفقه) بالامتنان، وعبّرت عن امتنانها بشيء من الخجل، فقالت السيدة كليب: ليس هذا بشيء أبداً. لقد كنتِ لطيفة جداً جداً معي، وإن سفرنا بالدولار يجعل كل شيء سهلاً بالنسبة لنا. إن السيدة كتشن، صاحبة الصبيين

الذكيين، متلهفة تماماً على الذهاب للأهرامات أيضاً، ولذلك اقترحت عليها أن تذهبا معاً... إن كان ذلك يناسبك؟

كل شيء يناسب فكتوريا طالما أنها سترى العالم. وهكذا قالت السيدة كليب: حسناً إذن، من الأفضل أن تغادرا الآن مباشرة.

كانت فترة العصر عند الأهرامات ممتعة تماماً. ورغم أن فكتوريا كانت تحب الأطفال عموماً، إلاّ أنها كانت ستستمتع بهذه الرحلة أكثر لو لم يكن طفلا السيدة كيتشن موجودَيْن؛ فالأطفال يصبحون مصدر إعاقة في أية نزهة يكون الهدف منها رؤية المناظر أو الآثار، وقد غضب الطفل الأصغر كثيراً لأن المرأتين عادتا إلى الفندق في وقت أبكر مما كانتا تعتزمانه.

رمت فكتوريا نفسها على السرير متثائبة. تمنت كثيراً لو أنها استطاعت المكوث في القاهرة لمدة أسبوع... وربما السفر إلى أعالي النيل. ولكنها سألت نفسها بازدراء قائلة: "وماذا ستصنعين لتغطية نفقاتك يا فتاتي؟". ألا يكفي أن معجزة قد تدخلت لتأمين سفرها إلى بغداد دون مقابل؟ سألها صوت داخلي واقعي: "وماذا ستفعلين عند نزولك في بغداد وليس في جيبك إلاّ بضعة جنيهات؟". ولكن فكتوريا نحّتْ هذا السؤال جانباً؛ إذ ينبغي لإدوارد أن يجد لها عملاً. وإذا لم يستطع فإنها ستجد هي عملاً لنفسها. فلماذا القلق؟

أغلقت عينيها بهدوء بعد أن بهرهما ضوء الشمس الساطع. ثم نهضت على صوت قرع تخيلته على باب غرفتها. صاحت: "ادخل"، ولما لم تجد جواباً نهضت عن السرير وقطعت الغرفة إلى الباب وفتحته. ولكن الطرقة لم تكن على بابها، بل على الباب الذي يليه

في الممر. كانت واحدةٌ أخرى من أولئك المضيفات اللائي لا مهرب منهن، ذات شعر أسود وزي مرتب، تقرع باب غرفة السير رويرت. وقد فتح الباب في الوقت الذي أطلّت فيه فكتوريا من بابها وقال بصوت منزعج ناعس: ما الأمر؟

تمتمت المضيفة بصوت ناعم: إنني آسفة جداً على إزعاجك يا سير رويرت، ولكن هل لك أن تأتي إلى مكتب شركة الطيران؟ إنه على بعد ثلاثة أبواب من هذا الممر. الأمر مجرد قضية صغيرة تخص رحلتنا غداً إلى بغداد.

- آه، حسناً.

انسحبت فكتوريا إلى غرفتها، وقد أصبحت أقل نعاساً الآن. نظرت إلى ساعتها فوجدتها لم تتجاوز الرابعة والنصف بعد؛ أي أن أمامها ساعة ونصفاً قبل أن تحتاجها السيدة كليب. قررت الخروج والمشي في القاهرة، فالمشي لا يحتاج نقوداً على الأقل.

أصلحت من هيئتها وارتدت حذاءها الذي شعرت أنه ضاق على قدميها (فقد سببت الرحلة إلى الأهرامات ورماً فيهما)، ثم خرجت من الغرفة ومشت في الممر باتجاه القاعة الكبيرة للفندق. وبعد ثلاثة أبواب عبرت مكتب خطوط الطيران الذي عُلِّقت على بابه لوحة تؤكد ذلك، وفيما هي تعبر أمامه انفتح الباب وخرج منه السير روبرت مسرعاً بحيث تجاوزها في خطوتين ومضى أمامها ورداؤه يطير خلفه، وخُيِّل لفكتوريا أنه منزعج من شيء ما.

كانت السيدة كليب في مزاج معكر بعض الشيء عندما جاءتها

فكتوريا في الساعة السادسة. قالت: إنني قلقة بشأن الزيادة في وزن أمتعتي يا آنسة جونز. لقد كنت أظن أنني دفعت أجور الأمتعة لكامل الرحلة، ولكن يبدو أن ما دفعته كان أجور شحن الأمتعة إلى القاهرة فحسب. سنسافر غداً على متن الخطوط الجوية العراقية. إن بطاقتي تغطي كامل الرحلة، ولكنها لا تغطي الزيادة في وزن الأمتعة. هل لك أن تذهبي لتري إن كان الأمر حقاً كذلك؟ لأنني قد أضطر إلى صرف شيكٍ سياحي آخر.

وافقت فكتوريا على الاستفسار عن ذلك. ولم تستطع -في البداية- العثور على مكتب الخطوط الآخر، ثم وجدته أخيراً في الممر الآخر البعيد، في الجانب الآخر من القاعة، وكان مكتباً ضخماً. وقد افترضت أن المكتب الآخر كان صغيراً ولا يُستخدَم إلاّ خلال استراحة ما بعد الظهر. وقد تبين أن مخاوف السيدة كليب بشأن الزيادة في وزن الأمتعة كانت في مكانها، وهو ما أزعج السيدة كليب كثيراً.

* * *

الفصل الثامن

في الطابق الخامس من مجمعٍ للمكاتب في مدينة لندن تقع مكاتب شركة فالهالا للغراموفون. كان الرجل الجالس خلف المكتب هناك يقرأ كتاباً في الاقتصاد، ورنّ جرس الهاتف فرفع السماعة وقال بصوت هادئ يخلو من العاطفة: شركة فالهالا للغراموفون.

- هل ساندرز هنا؟

- ساندرز صاحب النهر؟ أي نهر؟

- نهر دجلة. بخصوص أ. ش. لقد فقدنا أثرها.

سادت لحظة صمت، ثم تكلم الصوت الهادئ من جديد، ولكن بنبرة فولاذية قاسية: أتراني سمعتُ ما قلتَه بشكل صحيح؟

- لقد فقدنا أثر آنا شيل.

- لا تستخدم أسماء. هذه غلطة خطيرة جداً منك... كيف حدث ذلك؟

- لقد دخلَتْ إلى تلك المصحة. أخبرتك بذلك من قبل، فقد كانت أختها تخضع لعملية.

- نعم، وبعد ذلك؟

- مضت العملية بشكل جيد. وقد توقعنا عودة أ. ش. إلى فندق سافوي من جديد، إذ كانت قد أبقت على حجز جناحها... ولكنها لم تعد! وقد أبقينا رقابة على المصحة وكنا متأكدين تماماً أنها لم تغادرها. افترضنا أنها ما تزال هناك.

- وهي ليست هناك؟

- لقد اكتشفنا -لتونا- أنها قد غادرت المصحة، في سيارة إسعاف، وذلك في اليوم الذي أعقب العملية.

- لقد خدعتكم عامدة، أليس كذلك؟

- يبدو الأمر كذلك. ولكنني مستعد لأن أقسم بأنها لم تعرف أن أحداً يتعقبها؛ فقد أخذنا كل الاحتياطات، وكان يتبعها ثلاثة منا و...

- دع عنك المبررات. أين أخذتْها سيارة الإسعاف؟

- إلى مستشفى الجامعة.

- وماذا قالوا لك في المستشفى؟

- قالوا إن مريضة قد أُدخلت برفقة ممرضة. لا شك أن

الممرضة كانت آنا شيل. ولا يدرون أين ذهبت الممرضة بعد أن أدخلت المريضة.

- وماذا عن المريضة؟

- المريضة لا تعرف شيئاً؛ فقد كانت تحت التخدير.

- إذن فقد خرجت آنا شيل من مستشفى الجامعة بزي ممرضة، وربما كانت الآن في أي مكان؟

- نعم، ولكن إن عادت إلى فندق سافوي...

قاطعه الآخر قائلاً: إنها لن تعود إلى السافوي.

- هل نبحث في الفنادق الأخرى؟

- نعم، ولكنني أشك في إمكانية وصولكم إلى أية نتائج؛ فهذا ما سنتوقع منكم فعله.

- هل من تعليمات أخرى في هذه الحالة؟

- فتّشوا في الموانئ... في دوفر، وفوكستون وغيرهما. فتشوا في الخطوط الجوية، وخصوصاً دققوا في كل الحجوزات إلى بغداد في الأسبوعين القادمين. إن البطاقة لن تُحجَز باسمها نفسه، ولذلك دققوا في جميع المسافرين ممن تتقارب أعمارهم مع عمرها.

- ولكن أمتعتها ما تزال في الفندق. ربما عادت لأخذها.

- لن تقوم بأي تصرف من هذا القبيل. ربما كنت أنت مغفلاً، ولكنها ليست بالمغفلة. هل تعرف أختُها شيئاً؟

- إننا على اتصال بممرضتها الخاصة في المصحة. يبدو أنها ترى أن أ. ش. في باريس تعقد صفقات لمصلحة مورغانثال، وهي تقيم في فندق ريتز. وهي ترى أن أ. ش. ستعود إلى الوطن في الثالث والعشرين من الشهر.

- أي أن أ. ش. لم تخبرها شيئاً. نعم، ما كانت لتخبر أحداً. دققوا لنا في أمر حجوزات الطيران تلك. إنها أملنا الوحيد. إنها مضطرة للذهاب إلى بغداد... والسفر جواً هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن توصلها في زمن قصير. ثم... اسمع يا ساندرز.

- نعم؟

- لا أريد حالات فشل أخرى. هذه فرصتك الأخيرة.

* * *

الفصل التاسع

نقل السيد شريفنهام، الشاب العامل في السفارة البريطانية، ثقله من إحدى قدميه إلى الأخرى ونظر إلى الأعلى فيما كانت الطائرة تميل متجهة نحو مطار بغداد. كانت زوبعة رملية كبيرة تتقدم مغلّفة البيوت والناس وأشجار النخيل بغلالة بنية كثيفة، وقد جاءت تلك العاصفة فجأة دون مقدمات. قال بأسى عميق: الأرجح أن لا يستطيعوا الهبوط هنا.

سأله صديقه هارولد: ماذا سيفعلون إذن؟

– أظنهم سيمضون في الطيران إلى البصرة. سمعت أن الجو صافٍ هناك.

– أنت في استقبال شخصية كبيرة، أليس كذلك؟

دمدم الشاب شريفنهام مرة أخرى بتذمر قائلاً: إنه سوء طالعي؛ فالسفير الجديد تأخر في الالتحاق بعمله، والمستشار لانزداون في إنكلترا، ورايس (المستشار للشؤون الشرقية) مريض في فراشه؛ مصاب بأنفلونزا معدية وحرارة مرتفعة إلى حدٍّ خطير. وبيست في طهران، وها أنا ذا بمفردي أتحمل كل شيء. لا أدري سبباً لكل

هذا الانفعال والضجة بشأن هذا الرجل. حتى العاملون في المجال الأمني منفعلون بشأنه. إنه واحد من أولئك الجوالة حول العالم، تراه دوماً في أماكن نائية على جَمَله. لا أدري لماذا يكون بمثل هذه الأهمية، ولكن يبدو واضحاً أنه شديد التميز في اختصاصه، ومطلوب مني أن ألبّي أدنى رغبة له. ربما غضب كثيراً إذا ما واصلت الطائرة طريقها وأخذته إلى البصرة. لا أدري ما هي الترتيبات التي يحسن بي إجراؤها. أأذهب إليه بالقطار الليلة؟ أم أجعل القوة الجوية الملكية تحضره غداً؟

تنهد السيد شريفنهام مرة أخرى مع تعمق إحساسه بالغبن والمسؤولية، فمنذ وصوله إلى بغداد قبل ثلاثة أشهر ظل حظه سيئاً باستمرار، وقد شعر بأن من شأن تأنيب آخر يتلقاه من رؤسائه أن يفسد حياةً مهنية كان يمكن لها أن تكون واعدة جيدة.

انحدرت الطائرة فوقهما مرة أخرى. وقال شريفنهام: "من الواضح أن الطيار يرى صعوبة في الهبوط". ثم أضاف بانفعال: آه، أظنه يهبط.

بعد ذلك بلحظات كانت الطائرة قد حطت بهدوء في مكانها، ووقف شريفنهام جاهزاً لتحية ضيفه الكبير. لاحظتْ عينه غير الخبيرة «فتاة جميلة بعض الشيء» قبل أن يقفز إلى الأمام لتحية الرجل الذي يشبه القرصان بردائه المتطاير. وفكر قائلاً لنفسه باشمئزاز: "إنه زي غريب للتفاخر" فيما كان يقول لضيفه في نفس الوقت: السير رويرت كروفتن لي؟ أنا شريفنهام، من السفارة.

رأى أن السير رويرت كان مقتضباً بعض الشيء في كلامه بشكل

يكاد يوحي بالوقاحة، ولكن ربما كان ذلك مفهوماً بعد ما تعرض له من عناء الدوران حول المدينة دون التأكد من إمكانية الهبوط. قال شريفنهام: يوم سيء. لقد شهدنا الكثير من هذه الأحوال الجوية هذا العام. آه، لقد جاءت حقائبك. هل لك أن تتبعني يا سيدي؟ الترتيبات كلها مهيئة.

قال شريفنهام وهما يغادران المطار بالسيارة: ظننت -للحظات- أنكم ستضطرون للذهاب إلى مطار آخر يا سيدي. لم يبدُ أن الطيار قادر على الهبوط. لقد ظهرت هذه العاصفة الرملية فجأة.

نفخ السير روبرت أوداجه تعبيراً عن أهميته وقال: كان من شأن ذلك أن يكون مأساوياً... مأساوياً تماماً. إنني أؤكد لك أيها الشاب أن برنامجي -لو أُفسد- لكانت له نتائج بالغة الأهمية وبعيدة المدى إلى أقصى الحدود.

خاطب شريفنهام نفسه بازدراء: "يا له من طاووس متبجح! إن أصحاب المنزلة الرفيعة هؤلاء يظنون أن مسائلهم التافهة هي التي تجعل العالم يدور". أما بصوته العالي فقد قال باحترام: أحسب ذلك صحيحاً يا سيدي.

- هل تعلم متى سيصل السفير إلى بغداد؟

- لا يوجد شيء مؤكد -بعدُ- يا سيدي.

- سأشعر بالأسف إن فاتتني رؤيته. لم أره منذ... منذ رؤيتي له في الهند عام ١٩٣٨.

حافظ شريفنهام على مظهر الاحترام الصامت، وسأله السير روبرت: أظن أن رايس هنا، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، إنه المستشار للشؤون الشرقية.

- إنه رجل قدير ويعرف الكثير من الأمور. سيسعدني أن أراه ثانية.

تنحنح شريفنهام وقال: الحقيقة -يا سيدي- أن رايس مريض وقد أخذوه إلى المستشفى لمراقبة حالته. أصابته حالة من التهاب المعدة والأمعاء... حالة أسوأ قليلاً -كما يبدو- من أمراض المعدة التي تحدث في بغداد عادة.

التفت السير روبرت بحدة وقال: ما هذا المرض؟ التهاب معدي معوي سيء... هممم. جاءه فجأة، أليس كذلك؟

- أول أمس يا سيدي.

قطب السير روبرت جبينه. سقطت عنه مظاهر الأبهة المصطنعة وغدا رجلاً أكثر بساطة... غدا رجلاً قلقاً بعض الشيء. قال: إني لأتساءل... نعم، إنني غير مرتاح لذلك.

نظر إليه شريفنهام متسائلاً بأدب، فقال السير روبرت: إنني أتساءل إن كان يُحتمل أن تكون هذه حالة من حالات شيل غرين؟

بقي السيد شريفنهام ساكتاً وقد أصابته الحيرة. واقتربت السيارة من جسر فيصل، ثم انعطفت إلى اليسار باتجاه السفارة البريطانية. وفجأة انحنى السير روبرت إلى الأمام وقال بحدة: هل لك أن تقف

لحظة؟ نعم، على الجانب الأيمن، حيث تلك الأواني هناك.

تهادت السيارة باتجاه الرصيف الأيمن وتوقفت. وكان هناك محل للأواني الفخارية تكومت فيه مختلف أنواع الخوابي والأباريق. وكان ثمة رجل أوروبي قصير القامة قوي البنية يتحدث مع صاحب الدكان، وما لبث أن تحرك باتجاه الجسر عند اقتراب السيارة. وقد ظن شريفنهام أن الرجل هو كروسبي الذي سبق له أن التقاه مرة أو مرتين.

قفز السير روبرت من السيارة ومشى إلى محل الفخاريات، ثم أخذ إحدى الجرار وشرع في حديث باللغة العربية مع صاحب المحل. وكانت سرعة الحديث أكبر من أن يستطيع شريفنهام فهمه بعربيته التي كانت -حتى الآن- بطيئة قليلة المفردات ويكلفه الحديث بها عنتاً عظيماً.

كان صاحب المحل يبتسم ماداً ذراعيه وهو يؤشر ويشرح بإسهاب. وأمسك السير روبرت بعدة أوانٍ فخارية، وبدا أنه يطرح أسئلة عنها. وأخيراً اختار إبريق ماءٍ ذا فم ضيِّق، وأعطى الرجل بعض النقود المعدنية وعاد إلى السيارة قائلاً: أسلوب تشكيلي مميز. إنهم يصنعون هذه الفخاريات منذ آلاف السنين، لها نفس الشكل الذي رأيته لآنية في إحدى هضاب أرمينيا.

أدخل إصبعه في فوهة الإبريق الضيقة وأخذ يتحسس الفتحة من الداخل. وقال شريفنهام دون تأثر: صناعة بدائية تماماً.

- آه، ليست لها قيمة فنية! ولكنها مهمة من الناحية التاريخية.

أترى مكان أذني الإبريق هنا؟ إن بوسعك التقاط الكثير من المعلومات والحقائق التاريخية من ملاحظة الأشياء البسيطة في الحياة اليومية. إن لدي مجموعة من هذه الفخاريات.

انعطفت السيارة ودخلت بوابة السفارة البريطانية. وطلب السير روبرت أن يتم أخذه إلى غرفته مباشرة، وقد استمتع شريفنهام بملاحظة أن السير روبرت -وقد انتهت محاضرته عن آنية الفخار- قد تركها في السيارة دون اهتمام. وقد تعمد شريفنهام أن يحملها إلى الطابق العلوي ويضعها -بكل حرص- على الطاولة قرب سرير السير روبرت قائلاً: إبريقك يا سيدي.

- ماذا؟ آه، شكراً يا بني.

بدا السير روبرت شارداً، وقد غادره شريفنهام بعد أن كرر على مسامعه أن الغداء سيكون جاهزاً بعد قليل. وعندما غادر الشاب الغرفة ذهب السير هنري إلى النافذة وفتح الورقة الصغيرة التي كانت معلقة في عنق إبريق الفخار. مددها حتى استوت، وكان فيها سطران من الكتابة. قرأهما بتمعن أكثر من مرة، ثم أحرق الورقة بعود ثقاب. وبعد ذلك استدعى خادماً.

- نعم يا سيدي؟ هل أُخرج أمتعتك من الحقائب؟

- لا؛ ليس الآن. أريد رؤية السيد شريفنهام... هنا.

جاء شريفنهام وشيء من ملامح الخشية تلوح عليه، وقال: هل من خدمة أستطيع تقديمها يا سيدي؟ هل يوجد خطأ؟

- سيد شريفنهام، لقد حدث تغير كبير على خططي. إنني أستطيع طبعاً الاعتماد على كتمانك، أليس كذلك؟

- آه، بكل تأكيد يا سيدي.

- لقد مر وقت طويل منذ أن جئتُ إلى بغداد آخر مرة، بل إنني لم آت إلى هنا منذ الحرب عملياً. أظن أن الفنادق موجودة غالباً على الجانب الآخر من النهر، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي؛ في شارع الرشيد.

- وظهرها إلى نهر دجلة؟

- نعم. وفندق قصر بابل هو أكبرها، وهو الفندق الرسمي تقريباً.

- ماذا تعرف عن فندق يدعى فندق تيو؟

- آه، كثير من الناس يذهبون إلى هناك؛ فطعامه جيد، ويديره رجل ذو شخصية رائعة يدعى ماركوس تيو. إنه رجل مشهور تماماً في بغداد.

- أريد منك أن تحجز لي غرفة هناك يا سيد شريفنهام.

قال شريفنهام بخشية مرتبكة: أتعني... أنك لن تقيم في مقر السفارة؟ ولكن الأمور كلها معدة على هذا الأساس يا سيدي.

صاح السير رويرت: ما أُعِدَّ يمكن إلغاؤه.

- آه، طبعاً يا سيدي. إنني لم أقصد...

توقف شريفنهام. كان ينتابه شعور بأن أحداً ما سيلومه في المستقبل. ولكن السير رويرت مضى قائلاً: لديّ بعض المفاوضات الحساسة بعض الشيء، وقد فهمت أنها لا يمكن أن تتم انطلاقاً من السفارة. أريد منك أن تحجز لي غرفة الليلة في فندق تيو، وأرغب في مغادرة السفارة بشكل لا يلفت الأنظار. أي أنني لا أريد الذهاب إلى الفندق بسيارة تابعة للسفارة، كما أنني أريد حجز مقعد على الطائرة المغادرة إلى القاهرة بعد غد.

بدا شريفنهام أكثر خشية وأسىً وقال: ولكنني فهمت أنك ستبقى خمسة أيام...

- لم يعد الأمر كذلك. من الأهمية البالغة أن أصل القاهرة حالما ينتهي عملي هنا. لن يكون بقائي أكثر من ذلك مسألة آمنة.

- آمنة؟!

ابتسم السير رويرت ابتسامة مفاجئة غيرت ملامح وجهه وأزاحت عنه تلك السمة التي كان شريفنهام يشبِّهُها بسمة ضابط تدريب بروسي. فجأة أصبح سحر الرجل ظاهراً وقال: أتفق معك على أن الأمان لم يكن من مشاغلي عادة، ولكن -في هذه القضية بالذات- ليست سلامتي الشخصية فقط هي ما ينبغي عليّ التفكير فيه... فسلامتي هنا تعني سلامة الكثير من الناس أيضاً. ولذلك قم بإجراء تلك الترتيبات لي. وإذا ما تعذر الحجز على متن الطائرة فتقدم بطلب أولوية. سأبقى في غرفتي إلى أن يحين موعد مغادرتي الليلة.

وعندما فتح شريفنهام فاه ليتكلم أضاف السير رويرت: رسمياً

قل إنني مريض. عدوى ملاريا، بحيث لن أحتاج إلى طعام.

- ولكننا نستطيع أن نرسل لك...

قاطعه السير هنري قائلاً: إن صيام أربع وعشرين ساعة عن الطعام لا يعني شيئاً بالنسبة لي. لقد جعتُ لفترات أطول من ذلك في بعض رحلاتي. اصنع فقط ما أقوله لك.

في الطابق السفلي جاء زملاء شريفنهام يحيونه ويتساءلون، ودمدم هو مجيباً على تساؤلاتهم: إنها قصة دسائس وتجسس على مستوى كبير. لا أستطيع أن أفهم تماماً تبجح السير روبرت كروفتن لي. هل سلوكه هذا أصيل أم مجرد تصنع وتمثيل. الرداء المتطاير وقبعة الأشقياء... إلى آخر تلك المظاهر. لقد أخبرني بعض من قرؤوا كتبه بأنه -رغم مبالغته في الدعاية لنفسه- قد قام فعلاً بكل تلك الأمور وذهب إلى كل تلك الأصقاع. ولكني لا أدري... ليت توماس رايس قد شفي من مرضه ليتعامل مع هذا الأمر. وبالمناسبة، لقد ذكّرتموني، هل سمعتم بشيء يدعى شيل غرين؟

قال صديقه متجهماً: إنه مادة كيماوية... مما تستخدمه الزوجات لقتل أزواجهن، أو العكس.

انكفأ شريفنهام إلى حالة من الصمت المذعور؛ فقد بدأت تتضح له بعض الحقائق الكريهة. لقد أشار كروفتن لي إلى أن توماس رايس، مستشار السفارة للشؤون الشرقية، ربما لم يكن يعاني من التهاب المعدة والأمعاء، بل من تسمم بالزرنيخ. ويضاف إلى ذلك أن السير روبرت أشار إلى أن حياته هو في خطر، وقد أدى قراره بعدم تناول أطعمة وأشربة مُحضَّرة في مطبخ السفارة البريطانية إلى

هزَّ روح النزاهة البريطانية عند شريفنهام من الأعماق. لم يستطع تخيل معنى لهذا الأمر كله.

* * *

الفصل العاشر

لم يكن انطباع فكتوريا الأول عن بغداد إيجابياً وهي تتنفس تراباً أصفر خانقاً. ومن المطار وحتى فندق تيو كانت أذناها عرضة لضجيج مستمر متصاعد: أبواق السيارات تزعق بإصرار مجنون، وأصوات تصيح، وصفارات تصفر، وفوق ذلك أبواق الدراجات النارية التي تصم الآذان. وفوق ضجيج الشارع كله كان يأتيها صوت السيدة كليب الرفيع المستمر وهو يتكلم. وهكذا وصلت فكتوريا إلى فندق تيو في حالة ذهول ووجوم.

كان هناك زقاق صغير يتفرع من شارع الرشيد باتجاه دجلة، وبعد ذلك عدة درجات تؤدي إلى مدخل الفندق. وعند ذلك المدخل وقف لتحيتهما شاب شديد السمنة ذو ابتسامة عريضة كاد (مجازياً على الأقل) أن يأخذهما بالأحضان. وقدّرت فكتوريا أن هذا هو ماركوس... أو بالأحرى تيو، صاحب الفندق.

اختلطت كلمات ترحيبه بالأوامر التي كان يطلقها بصوت عالٍ للحمالين الذين كانوا ينقلون الأمتعة: ها أنتِ قد شرفتِنا مرة أخرى يا سيدة كليب... ولكن ما بال ذراعك... لماذا تضعينها في

هذه اللفافة الغريبة؟... (أيها الحمقى، لا تحملوا الحقائب بهذا الشكل! أغبياء! لا تجرجر ذلك المعطف!)... ولكن يا عزيزتي، كيف وصلتم في مثل هذا اليوم؟ لقد ظننت أن الطائرة لن تهبط أبداً؛ فقد ظلت تدور وتدور، وقلت لنفسي: "إياك والسفر جواً يا ماركوس"... لماذا كل هذه العجلة؟ وها قد أحضرتِ شابة معك... من الرائع دوماً رؤية شابة جديدة في بغداد... لماذا لم يأتِ السيد هاريسون لاستقبالك؟ لقد توقعت مجيئه أمس... ولكن هيا، ينبغي أن تشربا شيئاً على الفور.

والآن ها هي فكتوريا تقف وهي تحس بشيء من الدوار في غرفةٍ جدرانُها مبيضة بماء الكلس فيها سرير نحاسي ضخم، وطاولة زينة فرنسية حديثة الطراز، وخزانة ملابس قديمة فكتورية الطراز، وكرسيان منجدان بقماش ذي ألوان بهيجة. وها هي أمتعتها المتواضعة تستقر عند قدميها، وعجوز هرم جداً ذو وجه أصفر وشعر أبيض على وجنتيه يحييها ويومئ لها وهو يضع مناشف جديدة في الحمّام ويسألها إن كانت تريد أن يسخّن لها الماء للاستحمام.

وحين انسحب الشيخ بابتسامة أبوية جلست فكتوريا على السرير ومررت كفها على شعرها، فوجدته ملبداً بالغبار، فيما تمعر وجهها واغبرّ لونه. نظرت إلى نفسها في المرآة فرأت أن التراب قد غيّر لون شعرها من الأسود إلى لون بني محمرٌ غريب. وفتحت الستارة قليلاً ونظرت إلى الشرفة الواسعة التي تطل على نهر دجلة، ولكن لم يكن هناك ما يمكن رؤيته من النهر سوى غمامة صفراء كثيفة. قالت فكتوريا لنفسها وقد داهمتها كآبة عميقة: يا له من مكان كريه!

نهضت وعبرت استراحة الدرج ثم طرقت باب السيدة كليب. سيتطلب منها الأمر هنا تقديم خدمات عديدة مطولة للسيدة كليب قبل أن تتفرغ هي لتنظيف نفسها واستعادة مظهرها.

وبعد أن اغتسلت وتناولت غداءها وأخذت قيلولة طويلة، خرجت فكتوريا من غرفتها إلى الشرفة ونظرت إلى دجلة باستحسان. كانت العاصفة الرملية قد تلاشت، وبدل الغمامة الصفراء ظهر على النهر ضوء صافٍ باهت اللون، وخلف النهر انتصبت ظلال رقيقة لأشجار النخيل والبيوت المبعثرة دونما انتظام.

تناهت إلى مسامع فكتوريا أصوات من الحديقة أسفل منها، فتقدمت إلى طرف الشرفة ونظرت تحتها. كانت السيدة كليب (تلك المتكلمة التي لا تتعب) قد تعرفت -بسرعة- على امرأة إنكليزية من أولئك النسوة اللاتي سفعت بشرتهن الأنواء الجوية ولا يكاد المرء يحزر لهن عمراً محدداً، ويمكن للمرء أن يرى مثيلاتهن في أية مدينة غريبة. كانت السيدة كليب تقول: ... ولا أدري ما الذي كنت سأفعله دونها. إنها أعذب فتاة يمكن لك تصورها. كما أنها ذات صِلات واسعة مرموقة؛ إنها ابنة أخ أسقف لانغو.

- أسقف ماذا؟

- أسقف لانغو كما أظن.

قالت الأخرى: هراء، لا يوجد مثل هذا الشخص.

قطبت فكتوريا جبينها؛ فقد ميزت في هذه المرأة نموذج المرأة الإنكليزية الريفية التي لا تنخدع بذكر أساقفة مزيفين.

قالت السيدة كليب بارتياب: ربما كنت -إذن- قد أخطأت في تذكّر الاسم... ولكنها بالتأكيد فتاة رائعة وقديرة جداً.

قالت الأخرى بأسلوب من لا يريد إبداء رأي: ها!

قررت فكتوريا أن تبعد عن هذه المرأة قدر إمكانها؛ فقد شعرت بأن اختراع قصص لإقناع هذا النوع من السيدات ليس بالأمر السهل. عادت إلى غرفتها وجلست على السرير مطلقة لنفسها عنان التأمل بوضعها الراهن. إنها تقيم في فندق تيو، وهي واثقة تماماً أنه ليس بالفندق الرخيص، وهي لا تمتلك بحوزتها سوى أربعة جنيهات وسبعة عشر شلناً. وقد تناولت غداء دسماً لم تدفع ثمنه بعد، وليست السيدة كليب مجبَرة على دفع ثمنه؛ فقد كانت أجور السفر إلى بغداد هي ما عرضته السيدة كليب، وقد اكتملت الصفقة، ووصلت فكتوريا إلى بغداد. وقد تلقت السيدة كليب الرعاية المحترفة من ابنة أخ أسقف وممرضة سابقة وسكرتيرة قديرة، وانتهى كل ذلك بما يرضي الطرفين. ستغادر السيدة كليب بقطار المساء إلى كركوك... وبذلك ينتهي كل شيء. تسلت فكتوريا بشيء من الأمل في أن السيدة كليب ربما أصرت على منحها هدية بمناسبة انتهاء خدماتها على شكل دفعة نقدية، ولكنها تخلت عن الفكرة بتردد باعتبارها فكرة غير محتملة، فقد لا تعرف السيدة كليب أبداً أن فكتوريا في حاجة ماسّة للمال.

ما الذي ستفعله فكتوريا إذن؟ جاءها الجواب فوراً: "العثور على إدوارد بالطبع". وعندئذ أدركت -بشيء من الانزعاج- أنها لا تعرف أبداً اسم عائلة إدوارد. كل ما تعرفه هو إدوارد و... بغداد.

إذن ينبغي عليها العثور على إدوارد فوراً، وينبغي على إدوارد أن يعثر لها على عمل... فوراً أيضاً.

إنها لا تعرف اسم عائلة إدوارد، ولكنه جاء إلى بغداد كسكرتير لشخص يدعى الدكتور راثبون، ويُفترض أن هذا الرجل مهم وذو مركز مرموق. وهكذا أصلحت فكتوريا زينتها ومشطت شعرها ثم نزلت الدرج بحثاً عن المعلومات.

كان ماركوس، ذو الابتسامة العريضة، يعبر صالة الفندق فحياها قائلاً: آه، الآنسة جونز. ما رأيك في القدوم معي لنشرب الشاي معاً يا عزيزتي؟

وافقت فكتوريا بسعادة (وهي التي لا تعارض الضيافة المجانية أبداً). جلسا على طاولة في المقصف، وبدأت بحثها عن المعلومات: هل تعرف شخصاً يدعى الدكتور راثبون جاء إلى بغداد لتوه؟

أجاب ماركوس تيو بمرح: أنا أعرف كلَّ مَن في بغداد، وكلُّ من في بغداد يعرفون ماركوس. إن ما أقوله لك صحيح. آه! إن لديّ الكثير الكثير من الأصدقاء.

- أنا واثقة من ذلك. هل تعرف الدكتور راثبون؟

- في الأسبوع الماضي نزل عندي في الفندق قائد القوة الجوية الذي يتولى قيادة الشرق الأوسط كله. وقد قال لي: "أيها الشقي ماركوس، لم أرك منذ عام ١٩٤٦، وأنت لم تخفف شيئاً من وزنك!". إنه رجل رائع جداً، أحبه كثيراً.

- وماذا عن الدكتور راثبون؟ أهو رائع أيضاً؟

- تلك السيدة هاميلتون كليب... يا له من اسم! تلك التي جئتِ معها، أمريكية، أليس كذلك؟ إنني أحب الأمريكان، ولكنني أحب الإنكليز أكثر. هل تعرفين السيد سامرز؟ إنه يشرب كثيراً عندما يأتي إلى بغداد بحيث يذهب لينام ثلاثة أيام متواصلة!

- أرجوك أن تساعدني.

بدا ماركوس مدهوشاً وقال: بالطبع سأساعدك. إنني أساعد دوماً أصدقائي. قولي ماذا تريدين... وسيُنفَّذ في الحال. شريحة لحم مميزة، أم ديك حبش مع الأرز والزبيب، أم تفضلين الفراريج الصغيرة؟

قالت: "لا أريد فراريج صغيرة"، ثم أضافت بشيء من الوقاحة: ليس الآن على الأقل... أريد العثور على هذا الدكتور راثبون. الدكتور راثبون. لقد وصل لتوه إلى بغداد. مع... مع سكرتير له.

- لا أدري؛ إنه لا يقيم في تيو.

كانت الإشارة واضحة إلى أن كل من لا يقيم في فندق تيو ليس له وجود بالنسبة لماركوس. ألحّت فكتوريا قائلة: ولكن توجد فنادق أخرى؟ أو ربما كان له بيت خاص؟

- آه، نعم. توجد فنادق أخرى. قصر بابل، وسنحاريب، وفندق زبيدة... وهي فنادق جيدة، ولكنها ليست مثل تيو.

طمأنته فكتوريا قائلة: أنا واثقة أنها ليس كفندق تيو، ولكن

ألا تعرف إن كان الدكتور رالبون يقيم في أيٍ منها؟ إنه يدير جمعية ما... شيئاً ذا علاقة بالثقافة والكتب.

غدا ماركوس شديد الجدية لذكر الثقافة وقال: إنها ما نحتاجه. يجب أن يكون لدينا الكثير من الثقافة. فن وموسيقى... أمور رائعة، رائعة جداً. أنا -شخصياً- أحب السوناتات التي تُعزف على الكمان، إن لم تكن طويلة جداً.

وفي حين كانت فكتوريا توافقه على كل شيء، وخاصة على عبارته الأخيرة، أدركت أنها لا تقترب أبداً من هدفها. رأت أن الحديث مع ماركوس مسلٍ جداً، وأن ماركوس شخص جذاب بحماسته الطفولية للحياة، ولكن الحديث معه ذكّرها بسعي «أليس في بلاد العجائب» للعثور على درب يقودها إلى التلة؛ فقد كان كل موضوع ينتهي إلى نقطة انطلاقه الأولى... ماركوس!

نهضت حزينة وخرجت إلى المصطبة الخارجية ووقفت قرب سياجها تنظر إلى النهر، ثم ما لبثت أن سمعت صوتاً من خلفها يقول: عفواً، ولكن من الأفضل أن تذهبي وترتدي معطفاً. أظن أن الجو يبدو لك صيفياً كونك قادمة من إنكلترا، ولكنه يبرد كثيراً عند الغروب.

كانت تلك هي المرأة الإنكليزية التي رأتها فكتوريا تتكلم مع السيدة كليب قبل قليل. كان صوتها أجش خشناً كما لو كانت معتادة على تدريب كلابِ صيدٍ تديم الصياح فيها، وكانت ترتدي معطفاً من الفرو وتضع بطانية على ركبتيها.

قالت فكتوريا: "آه، شكراً لك"، وكانت على وشك الانسحاب

بسرعة، ولكن نواياها لم تفلح، إذ قالت لها المرأة: ينبغي أن أعرِّفك بنفسي. أنا السيدة كارديو ترينتش. أظن أنك وصلتِ مع السيدة... ما اسمها؟ السيدة كليب.

- نعم، هذا صحيح.

- لقد أخبرَتْني أنك ابنة أخ أسقف لانغو.

استجمعت فكتوريا قواها وسألت بالقدر المناسب من العجب اللاهي: أوحقاً قالت ذلك؟!

- أيمكن أن تكون قد أخطأت في الاسم؟

قالت فكتوريا: "يميل الأمريكيون لحفظ بعض أسمائنا بشكل خاطئ. ولكن الاسم يشبه قليلاً اسم لانغو". ثم قالت وهي ترتجل بسرعة: إن عمي هو أسقف لانغاو.

- لانغاو؟!

- نعم... في أرخبيل المحيط الهادئ، إنه أسقف المستعمرة هناك بالطبع.

قالت السيدة ترينتش وقد خفَّت نبرة صوتها ثلاث درجات صوتية على الأقل: آه، أسقف المستعمرة؟

وكما توقعت فكتوريا فإن السيدة ترينتش كانت جاهلة تماماً بأساقفة المستعمرات. أضافت السيدة ترينتش قائلة: "هذا يفسر

الأمر"، وفكرت فكتوريا بفخر بأن هذا يفسر الأمر بشكل رائع بالنسبة إلى كذبة كانت مرتجلة من وحي اللحظة!

سألت السيدة تريتش بذلك الود اللطيف الذي لا يقاوَم، والذي يخفي خلفه فضولاً طبيعياً: وماذا تفعلين أنت هنا؟

إن جواباً من قبيل: "أبحثُ عن شاب تحدثت معه لعدة دقائق في حديقة عامة في لندن" لا يكاد يكون جواباً يمكن لفكتوريا أن تجيب به. تذكّرت ذلك المقطع الذي قرأته في الصحيفة وما قالته للسيدة كليب بناء عليه ثم قالت للسيدة تريتش: إنني سألتحق بعمي؛ الدكتور باونسفوت جونز.

- آه، تلك هي أنت إذن؟

بدا سرور السيدة تريتش واضحاً لتمكنها من «تحديد موقع» فكتوريا، وأضافت: يا له من رجل ضئيل رائع! رغم أنه شارد الذهن قليلاً. ومع ذلك أظن أن الشرود مسألة متوقعة منه. لقد سمعته يحاضر السنة الماضية في لندن. كانت محاضرة رائعة... رغم أنني لم أفهم حرفاً مما قيل فيها. نعم، لقد مرّ من بغداد قبل نحو أسبوعين، وأظنه أشار إلى فتيات سيلتحقن به في وقت لاحق.

سارعت فكتوريا -وقد رسّخت الآن هويتها ومكانتها- إلى طرح سؤال: هل تعلمين إن كان الدكتور راثبون هنا في بغداد؟

- لقد جاء لتوه. أظنهم طلبوا منه إلقاء محاضرة في المعهد يوم الخميس القادم، محاضرة عن «الأخوّة والعلاقات الدولية»... أو موضوعاً من هذا القبيل. وهذا كله هراء إن أردتِ رأيي. كلما حاول

المرء التقريب بين الناس كلما ازدادت شكوكهم بعضهم ببعض. كل هذا الشعر والموسيقى وترجمة شكسبير إلى العربية والصينية والهندوسية... إلى آخر ذلك. ما فائدة هذا كله؟

- هل تعرفين أين يقيم؟

- أظنه في فندق القصر البابلي، ولكن مقر عمله قرب المتحف. إنه يسمى «غصن الزيتون»... اسم سخيف، وهو مليء بالفتيات ذوات السراويل العريضة والنظارات والرقاب المتسخة.

- إنني أعرف سكرتيره معرفة بسيطة.

- آه، نعم... ما اسمه؟ إدوارد. إنه شاب لطيف، وهو أفضل من أن يُحشَر في عمل نسائي كعمل السكرتاريا. سمعت أنه أبلى بلاء حسناً في الحرب، ومع ذلك فالعمل هو العمل. إنه شاب وسيم، ويخيل لي أن وجوده نعمة على أولئك الفتيات هناك.

شعرت فكتوريا بوخز غيرة مدمرة وقالت: «غصن الزيتون».. أين قلتِ مكانه؟

- هناك بعد منعطف الجسر الثاني، في أحد فروع شارع الرشيد... غير بعيد عن سوق النحاس. ولكن كيف حال السيدة باونسفوت؟ هل ستأتي قريباً؟ سمعت أن صحتها كانت سيئة؟

ولكن بعد أن حصلت فكتوريا على المعلومات التي تريدها لم تعد راغبة في المجازفة بالمزيد من القصص المخترَعة. نظرت إلى الساعة في معصمها وهتفت: آه، يا إلهي! لقد وعدتُ بإيقاظ

السيدة كليب في الساعة السادسة والنصف ومساعدتها في التحضير للرحلة. عليّ أن أذهب بسرعة.

كان العذر صحيحاً تماماً، رغم أن فكتوريا قد استبدلت الساعة السادسة والنصف بالساعة السابعة. هرعت صاعدة على الدرج بحيوية تامة، إذ أنها سترى إدوارد غداً في «غصن الزيتون». فتيات جادات متسخات الرقاب! هذا يوحي بأنهن أبعد ما يكُنَّ عن الجاذبية... ومع ذلك فكرت فكتوريا بقلق بأن الرجال أقل ملاحظة وانتقاداً للرقاب المتسخة من النساء الإنكليزيات الكهلات اللاتي يولين عناية خاصة للنظافة العامة من أمثال السيدة ترينتش!

مرّ المساء سريعاً، وتناولت فكتوريا وجبة مبكرة في غرفة الطعام مع السيدة كليب التي لم تترك موضوعاً لم تخُضْ فيه بالتفصيل. وقد حثت فكتوريا على الذهاب لزيارتها يوماً ما في كركوك... وقد كتبت فكتوريا العنوان بعناية (لأن المرء لا يدري ما تأتي به الأيام)، ثم رافقت السيدة كليب إلى محطة بغداد الشمالية واطمأنت على جلوسها بارتياح في مقصورتها.

هدر محرك القطار بصيحات عالية كئيبة، ورمت السيدة كليب بمغلف بين يدي فكتوريا قائلة: "هذه مجرد ذكرى بسيطة يا آنسة جونز لرفقتنا السعيدة جداً، وأرجو أن تقبليها مع خالص شكري وعرفاني".

قالت فكتوريا بصوت فرح: هذا -حقاً- مبالغة في اللطف من طرفك يا سيدة كليب.

أصدر محرك القطار صيحة ألم رابعة وأخيرة، ثم تحرك ببطء

خارج المحطة. واستقلت فكتوريا سيارة أجرة من المحطة عائدة إلى الفندق، إذ لم تكن لديها أدنى فكرة عن كيفية العودة بوسيلة أخرى ولم تعرف مَن يمكن أن تسأله. ولدى عودتها لفندق تيو هرعت إلى غرفتها في الطابق العلوي وفتحت المغلف بلهفة فوجدت داخله زوجاً من جوارب النايلون النسائية.

كان من شأن فكتوريا -في أية مناسبة أخرى- أن تفتتن بهذه الهدية؛ فقد كانت جوارب النايلون دوماً سلعة لا تملك شراءها، ولكنها -في هذه اللحظة بالذات- كانت تتمنى مبلغاً نقدياً. لقد كانت السيدة كليب من الرقة واحترام مشاعر الآخرين بحيث لم تفكر في إعطائها ورقة من فئة خمسة دنانير، ولكن فكتوريا تمنت من كل قلبها لو لم تكن السيدة كليب على هذا القدر من الرقة.

على كل حال، غداً ستكون مع إدوارد. أوت إلى سريرها لتغط في سبات عميق خلال خمس دقائق، حالمةً بأنها كانت تنتظر إدوارد في أحد المطارات، ولكن فتاة تضع نظارات منعته من اللحاق بها بأن أمسكت به بإحكام من عنقه بينما بدأت الطائرة تتحرك ببطء...

* * *

الفصل الحادي عشر

استيقظت فكتوريا على صباح مشمس بهيج. وبعد أن ارتدت ملابسها خرجت إلى الشرفة العريضة لغرفتها. نظرت فرأت على إحدى الشرفات القريبة رجلاً جالساً وظهره باتجاهها وشعره الأشيب طويل على شكل خصلات دائرية تمتد نزولاً إلى رقبته السمراء المحمرة. وعندما أدار الرجل رأسه أدركت فكتوريا -بإحساس من الدهشة- أنه السير روبرت كروفتن لي. وما كان بوسعها أن تفسر سبب دهشتها الكبيرة تلك، ولكن ربما كان ذلك لأنها افترضت -تسليماً- بأن شخصاً بارزاً مثل السير روبرت كان من شأنه أن يقيم في السفارة لا في فندق. ومع ذلك ها هو يجلس هناك يحدق إلى دجلة بشيء من التركيز الشديد. بل إنها لاحظت أن لديه منظاراً مقرّباً وضعه على الكرسي بجانبه، ولذلك رأت فكتوريا أنه ربما كان من هواة مراقبة الطيور ودراستها.

نزلت فكتوريا إلى الطابق السفلي فالتقت بماركوس تيو في طريقها وقالت له: أرى أنكم تستضيفون السير كروفتن لي هنا.

- آه، نعم. إنه رجل لطيف... لطيف جداً.

- أتعرفه معرفة جيدة؟

- لا، هذه أول مرة أراه فيها. لقد أحضره إلى هنا ليلة أمس السيد شريفنهام العامل في السفارة البريطانية. والسيد شريفنهام رجل لطيف جداً أيضاً، وأنا أعرفه هو حق المعرفة.

تساءلت فكتوريا -وهي ذاهبة لتناول الإفطار- إن كان ثمة شخص واحد لا يعتبره ماركوس لطيفاً جداً؛ فقد بدا لها الرجل سخياً جداً في عواطفه.

بعد الإفطار بدأت فكتوريا مهمة البحث عن «غصن الزيتون». وباعتبارها من أهل لندن، فإنها لم تكن تعرف شيئاً عن مصاعب العثور على مكان محدد في مدينة كبغداد حتى بدأت مهمة البحث تلك. فقد التقت بماركوس ثانية عند خروجها وطلبت منه أن يدلها على المتحف فقال مبتسماً: إنه متحف رائع جداً. نعم، مليء بالأشياء المثيرة القديمة جداً جداً. صحيح أنني لم أزره شخصياً، ولكن لديّ أصدقاء من علماء الآثار الذين يقيمون هنا دوماً عند مرورهم من بغداد. السيد ريتشارد بيكر مثلاً... هل تعرفينه؟ والبروفسور كالشمان، والدكتور باونسفوت جونز، والسيد ماكنتاير وزوجته... جميعهم يأتون إلى الفندق، وهم يخبرونني عما هو موجود في المتحف، وهي أمور مثيرة جداً جداً.

- أين هو المتحف وكيف أصل إليه؟

- تسيرين على طول شارع الرشيد... وهي مسافة طويلة، وتعبرين التقاطع الذي يفضي إلى جسر فيصل كما تعبرين شارع البنوك... هل تعرفين شارع البنوك؟

- لا أعرف شيئاً.

- ثم تجدين هناك شارعاً آخر... وهو يفضي أيضاً إلى جسر، وتجدين المتحف هناك إلى يمينك. اسألي عن السيد بيتون إيفانز، فهو مستشار إنكليزي هناك، وهو رجل لطيف جداً. وزوجته لطيفة جداً أيضاً، جاءت إلى هنا برتبة عريف في قسم النقل خلال الحرب. آه، إنها لطيفة جداً جداً.

- أنا لا أريد حقاً الذهاب إلى المتحف تحديداً، ولكني أريد العثور على مكان... جمعية أو نادٍ يُدعى «غصن الزيتون».

- إن كنتِ تريدين زيتوناً أعطيتك زيتوناً رائعاً من نوعية جيدة جداً، وهم يحتفظون به خصيصاً لي... أو لفندق تيو. سأرسل لك بعضاً منه إلى طاولتك الليلة.

قالت له فكتوريا: "هذا لطف كبير منك"، ثم نجت منه لتذهب إلى شارع الرشيد، فقال لها وهي ذاهبة: سيري على اليسار لا على اليمين. ولكنه طريق طويل؛ من الأفضل أن تأخذي سيارة أجرة.

- وهل يعرف سائقو سيارات الأجرة أين يقع «غصن الزيتون»؟

- لا؛ إنهم لا يعرفون أي مكان! أنت تقولين لهم: شمالاً، يميناً، مباشرة، توقف... إلى أن تصلي مبتغاك.

- من الأفضل أن أمشي في هذه الحالة.

وصلت شارع الرشيد وانعطفت شمالاً. كانت بغداد تختلف

كلياً عن الفكرة التي كانت في ذهنها عنها. شارع كبير مكتظ بالناس، وسيارات تطلق أبواقها بشدة، وأناس يتصايحون، وبضائع أوروبية للبيع في واجهات المحلات. ما من أشكال شرقية غامضة. وكان الرصيف -تحت قدميها- غير مستوٍ تملؤه الحفر بين مسافة وأخرى.

تابعت طريقها وقد أحست -فجأة- بأنها غريبة ضائعة بعيداً عن وطنها. لا يوجد هنا بريق للسفر، لا يوجد إلاّ الفوضى. وأخيراً وصلت إلى جسر فيصل فعبرته واستمرت في المشي. وقد أسرها -رغماً عنها- ذلك المزيج الغريب للأشياء في واجهات المحلات؛ إذ توجد هنا أحذية الأطفال وملابسهم الصوفية، ومعجون الأسنان ومواد التجميل، والمصابيح الكهربائية اليدوية وأواني وفناجين البورسلان... وكلها معروضة معاً على صعيد واحد. بدأ نوع من الافتتان يسيطر عليها، افتتان بالبضائع الآتية من كل أنحاء العالم لتلبي الحاجات الغريبة المتنوعة لمجتمع متنوع.

وجدت المتحف ولكنها لم تجد «غصن الزيتون»، وبدا لها -وهي المعتادة على العثور على طريقها في لندن- أن من الغريب تماماً أن لا يوجد مَن تستطيع أن تسأله، فلم تكن تعرف العربية، وأولئك من أصحاب المحلات الذين كلموها بالإنكليزية ترويجاً لبضائعهم قابلوها بوجوه تائهة عندما سألتهم عن الطريق إلى «غصن الزيتون».

لو كان بمقدور المرء فقط أن يسأل شرطياً! ولكنها أدركت وهي تنظر إلى رجال الشرطة وهم يلوحون بأيديهم ويطلقون صافراتهم بأن ذلك لن يكون حلاً هنا.

دخلت إلى مكتبة عرضت في واجهتها كتباً إنكليزية، ولكن سؤالها عن «غصن الزيتون» لم يُقابل إلاّ برفع الكتفين وهز الرأس تأسفاً، وكان مؤسفاً أنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا المكان. بعدها تناهت إلى أذنيها -وهي تمشي في الشارع- أصوات طقطقة وطرق قوي فأطلّت إلى زقاق طويل قليل الإضاءة، وتذكرت قول السيدة كارديو تريتنش إن «غصن الزيتون» قريب من سوق النحاس. ها هو إذن -على الأقل- سوق النحاس.

دخلته فكتوريا، ونسيت «غصن الزيتون» تماماً خلال ثلاثة أرباع الساعة التي تلت ذلك. لقد فتنها سوق النحاس... الأنابيب القاذفة للنار لأغراض اللّحام، والمعدن الذائب، والصنعة البديعة، كلها جاءت بمثابة رؤيا تكشفت لتلك اللندنية المعتادة فقط على البضائع الجاهزة المكدسة لأغراض البيع. تجولت في السوق على غير هدى، ثم خرجت من جانبه الآخر لتأتي إلى حيث سروج الخيل المقلّمة، وأغطية الأسرة القطنية. هنا تكتسب البضائع الأوروبية مظهراً مختلفاً تماماً، ففي العتمة الباردة للزقاق المسقوف تصبح لهذه البضاعة الصفة الغريبة التي تميز شيئاً جاء مما وراء البحار، شيئاً غريباً ونادراً. أكوام من الملابس القطنية الملونة بألوان زاهية فرحة تسر الناظر إليها.

مشت فكتوريا كما لو كانت في حلم سعيد. هذه هي -حقاً- رؤية العالم. في كل منعطف في عالم السوق المسقوف الرطب هذا يقابل المرءَ شيءٌ لم يكن يتوقعه أبداً... زقاق للخياطين، يجلسون وهم يدرزون الثياب وخلفهم صور لبدلات أنيقة يرتديها رجال أوروبيون. مع ساعات وحلي رخيصة. أثواب ملفوفة من قماش

المخمل وغيره... ثم تنعطف فجأة لترى نفسك في زقاق للملابس الأوروبية الرخيصة المستعملة، سترات باهتة الألوان تثير الشفقة، وصدريات طويلة مطّت حتى فقدت شكلها الأصلي. وبين الحين والآخر تكاد تلمح فتحات تفضي إلى باحات واسعة هادئة منفتحة على السماء.

وصلت إلى صف طويل من خياطي السراويل الرجالية، والعديد من التجار يجلسون متربعين في تلك الفسحات المربعة الصغيرة أمام دكاكينهم.

جاء من خلفها حمار حُمّل أكثر من طاقته فجعلها تفسح له المجال وتدخل زقاقاً ضيقاً غير مسقوف تعرّجَ بين بيوت عالية. وفيما كانت تمشي في ذلك الزقاق اهتدت -بمحض الصدفة- إلى بغيتها؛ فقد نظرت من خلال إحدى الفتحات في الزقاق إلى باحة مربعة صغيرة، وفي الطرف البعيد من الباحة كان باب عُلّقت فوقه لوحة كبيرة كُتب عليها «غصن الزيتون»، وبجانبها عصفور من الجص سيء المنظر يحمل في منقاره غصناً غريب الشكل.

أسرعت فكتوريا -بفرح- لعبور الباحة، ثم دخلت الباب لتجد نفسها في غرفة قليلة الإضاءة فيها طاولات مليئة بالكتب والمجلات، فيما اصطف المزيد من الكتب على الرفوف. بدت الغرفة أشبه بمكتبة لبيع الكتب لولا وجود عدد من الكراسي التي اصطفت هنا وهناك. ومن العتمة جاءت إلى فكتوريا شابة قالت لها بلغة إنكليزية حذرة: بماذا أستطيع مساعدتك، لطفاً؟

نظرت إليها فكتوريا. كانت ترتدي بنطالاً قطنياً سميكاً وقميصاً

برتقالياً، وكان شعرها أسود تم قصه ليصبح قصيراً فوق الرقبة.

قالت فكتوريا: أهذا... أهذا... هل الدكتور راثبون هنا؟

من المثير للجنون أن لا تعرف اسم عائلة إدوارد حتى الآن! حتى السيدة كارديو تريتتش أسمته إدوارد فقط. قالت الفتاة: نعم. هل ترغبين بالانضمام إلينا؟ سيكون ذلك رائعاً.

- ربما... إنني... هل أستطيع رؤية الدكتور راثبون رجاءً؟

ابتسمت الشابة ابتسامة متعَبة وقالت: نحن لا نزعجه. إن لديّ استمارة وسأشرح لك كل شيء، وبعد ذلك توقعين الاستمارة. ثمنها ديناران رجاء.

قالت فكتوريا وقد هالها ذكر الدينارين: لست واثقة -بعد- من عزمي على الانضمام إليكم. أرغب برؤية الدكتور راثبون... أو سكرتيره. تكفي مقابلة السكرتير.

- أنا سأشرح لك، سأشرح لك كل شيء. نحن كلنا أصدقاء هنا، أصدقاء معاً، أصدقاء من أجل المستقبل... نقرأ كتباً تربوية رائعة جداً... ننشد الأشعار بعضنا على بعض.

قالت فكتوريا بصوت عالٍ وواضح: سكرتير الدكتور راثبون. لقد أوصاني تحديداً بأن أسأل عنه.

اكتسب وجه الفتاة شيئاً من النكد المعاند وقالت: ليس اليوم. أنا أشرح...

- لماذا ليس اليوم؟ أليس موجوداً؟ أليس الدكتور راثبون هنا؟

- بلى، إنه هنا... في الطابق العلوي، ولكننا لا نزعجه.

اكتسح فكتوريا نوع من الغضب وقالت بنبرة تكاد تكون نبرة السيدة كارديو تريتتش نفسها: "لقد وصلت لتوي من إنكلترا وعندي رسالة مهمة جداً للدكتور راثبون ينبغي عليّ تسليمها له شخصياً. يرجى أن تأخذيني إليه **على الفور**! إنني آسفة على إزعاجه، ولكنني مضطرة لرؤيته". ثم أضافت لتنهي الموضوع: **على الفور!**

استدارت الفتاة فوراً وقادتها إلى مؤخرة الغرفة، ثم صعدت بها درجاً، وقادتها عبر ممر يطل على الباحة. وهناك توقفت أمام أحد الأبواب وطرقته، فجاء من الداخل صوت رجل قائلاً: ادخل.

فتحت الفتاة الباب وأشارت لفكتوريا بالدخول قائلة: إنها سيدة من إنكلترا جاءت لرؤيتك.

دخلت فكتوريا. ونهض رجل لتحيتها من خلف مكتب ضخم تغطيه الأوراق. كان رجلاً كهلاً مهيب المنظر في نحو الستين من عمره ذا جبين عالٍ مقوس وشعر أبيض، وكانت الإنسانية واللطف والسحر أبرز خواص شخصيته. وكان من شأن مخرج مسرحي أن يسند إليه -دون تردد- دور المحب العظيم للبشرية، العامل من أجلها.

حيا فكتوريا بابتسامة دافئة ويد ممدودة وقال: لقد جئتِ لتوك من إنكلترا إذن. أهي زيارتك الأولى للشرق؟

- نعم.

- إني لأتساءل عن رأيك به الآن... لا بد أن تخبريني برأيك يوماً ما. والآن لأفكّر، هل سبق لي مقابلتك من قبل؟ إنني أعاني من قصر نظر شديد، وأنت لم تعطيني اسمك.

- أنت لا تعرفني، ولكنني صديقة لإدوارد.

- صديقة لإدوارد. هذا رائع. وهل يعرف إدوارد أنك في بغداد؟

- لم يعرف بعد.

- ستكون هذه مفاجأة سارة له عندما يعود.

قالت فكتوريا بصوت من أسقط بيده: يعود؟

- نعم؛ إدوارد في البصرة حالياً. اضطررت لإرساله إلى هناك لاستلام بعض صناديق الكتب التي جاءتنا. لقد حدثت تأخيرات مزعجة جداً في الجمارك فلم نستطع التخليص عليها. لا حلَّ لذلك إلا بالحضور الشخصي هناك، وإدوارد بارع في مثل تلك الأمور ولن يهدأ له بال حتى ينتهي من الأمر. إنني أقدِّر إدوارد كثيراً.

ثم رمش بعينيه وقال: ولكن لا أظنني بحاجة لمدح إدوارد على مسامعك يا فتاتي.

سألت فكتوريا بصوت واهن: متى... متى سيعود من البصرة؟

- هذا ما لا أستطيع تحديده الآن. لن يأتي قبل أن ينجز مهمته... ولا يستطيع المرء استعجال الأمور كثيراً في هذا البلد. أخبريني أين تقيمين وسأجعله يتصل بك بمجرد عودته.

قالت فكتوريا بيأس وهي تدرك محنتها المالية: كنت أتساءل... كنت أتساءل إن... إن كان بوسعي القيام بعمل ما هنا؟

قال الدكتور راثبون بحرارة: هذا ما أقدِّره. نعم، بوسعك طبعاً. إننا بحاجة إلى كل العاملين، إلى كل العون الذي يمكننا الحصول عليه، وخاصة الفتيات الإنكليزيات. إن عملنا يسير بشكل رائع، بشكل رائع تماماً، ولكن لدينا الكثير مما ينبغي فعله. ومع ذلك فالناس متحمسون. إن لديّ الآن ثلاثين مساعداً متطوعاً... ثلاثين... وكلهم شديدو الحماسة! وإذا ما كنت جادة بالفعل فيمكن أن تكوني قيِّمة جداً بالنسبة لنا.

وقعت كلمة «متطوع» وقوعاً سيئاً على مسامع فكتوريا فقالت: لقد أردتُ -في الواقع- وظيفةً بأجر.

بدت الخيبة على وجه راثبون وقال: آه! هذه مسألة أصعب. إن مِلاكنا العامل بأجر صغيرٌ جداً، وهو كافٍ تماماً حالياً، مع ما نحصل عليه من مساعدة تطوعية.

قالت: "لا يسمح وضعي المالي إلاّ بالحصول على وظيفة بأجر". ثم أضافت دون أي خجل: إنني طابعة اختزال قديرة.

- أنا واثق أنك قديرة يا فتاتي العزيزة. إنك تشعّين كفاءة إذا صح التعبير، ولكن قضيتنا هي قضية نقص الأموال. ولكن حتى إن

حصلتِ على وظيفة في مكان آخر فإنني آمل أن تساعدينا في أوقات فراغك. معظم العاملين معنا لهم أعمالهم الخاصة التي يعيشون منها. أنا واثق أنك ستجدين مساعدتك لنا أمراً يثير الحماسة ويسمو بالروح. لا بد من وضع نهاية لكل الوحشية في العالم ولكل الحروب وسوء الفهم والشكوك. إن ما نحتاجه جميعاً هو أرضية مشتركة نجتمع عليها. الدراما، الفن، الشعر... عظائم الروح... لا مكان هناك للكراهية والأحقاد الصغيرة.

قالت فكتوريا بارتياب: "نـ... نعم". وتذكرت أصدقاء لها كانوا ممثلين وفنانين وبدت حياتهم كلها أحقاداً على أتفه الأسباب، وكراهية كأشد ما تكون الكراهية. مضى الدكتور راثبون قائلاً: لقد ترجمنا مسرحية «حلم منتصف ليلة صيف» إلى أربعين لغة مختلفة، أي أن أربعين مجموعة مختلفة من الشباب يستجيبون وينفعلون جميعاً بعمل أدبي رائع واحد. الشباب... هذا هو السر. لا فائدة ترجى عندي إلاّ من الشباب؛ فبمجرد أن تقسو وتتحجر العقول والأرواح يكون الوقت قد فات. نعم، الشباب هم مَن ينبغي عليهم التوحد. خذي -مثلاً- تلك الفتاة التي استقبلتك في الطابق السفلي. إنها سورية من دمشق، وربما كنتِ أنت وهي من عمر واحد. إنكما لن تلتقيا في الأحوال العادية، إذ لن يكون بينكما شيء مشترك، أما هنا في «غصن الزيتون» فإنكما مع غيركما من العراقيات والتركيات والأرمنيات والمصريات والإيرانيات تلتقين جميعاً، ويحب بعضكن بعضاً، وتقرأن نفس الكتب، وتناقشن الأفلام والموسيقى، وكلكن تكتشفن أشياء وتنفعلن بتبادل أفكار ووجهات نظر مختلفة... هذا ما ينبغي أن يكون عليه حال العالم.

لم تملك فكتوريا إلاّ أن تشعر بأن الدكتور راثبون كان يبالغ في تفاؤله وافتراضه بأن كل هذه العناصر المتنافرة التي تلتقي سيحب بعضها بعضاً بالضرورة؛ فهي وكاثرين -مثلاً- لم تحبّ إحداهما الأخرى أبداً، وقد كانت مقتنعة بأن زيادة عشرتهما لن تؤدي إلاّ إلى زيادة الكراهية بينهما.

قال الدكتور راثبون: إن إدوارد رائع، فهو ينسجم بسرعة مع الجميع، وهو وكاثرين منسجمان جداً بشكل خاص.

قالت فكتوريا ببرود: "حقاً؟"، وازدادت حدة كراهيتها لكاثرين.

قال راثبون وهو يبتسم: حسناً، تعالي لمساعدتنا عندما تستطيعين.

كانت عبارته إشارة إلى انتهاء المقابلة، وخرجت فكتوريا من الغرفة نازلة الدرج. كانت كاثرين واقفة قرب الباب تتحدث مع فتاة كانت قد جاءت لتوها حاملة حقيبة صغيرة بيدها. كانت فتاة سمراء جميلة، وخُيّل لفكتوريا -للحظة فقط- أنها رأتها من قبل في مكان ما، ولكن الفتاة نظرت إليها دون أن تبدو عليها أي إشارة تفيد بأنها تعرف فكتوريا. كانت الفتاتان تتحدثان بلهفة معاً بلغة لا تعرفها فكتوريا، وعندما وصلت سكتتا وبقيتا صامتتين تنظران إليها. مشت وعبرتهما متجهة إلى الباب، وأجبرت نفسها وهي خارجة على أن تقول لكاثرين بأدب: "وداعاً".

شقّت طريقها من الزقاق إلى شارع الرشيد، ومشت ببطء عائدة إلى الفندق وهي تكاد لا ترى حشود الناس حولها. حاولت أن

تشغل عقلها عن التفكير بمحنتها الخاصة (كمفلسة في بغداد) وذلك بتركيز تفكيرها على الدكتور راثبون ومجمل تركيبة «غصن الزيتون». لقد كانت لدى إدوارد في لندن فكرة بأن في هذا الأمر شيئاً مريباً. ما هو المريب؟ الدكتور راثبون؟ أم «غصن الزيتون» نفسه؟ لا تكاد فكتوريا تصدق أن في الدكتور راثبون شيئاً مريباً؛ فقد بدا لها واحداً من أولئك المتحمسين المُضلِّلين الذين يصرون على رؤية العالم بأسلوبهم المثالي الخاص بصرف النظر عن الواقع.

ما الذي عناه إدوارد بكلمة مريب؟ لقد كان غامضاً جداً في هذه النقطة. وربما لم يكن يدري هو الآخر. أيمكن أن يكون الدكتور راثبون محتالاً كبيراً من نوع ما؟ هزّت فكتوريا رأسها نفياً، وهي الخارجة لتوها من سحر أسلوبه المهدئ. لقد تغير أسلوبه بالتأكيد (ولو بشكل خفيف لا يكاد يلاحظ) عندما طرحت فكرة دفع راتب لها. من الواضح أنه يفضل عمل الناس له دون أجر.

ولكن فكتوريا رأت في ذلك أمراً طبيعياً يدل على فطرة سليمة. لقد كان من شأن السيد غرينهولتز -على سبيل المثال- أن يشعر نفس شعور الدكتور راثبون في هذا الأمر.

* * *

الفصل الثاني عشر

وصلت فكتوريا إلى فندق تيو وقد ورمت قدماها بعض الشيء ليحييها ماركوس بحماسة وهو يجلس على المصطبة العشبية الخارجية التي تطل على النهر ويتحدث مع رجل نحيل في أواسط عمره يرتدي ثياباً بالية بعض الشيء. هتف ماركوس لها قائلاً: تعالي واجلسي معنا يا آنسة جونز. أعرّفك على السيد داكين... الآنسة جونز من إنكلترا. والآن يا عزيزتي، ماذا تشربين؟

قالت فكتوريا إنها تريد كأساً من عصير الليمون البارد، ثم أضافت (وهي تتذكر أن الفستق مادة مغذية): وهل لي بشيء من ذلك الفستق اللذيذ؟

قال: "أتحبين الفستق؟ يا إلهي!". ثم أعطى الأمر بالعربية. وقال السيد داكين -بصوت حزين- إنه سيشرب عصير ليمون أيضاً.

صاح ماركوس وقد جاءتهم السيدة ترينتش: آه، ها هي السيدة كارديو ترينتش.

قالت مخاطبة فكتوريا: يبدو عليك الحر.

- لقد كنت أتجول لرؤية المدينة.

بعد ذلك جاء رجل قصير القامة قوي البنية وصعد الدرج ليحييه ماركوس بدوره ويقدمه لفكتوريا على أنه الكابتن كروسبي، وقد سألها قائلاً: هل جئت لتوك؟

- بالأمس.

- كنت أفكر بأنني لم أرك هنا من قبل.

قال ماركوس بابتهاج: إنها بالغة اللطف والجمال، أليس كذلك؟ نعم، من الرائع أن تكون الآنسة فكتوريا معنا هنا. سأقيم لها حفلاً... حفلاً رائعاً جداً.

قالت فكتوريا بأمل: وتقدم فيه فراريج؟

- نعم، نعم... وغير ذلك من لذيذ الطعام، وربما الكافيار. ثم إن لدينا طبقاً لذيذاً جداً من السمك... سمك دجلة مع الصلصة والفطر. والديك الحبشي المحشوّ على الطريقة المتبعة في بيتي، بالأرز والزبيب والبهارات... وكل ذلك يُشوى كما هو! أو -إذا كنت ترغبين- يمكنك تناول شريحة من اللحم، شريحة كبيرة جداً وطرية، وسوف أشرف عليها بنفسي.

قالت فكتوريا بصوت واهن: سيكون ذلك رائعاً.

جعلها وصف تلك الأطايب تشعر بجوع شديد. وتساءلت إن كان ماركوس ينوي -حقاً- إقامة تلك الحفلة، وإن كان الأمر كذلك فمتى سيقيمها؟

قالت السيدة تريتتش للكابتن كروسبي: ظننتُك ذهبتَ إلى البصرة.

أجابها كروسبي: "لقد عدتُ بالأمس". ثم نظر إلى شرفةٍ فوقه وقال: من ذاك الرجل صاحب الملابس الغريبة والقبعة العريضة؟

أجابه ماركوس: هذا السير روبرت كروفتن لي يا عزيزي. أحضره السيد شريفنهام من السفارة البريطانية ليلة أمس. إنه رجل لطيف جداً، ورحالة مرموق تماماً. يجوب الصحارى على ظهور الجمال، ويتسلق الجبال... إن نمط الحياة هذا مزعج جداً وخطير جداً. ما كنت لأحب مثل هذه الحياة شخصياً.

كروسبي: آه، هذا هو إذن؟ لقد قرأت كتابه.

فكتوريا: لقد كان في الطائرة معنا في القدوم.

نظر كلا الرجلين إليها باهتمام، أو هكذا خُيل إليها. ولكنها أردفت قائلة: إنه متبجح جداً ومعجب بنفسه.

السيدة تريتتش: كنت أعرف عمته في سيملا. العائلة كلها هكذا. أذكياء جداً، ولكنهم لا يملكون إلاّ التبجح بذلك.

علقت فكتوريا بشيء من الاستياء: إنه جالس هناك منذ الصباح لا يفعل شيئاً.

ماركوس: ذلك بسبب معدته؛ إنه لا يستطيع تناول أي طعام.

أكمل السيد داكين كأس عصير الليمون ثم ذهب بهدوء، فيما ذهب كروسبي أيضاً إلى غرفته. ونظرت السيدة تريتش إلى داكين وهو يمضي مبتعداً وقالت: يا له من مسكين! لم ينجح أبداً... لقد أبقى -بالكاد- على وظيفته.

قال السيد ماركوس السخي بعواطفه: ولكنه رجل لطيف جداً.

السيدة تريتش: ها! إنه شخص ضعيف؛ يتسكع من مكان إلى آخر... لا عزم لديه، ولا جدية في مواجهة الحياة. مجرد إنكليزي آخر أتى إلى الشرق وفقد كل تأثير وتماسك.

شكرت فكتوريا السيد ماركوس على ضيافته وصعدت إلى غرفتها، حيث نزعت حذاءها وتمددت على السرير لتنخرط في بعض التفكير الجدي: رأت أن ما بقي لديها من الجنيهات التي تربو قليلاً على الثلاثة أصبحت من حق ماركوس أصلاً مقابل إقامتها وطعامها في الفندق، وبسبب طبيعته السخية ربما أمكنها حل مشكلة التغذية خلال الأيام القليلة القادمة إن استطاعت أن تعيش بشكل كامل على العصيرات التي يمكن أن تلتهم معها بعض الفستق والزيتون ورقائق البطاطا. كم سيمضي من الوقت قبل أن يقدم لها ماركوس كشف حسابها، وكم سيسمح ببقاء ذلك الكشف غير مدفوع؟ لم تعرف. رأت أنه لم يكن ذلك الرجل الذي لا يأبه لمصالح عمله. عليها أن تعثر على مكان أرخص تقيم فيه بالطبع، ولكن كيف ستعرف الطريق إلى العثور على مثل ذلك المكان؟ عليها أن تجد لنفسها عملاً... وبسرعة. ولكن أين يتقدم المرء بطلب عمل؟ من عساها تسأل ليدلّها

على كيفية العثور على عمل؟ كم هو قاتل لقدرات المرء أن يُحشر -وهو مفلس عملياً- في مدينة غريبة لا يعرف أساليبها وأسرارها! ومع ذلك فقد شعرت فكتوريا -كعادتها- بالثقة بأنها قادرة على تدبر أمرها بقليل من معرفة البلد.

ينبغي لها أن تحصل على بعض المال أو تحصل على عمل... أي عمل. رعاية أطفال، لصق طوابع في مكتب بريد، الخدمة في مطعم... وإلاّ فسوف يرسلونها إلى قنصل بلادها، وسوف يتم ترحيلها إلى إنكلترا، ولن تستطيع رؤية إدوارد ثانية.

عند هذا الحد أغفت فكتوريا وقد أتعبها التفكير.

* * *

استيقظت بعد عدة ساعات وقررت أنها لن تتأثر -وهي الغريقة- بالبلل، وهكذا نزلت إلى المطعم حيث لم تترك صنفاً على قائمة الطعام المنوعة إلاّ أكلت منه، وعندما فرغت من ذلك شعرت -نوعاً ما- بأنها أشبه بأفعى ضخمة ابتلعت فريسة كبرى، ولكنها شعرت بالنشاط الأكيد. وفكرت مع نفسها قائلة: لا فائدة من القلق بعد الآن. سأترك كل شيء حتى الغد، فربما ظهر جديد، أو ربما فكرتُ في شيء، أو ربما عاد إدوارد.

وقبل أن تذهب إلى النوم خرجت إلى المصطبة القريبة من النهر، وبما أن الجو كان بالنسبة إلى المقيمين في بغداد جو شتاء قطبي فلم يكن على المصطبة الخارجية أحدٌ آخر باستثناء خادم في الفندق كان يتكئ منحنياً على السياج محدقاً إلى الماء أسفل منه،

وقد قفز الخادم مبتعداً كمن يشعر بالذنب عندما ظهرت فكتوريا وهرع عائداً إلى الفندق من باب الخدم.

بدا الجو بالنسبة لفكتوريا (القادمة من برد إنكلترا) أشبهَ بجوّ ليلةِ صيفٍ عادية في ريحها لسعة برد خفيفة، وقد سحرها منظر دجلة تحت ضوء القمر وضفته البعيدة تبدو غامضة شرقية بحواشيها من شجر النخيل. قالت فكتوريا لنفسها لتهرب من كربها: حسناً، لقد وصلتُ إلى هنا على أية حال، وسوف أتدبر أمري بشكل ما، فلا بد أن يظهر شيء جديد.

وبهذه العبارة المُطَمئنة صعدت لتنام، وانسلّ الخادم -بهدوء- إلى الخارج مرة أخرى وعاد لمتابعة مهمته المتمثلة في ربط حبل ذي عُقد بحيث يتدلى نزولاً إلى حافة النهر. وسرعان ما خرج من بين الظلال شبح شخص آخر وانضم إلى الخادم. قال السيد داكين بصوت منخفض: أكلُّ شيء على ما يرام؟

- نعم يا سيدي، لم أرَ ما يريب.

وبعد أن أكمل مهمته بما يرضيه عاد السيد داكين إلى الظلال، واستبدل بالمعطف الأبيض لخادمه معطفه الأزرق الذي لا يبين له شكل، ثم أخذ يمشي بهدوء على طول المصطبة حتى وقف وخلفه صفحة الماء تؤطر شكله العام تماماً حيث يوجد الدرج الصاعد من الشارع أسفل منه.

قال كروسبي وهو يخرج ويتقدم للانضمام إليه: أصبح الجو

شديد البرد في الليل هذه الأيام، ولكني أظن أنك لا تشعر كثيراً بذلك، وأنت القادم من طهران.

وقف الرجلان هناك للحظات يتحدثان، ولم يكن بمقدور أحد سماع حديثهما إلاّ عندما يرفعان صوتيهما. قال كروسبي بهدوء: من هي تلك الفتاة؟

- يبدو أنها ابنة أخ عالم الآثار باونسفوت جونز.

- حسناً... يُفترض -والحالة هذه- أن تكون على ما يرام، ولكن حضورها في نفس الطائرة التي أتى بها كروفتن لي...

- من الأفضل أن لا نسلّم جدلاً بأي شيء بالتأكيد.

وقف الرجلان بصمت للحظات قال بعدها كروسبي: أتظن حقاً أن من الحكمة نقل ذلك الشيء من السفارة إلى هنا؟

- أظن ذلك، نعم.

- رغم أن الأمر كله قد تم فهمه تماماً بأدق تفصيلاته.

- لقد تم فهمه بأدق تفصيلاته في البصرة... وقد فشل ذلك.

- آه، أعرف. لقد شُمّم صلاح حسن بالمناسبة.

- نعم... كان ذلك متوقعاً. هل بدت أية علامات على تقرُّبٍ أو لجوء إلى القنصلية؟

قال كروسبي: "ربما حدث ذلك كما أظن. وقد حدثت مشكلة هناك، فقد أشهر رجل مسدسه". سكت قليلاً ثم أضاف: وقد أمسك به ريتشارد بيكر ونزع منه مسدسه.

سأل داكين وهو يفكر: ريتشارد بيكر؟

- أتعرفه؟ إنه...

- نعم، أعرفه.

ساد شيء من الصمت، قال بعده داكين: الارتجال... هذا ما أنوي فعله. إن كان كل شيء لدينا قد فُهم كما تقول، وأصبحت خططنا معروفة، فإن من السهل على الطرف الآخر أن يفهم حركاتنا نحن أيضاً. إنني أشك كثيراً في أن يكون الأمر قد وصل بكارمايكل حتى إلى التقرب من السفارة... وحتى لو وصلها...

ثم هز رأسه حيرة.

- هنا، الواعون لما يجري هم أنت وأنا وكروفتن لي فقط.

- سيعرفون أن كروفتن لي قد انتقل إلى هنا من السفارة.

- آه، طبعاً، كان ذلك أمراً حتمياً. ولكن ألا ترى يا كروسبي أن أي خطة يضعونها لمواجهة ما سنرتجله ينبغي أن تكون مرتجلة هي الأخرى؟ لا بد أن تكون خطة تُبتكر وتُعدّ بسرعة، ولذلك ينبغي أن تأتي من الخارج إذا صح التعبير. فلا مجال هنا لشخصٍ مستقرٍ في فندق تيو ينتظر منذ ستة أشهر مضت. فالفندق لم يكن أبداً في الصورة حتى الآن. لم توجد أية فكرة أو اقتراح باستخدام فندق تيو كمكان التقاء.

نظر إلى ساعته وقال: سأصعد الآن وأرى كروفتن لي.

لم تكن يد داكين المرفوعة بحاجة للطرق على باب السير روبرت، فقد انفتح الباب بهدوء ليدخل. ولم يكن مُضاءً في غرفة الرحالة إلاّ مصباح قراءةٍ صغير، وقد وضع كرسيه بجانبه. وفيما هو يجلس ثانية وضع على مقربة منه على المائدة مسدساً آلياً صغيراً ثم قال: ما الجديد يا داكين؟ أتظنه سيأتي؟

- أظنه سيأتي، نعم يا سير روبرت. أنت لم تقابله من قبل، أليس كذلك؟

هز الآخر رأسه بالنفي وقال: نعم؛ لم أقابله. إنني أتطلع لرؤيته الليلة. لا بد أن ذلك الشاب يتمتع بشجاعة كبيرة يا داكين.

قال داكين بصوته الرتيب: آه، نعم. لديه جرأة كبيرة.

بدا أنه مدهوش قليلاً من حاجة هذه الحقيقة للتأكيد. قال السير روبرت: لا أعني الشجاعة وحدها، فالكثير من الشجاعة يوجد في زمن الحرب، وهي مسألة رائعة. ولكنني أعني...

- الخيال؟

- نعم؛ أن تمتلك الشجاعة على تصديق شيءٍ أبعد ما يكون عن الاحتمال... أن تخاطر بحياتك للتحقق من أن إحدى القصص السخيفة ليست سخيفة أبداً. إن هذا يتطلب ميزة لا تتوفر لشباب اليوم. أرجو أن يأتي.

- أظنه سيأتي.

نظر إليه السير روبرت بحدة وقال: هل أعددت لكل شيء عدته؟

- كروسبي على الشرفة، وسأراقب أنا الدرج. وعندما يصلك كارمايكل انقر على الجدار فأدخلُ أنا.

أومأ كروفتن لي برأسه موافقاً. وخرج داكين من الغرفة بهدوء وسار إلى اليسار حتى وصل إلى الشرفة وذهب إلى طرفها البعيد. وهنا أيضاً كان حبل فيه عُقد يتدلى من طرف الشرفة ليصل إلى الأرض محاذياً لشجرة كاليبتوس ولبعض الأغصان الأخرى.

عاد السيد داكين ليعبر غرفة السير روبرت ويذهب إلى غرفته الخاصة التي تقع بعد غرفة السير روبرت. كان لغرفته بابٌ ثانٍ يفضي إلى الممر الذي يقع خلف الغرف، ويقع الباب على بعد بضعة أقدام من رأس الدرج. ترك داكين ذلك الباب نصف مفتوح وجلس ليؤدي دوره في المراقبة.

بعد نحو أربع ساعات من ذلك نزلت القُفَّة إلى النهر بهدوء (ذلك الابتكار البدائي المستخدَم لعبور دجلة) واقتربتْ من الشاطئ الطيني أسفل فندق تيو. وبعد ذلك بدقائق تسلق جسم نحيل الحبل المتدلي واختبأ بين أغصان الشجرة.

* * *

الفصل الثالث عشر

كانت فكتوريا تنوي الذهاب إلى فراشها والنوم وترك كل المشكلات حتى الصباح، ولكنها -وقد نامت أصلاً طوال فترة بعد الظهر- وجدت نفسها أرِقة مفتوحة العينين.

وفي النهاية أشعلت الضوء وأنهت قصة في إحدى المجلات كانت قد بدأت قراءتها في الطائرة، ثم رتقت جوربها، وجربت جوارب النايلون الجديدة، ثم كتبت العديد من الإعلانات المختلفة التي تطلب فيها عملاً (ويمكنها غداً أن تسأل أين يمكن نشر تلك الإعلانات). وبعد ذلك كتبت ثلاث رسائل تجريبية أو أربعاً إلى السيدة كليب وضعت في كل واحدة منها مجموعة مختلفة من الظروف العبقرية المبتكرة غير المحسوبة التي أدت إلى «انقطاع السبل» بها في بغداد، ووضعت مسودة لبرقية أو اثنتين تستغيث فيهما طالبة العون من قريبها الوحيد الباقي على قيد الحياة، وهو رجل مسن جداً وكريه صعب المراس يعيش في شمال إنكلترا ولم يسبق له أن ساعد أحداً في حياته. بعد ذلك جربت تسريحة جديدة لشعرها، وأخيراً تثاءبت فجاة وقررت أنها قد نعست وغدت جاهزة للنوم.

في هذه اللحظة بالذات ودون سابق إنذار فُتح باب غرفتها

بسرعة وانسلّ رجل إلى الغرفة وأقفل الباب خلفه بالمفتاح وقال لها بإلحاح: بالله عليك خبئيني في مكان ما... بسرعة...

لم تكن فكتوريا في أي وقت مضى بطيئة في ردود أفعالها، وبطرفة عين لاحظت أنفاس الرجل التي يسحبها بصعوبة وصوته المتلاشي، ورأت كيف يمسك بشدة وبيد يائسة وشاحاً قديماً أحمر يستجمعه إلى صدره بقوة. ونهضت بسرعة استجابة لنداء المغامرة.

لم تكن في الغرفة مخابئ كثيرة، ففيها خزانة الملابس، وصندوق ذو أدراج، وطاولة، وطاولة زينة توحي بشيء من الأبهة. كان السرير ضخماً... يكاد يكون مزدوجاً، وقد جاءت ذكريات الطفولة عن لعبة الاختفاء والتقفّي لتجعل رد فعل فكتوريا سريعاً. قالت: "بسرعة..."، ثم أزاحت الوسائد والغطاء والبطانية ليتمدد الرجل على عرض السرير من الأعلى مكان الوسائد. أعادت فكتوريا الغطاء والبطانية إلى مكانهما فوق الرجل، وحشرت الوسائد فوقه وجلست هي على طرف السرير.

لم تكد تفعل ذلك حتى سمعت طرقاً خفيفاً مُلِحّاً على الباب، فنادت بصوت ضعيف مذعور: مَن هناك؟

جاءها صوت رجل من الخارج يقول: أرجو أن تفتحي الباب، رجاءً. نحن الشرطة.

عبرت فكتوريا الغرفة باتجاه الباب، وفيما هي كذلك لاحظت وشاح الرجل الأحمر ملقى على الأرض فالتقطته ودسته في أحد

الأدراج، ثم أدارت المفتاح وفتحت باب غرفتها قليلاً وأطلت منه وعلى وجهها علامات الذعر.

كان يقف خارج الباب شاب أسود الشعر ذو بدلة بنفسجية مخططة، ووراءه رجل يرتدي الزي الرسمي للشرطة. سألت فكتوريا تاركة شيئاً من الرعشة في صوتها: ما الأمر؟

ابتسم الشاب ابتسامة ذكية وتكلم بلغة إنكليزية سليمة تؤدي الغرض: أنا آسف جداً -يا آنستي- على إزعاجك في مثل هذه الساعة، ولكن لدينا مجرماً هارباً، وقد دخل الفندق. ينبغي أن نبحث في كل الغرف... إنه رجل خطير جداً.

قالت فكتوريا: يا إلهي!

ثم تراجعت وهي تفتح الباب واسعاً وقالت: ادخلا وابحثا. يا له من أمر مخيف! ابحثا في الحمام رجاءً. آه! وخزانة الملابس... وهل لكما أن تنظرا تحت السرير أيضاً؟ ربما كان هناك منذ أول الليل.

كان التفتيش سريعاً، ثم قال: لا، إنه ليس هنا.

- أأنتما متأكدان أنه ليس تحت السرير؟ ولكن كلا، يا لي من سخيفة! لا يمكن أن يكون هنا أبداً؛ فقد أقفلت الغرفة عندما نمت.

- شكراً لك يا آنسة، وطابت ليلتك.

انحنى الشاب ثم انسحب مع معاونه ذي البدلة الرسمية. وقالت

فكتوريا وهي ترافقه إلى الباب: من الأفضل أن أقفل الباب مرة أخرى، أليس كذلك؟ حتى أكون في مأمن.

- نعم، سيكون ذلك أفضل شيء بالتأكيد. شكراً لك.

أعادت فكتوريا إقفال الباب ثم وقفت قربه لبعض الوقت. سمعت ضباط الشرطة يقرعون -بنفس الطريقة- الباب المقابل لها في الممر، وسمعت الباب يُفتح، وتبادل الحديث، ثم صوت السيدة تريننش الخشن الغاضب، ثم سمعت صوت خطواتهما تتحرك إلى آخر الممر. وقد جاءت القرعة التالية من مكان أبعد بكثير.

استدارت فكتوريا وعبرت الغرفة إلى السرير، ولقد راودها شعور بأنها ربما تصرفت بمنتهى الحماقة؛ فقد انساقت لروحها الرومانسية المغامِرة فمدت يد العون فوراً لرجل قد يكون مجرماً شديد الخطورة. إن الشغف بالوقوف إلى جانب المُطارَد لا إلى جانب المُطارِد قد يجر على المرء عواقب وخيمة في بعض الأحيان، ولكن فكتوريا فكرت بأن ما حصل قد حصل وأصبحت مجبرة على التعامل مع الأمر الآن كائناً ما كان! وقفت قرب السرير وقالت باقتضاب: انهض.

لم تكن هناك أية حركة، وقالت فكتوريا بحدة ولكن دون أن ترفع صوتها: لقد ذهبوا؛ يمكنك القيام الآن.

ولكن رغم ذلك لم تبدر حركة من تحت كومة الوسائد العالية قليلاً، فقامت فكتوريا بإزاحتها جميعاً بنفاد صبر. كان الشاب ممدداً كما تركته تماماً. ولكن وجهه كان الآن ذا لون رمادي غريب، وكانت عيناه مغمضتين.

وعندها لاحظت فكتوريا شيئاً آخر جعلها تشهق بحدة... فقد كانت بقعة حمراء فاتحة اللون تنفذ إلى البطانية. قالت فكتوريا وكأنها تستغيث بأحد: آه، لا... آه، لا... لا!

فتح الرجل عينيه وكأنه يفتحهما استجابة لتلك الاستغاثة. حدق إليها كما يحدق المرء من بعيد إلى شيء لم يكن متأكداً تماماً من رؤيته، ثم انفرجت شفتاه... وكان صوته ضعيفاً إلى حدٍّ لم تكد فكتوريا تسمعه. انحنت عليه قائلة: ماذا؟

سمعته هذه المرة، فبصعوبة بالغة قال الشاب كلمتين. ولم تعرف فكتوريا إن كانت قد سمعتهما بشكل صحيح أم لا، فقد بدتا لها سخيفتين تماماً لا معنى لهما. كان ما قاله هو: **«الشيطان... البصرة»**!

سقط الجفنان ورفرفا على العينين الواسعتين القلقتين، ثم قال كلمة واحدة أخرى... قال اسماً. ثم ارتجف رأسه إلى الخلف قليلاً وهدأ دون حراك.

وقفت فكتوريا ساكنة وقلبها يخفق بعنف. كانت مفعمة الآن بمشاعر كثيفة من الشفقة والغضب، ولم تعرف ما الذي تفعله بعد ذلك. لا بد لها من استدعاء أحد؛ فهي وحيدة هنا مع جثة رجل ميت، وسيطلب الشرطة تفسيراً لذلك عاجلا أو آجلاً.

وفيما كان عقلها يفكّر في الأمر بسرعة سمعت صوتاً بسيطاً جعلها تلتفت. رأت أن المفتاح قد سقط عن باب غرفتها، وفيما هي تنظر إلى الباب سمعت صوت مفتاح يدور في القفل. وانفتح الباب

ودخل السيد داكين الغرفة مغلقاً الباب خلفه بكل حرص، ثم جاء إليها قائلاً بهدوء: لقد أحسنتِ صنعاً يا عزيزتي. لقد فكرتِ بسرعة. كيف حاله؟

قالت فكتوريا وفي صوتها غصة: أظنه... أظنه مات.

رأت وجهه يتغير، ولمحت التماعة غضب شديد في عينيه، ثم عاد وجهه كما رأته بالأمس... باستثناء أن التردد والضعف اللذين كانا يبدوان على الرجل بالأمس قد تلاشيا الآن وحل محلهما شيء مختلف تماماً. انحنى على الرجل، ثم فكك سترته العسكرية البالية بهدوء، ثم قال وهو يرفع جسده: لقد طُعن بكل دقة وصولاً إلى القلب. لقد كان فتى شجاعاً... وذكياً أيضاً.

وجدت فكتوريا صوتها أخيراً فقالت: لقد جاء الشرطة وقالوا إنه مجرم. هل كان مجرماً؟

- لا، لم يكن مجرماً.

- وهل كانوا... هل كانوا من الشرطة؟

قال: "لا أدري. ربما كانوا من الشرطة، ولكن لا فرق أبداً". ثم سألها: هل قال شيئاً... قبل وفاته؟

- نعم.

- ماذا قال؟

- قال: «الشيطان»... ثم: «البصرة». ثم ذكر اسماً بعد

فترة صمت، وقد بدا اسماً فرنسياً، ولكن ربما لم أفهمه بشكل صحيح.

- ماذا كان الاسم تقريباً؟

- أظنه كان «لوفارج».

قال داكين متأملاً: لوفارج؟

سألت: "ماذا يعني هذا كله؟"، ثم أضافت بشيء من الأسى: وماذا عساي أفعل؟

- ينبغي أن نخرجك من هذا الأمر قدر الإمكان، أما بالنسبة لمعنى هذا الأمر كله فسأعود لاحقاً وأخبرك. أول ما ينبغي أن نفعله هو الوصول إلى ماركوس. فالفندق فندقه، وهو يتمتع بعقل راجح، مع أن المرء لا يدرك ذلك دائماً عندما يتحدث إليه. سوف أذهب إليه، لا أظنه نام الآن؛ فلم تبلغ الساعة إلاّ الواحدة والنصف، وهو نادراً ما ينام قبل الثانية. عدِّلي أنت من مظهرك قبل أن آتي به، فماركوس ضعيف جداً أمام الجمال المنكوب.

غادر الغرفة، ومشت هي -كما لوكانت في حلم- إلى طاولة الزينة فمشطت شعرها وطلت وجهها ليصبح ذا شحوب مناسب وارتمت على كرسي لتسمع صوت الخطوات تقترب. دخل داكين دون قرع الباب ودخل خلفه ماركوس تيو.

كان ماركوس جدياً هذه المرة، ولم تكن تعلو وجهه ابتسامته المعهودة. قال له داكين: والآن يا ماركوس، ينبغي عليك فعل

ما تستطيعه إزاء هذا الأمر. لقد كان ذلك صدمة هائلة للفتاة المسكينة. لقد اقتحم الرجل الغرفة وانهار... وهي ذات قلب رقيق جداً، ولذلك أخفته عن الشرطة. وها هو ميت الآن. ربما ما كان عليها أن تفعل ذلك، ولكن الفتيات رقيقات القلب عادة.

قال ماركوس: وماذا الآن؟

- نريد فقط أن ننقل الجثة بعيداً بهدوء.

- هذا رائع جداً يا عزيزي؛ فأنا أيضاً لا أريد جثة في فندقي. ولكن الأمر -كما قلتَ- ليس بهذه السهولة.

- أظن أن بالإمكان تدبره. لديك طبيب في أسرتك، أليس كذلك؟

- بلى؛ زوج أختي طبيب، وهو فتى لطيف جداً. ولكنني لا أريد تعريضه للمتاعب.

- لن يتعرض لشيء. اسمع يا ماركوس، سننقل الجثة من غرفة الآنسة جونز إلى غرفتي. وهذا يخرجها هي من الأمر. ثم أقوم باستخدام هاتفك، وفي غضون عشر دقائق ستجد شاباً يندفع إلى الفندق من الشارع. سيكون ثملاً جداً، وهو يمسك جانبه بيده بقوة. وسيقوم بطلبي أنا بأعلى صوته. يدخل متمايلاً إلى غرفتي وينهار، ثم أخرج أنا وأناديك وأطلب طبيباً. وهكذا تأتي بزوج أختك الذي يرسل في طلب سيارة إسعاف ويصعد فيها مع صديقي الثمل هذا. وقبل أن يصلا المستشفى يموت صاحبي، إذ يكون قد طُعن. هذه

قصة لا بأس بها بالنسبة إليك، فقد طُعن الرجل في الشارع قبل دخول الفندق.

- أتعني أن زوج أختي يأخذ الجثة... فيما يغادر الشاب الذي مثَّل دور القتيل بهدوء عند الصباح؟

- هذه هي الفكرة.

- وبذلك لا تكون في فندقي أية جثة ولا تتعرض الآنسة جونز لأي قلق أو إزعاج؟ أظن يا عزيزي أن هذه فكرة رائعة.

- حسناً إذن. تأكد لنا من خُلوِّ الجو، وسوف أنقل الجثة إلى غرفتي. إن خدمك هؤلاء يتسكعون في الممرات كل الليل. اذهب إلى غرفتك واعمل مشكلة ما. اجعلهم يهرعون إليك جميعاً وكلِّفهم بإحضار أشياء لك.

أومأ ماركوس برأسه موافقاً وغادر الغرفة. وقال داكين للفتاة: أنت فتاة قوية. أتستطيعين مساعدتي في حمله عبر الممر إلى غرفتي؟

أومأت فكتوريا موافِقةً، ورفع الاثنان بينهما الجسد المترهل وحملاه عبر الممر المهجور وهما يسمعان من بعيد صوت ماركوس يهدر بغضب، ثم وضعا الجثة على سرير داكين الذي قال: ألديك مقص؟ حسناً، اقطعي -إذن- طرف الغطاء الداخلي للسرير حيث بقعة الدم. لا أظن البقعة وصلت إلى الفراش نفسه؛ فقد امتصت سترته العسكرية معظم الدم. سآتي إليك في غضون ساعة تقريباً.

انتظري لحظة، اشربي قليلاً من عصير الليمون في قارورتي تلك، وستشعرين بتحسن.

أطاعته فكتوريا، فقال: فتاة شاطرة. والآن عودي إلى غرفتك وأطفئي النور. سآتيك -كما قلتُ- بعد نحو ساعة.

- وهل ستخبرني عن معنى هذا كله؟

حدق إليها طويلاً وبشكل غريب، ولكنه لم يجب على سؤالها.

* * *

الفصل الرابع عشر

تمددت فكتوريا في سريرها والضوء مطفأ، تستمع من خلال الظلمة. سمعت أصواتاً عالية لشجار مخمور، وسمعت صوتاً يقول: "كان عليّ أن أبحث عنك يا صاحبي. لقد تشاجرت مع أحدهم في الخارج". ثم سمعَتْ أجراساً تُقرع، وأصواتاً أخرى، وكثيراً من الجلبة. ثم حلت فترة من الصمت النسبي، باستثناء صوت موسيقى عربية ينطلق من جهاز غراموفون بعيد في إحدى الغرف. وبعد أن خُيِّل إليها أن ساعات عديدة قد مرت، سمعت باب غرفتها يُفتح بلطف، فجلست في سريرها وأنارت المصباح على الطاولة قربها.

قال داكين مستحسناً: "هذا مناسب"، ثم أتى بكرسي إلى جانب سريرها وجلس عليه، وأخذ ينظر إليها كطبيب يريد تشخيص حالة مريض لديه. قالت: أخبرني كل شيء عن هذا الأمر.

- ماذا لو أخبرتني أنتِ كل شيء عن نفسك أولاً؟ ماذا تفعلين هنا؟ لماذا جئت إلى بغداد؟

لسبب ما لم تنخرط فكتوريا -كعادتها- في ابتكار كذبة مبدعة كاملة التفصيلات لتبرير وجودها في بغداد، إما بسبب أحداث تلك

الليلة أو بسبب شيء ما في شخصية داكين (وقد رأت فيما بعد أن ذلك كان لهذا السبب الأخير). أخبرتْه كل شيء ببساطة وبشكل مباشر، أخبرتْه عن لقائها بإدوارد وتصميمها على الحضور إلى بغداد، وعن معجزة العثور على السيدة كليب، وعن محنتها المالية. وعندما أكملت قال داكين: فهمت.

ثم سكت قليلاً قبل أن يقول: ربما كنتُ أرغب بإبقائك خارج هذا الموضوع، لست واثقاً من ذلك. ولكن القضية هي أنه لا يمكن إبقاؤك خارجه؛ فأنت في صلب القضية سواء أأحببتُ ذلك أم لا! وطالما أنك في صلب الموضوع، فمن الأفضل أن تعملي لصالحي.

اعتدلت فكتوريا في سريرها وقد تورد خداها بحماسة الترقب وقالت: ألديك وظيفة لي؟

- ربما، ولكنها ليست من نوع الوظائف التي تفكرين بها. هذه وظيفة جدية يا فكتوريا، وهي خطيرة أيضاً.

قالت بابتهاج: "آه، لا بأس بذلك". ثم أضافت بارتياب: ولكنها لا تنطوي على غش واحتيال، أليس كذلك؟ لأنني -رغم معرفتي بأنني أكذب بشكل فظيع- إلاّ أنني لا أحب حقاً القيام بأي شيء ينطوي على الغش وعدم الأمانة.

ابتسم داكين قليلاً وقال: من الغريب أن مقدرتك على اختراع كذبة مقنعة بسرعة هي إحدى مؤهلاتك لهذه الوظيفة. ولكن كلا، لا ينطوي هذا العمل على غش. على العكس، فستكونين في صف الدفاع عن القانون والنظام. سوف أضعك في صورة الموضوع...

ولكن بطريقة عامة فقط، وبحيث يمكنك أن تفهمي بشكل كامل ما الذي تفعلينه وما هي المخاطر بالضبط. إنك تبدين شابة عاقلة ولا أظنك فكرت كثيراً بالسياسة العالمية... وهذا أفضل؛ فكما يقول هاملت في كلماته الحكيمة: "ليس من شيء جيد أو سيء، ولكن التفكير يجعله كذلك".

قالت فكتوريا: أعرف أن الجميع يقولون إن حرباً أخرى ستقع عاجلاً أو آجلاً.

- بالضبط. ولماذا يقول الجميع ذلك يا فكتوريا؟

قطبت حاجبيها وقالت: "لأن روسيا.. الشيوعيين.. وأمريكا..."، ثم توقفت.

- أرأيتِ؟ هذه ليست كلماتك، بل أنت التقطتِها من الصحف والأحاديث العابرة والراديو. توجد قوتان تتحكمان بأجزاء مختلفة من العالم، هذا صحيح تماماً. وهما تتمثلان -بشكل عام- في أذهان الناس باعتبارهما «روسيا والشيوعيين» من جهة و «أمريكا» من جهة أخرى، وإن الأمل الوحيد للمستقبل -يا فكتوريا- يكمن في السلام وفي الأنشطة البنّاءة لا في الأنشطة المدمرة، ولذلك فإن كل شيء يعتمد على أولئك الذين يسيطرون على هذين المعسكرين المختلفين، إما بالاتفاق على الاختلاف وإقناع كل منهما نفسَه بالمجال الحيوي لأنشطته، أو بإيجاد أسس مشتركة للاتفاق، أو التسامح والتعايش على الأقل. ولكن -بدلاً من ذلك- فإن العكس هو الذي يحدث؛ حيث يُدَقّ إسفين طوال الوقت لإجبار المجموعتين اللتين تشك كل واحدة منهما بالأخرى على التباعد أكثر فأكثر، وثمة أمور معينة قادت

شخصاً أو شخصين إلى الاعتقاد بأن مثل هذا النشاط التخريبي يأتي من طرف أو مجموعة ثالثة تعمل بالسر ولا يشك بها أحد في العالم حتى الآن. فكلما سنحت فرصة للتوصل إلى اتفاق أو إلى مؤشر لتبديد الشكوك وقع حادثٌ ما ليجعل هذا الطرف ينكفئ إلى شكوكه من جديد، أو يدفع ذاك الطرف إلى خوف هستيري شديد. وهذه الأمور ليست مجرد حوادث عرضية يا فكتوريا، بل هي مُصمَّمَة عمداً للوصول إلى نتيجة محسوبة.

- ولكن لماذا تظن ذلك، ومن الذي يقوم بتلك الأعمال؟

- أحد الأسباب التي تدفعنا لهذا الاعتقاد هو المال؛ فالمال يأتي من مصادر غير طبيعية. إن المال -يا فكتوريا- هو دوماً المؤشر الأعظم الذي يدلك على ما يحدث في العالم. وكما يقيس الطبيب نبضك ليأخذ فكرة عن حالتك الصحية، كذلك المال الذي يشكل دم الحياة الذي يغذي أية حركة أو قضية، ومن غيره لا تستطيع أية حركة أن تتقدم. والآن فإن أموالاً هائلة يتم تداولها، ورغم أن تلك الأموال يتم تمويهها بشكل شديد الذكاء والبراعة، إلاّ أنه يوجد -بالتأكيد- أمرٌ غير طبيعي في مصدر تلك الأموال وفي مآلها الذي تنتهي إليه. إضرابات كثيرة جداً تقوم بشكل غير رسمي... وتتلقى الحكومات الأوروبية التي تُبدي مؤشراتٍ على تصحيح اقتصادها تهديدات عديدة على يد الشيوعيين، وهم عاملون جديون من أجل قضيتهم... ولكن الأموال التي تدفع للقيام بمثل هذه الأعمال لا تأتي من مصادر شيوعية، وعندما يتتبعها المرء يجدها قد جاءت من مصادر غريبة جداً وغير متوقعة. وبنفس الطريقة، تتصاعد موجة خوف هستيري من الشيوعية في أمريكا وفي غيرها من البلدان، وهنا أيضاً لا تأتي

الأموال من المصادر المتوقعة... فهي ليست أموال الرأسماليين، رغم أنها تمر في أيدٍ رأسمالية طبعاً. وثمة نقطة ثالثة، وهي أن أموالاً طائلة هائلة يبدو أنها تخرج تماماً من التداول، والأمر أشبه ما يكون بحالة تصرفين فيها راتبك كل أسبوع على شراء أغراضٍ ثم تختفي تلك المشتريات بعد ذلك أو تخرج من دائرة التداول العادي أو حتى من دائرة الرؤية. لقد استشرى في كل أنحاء العالم طلب عظيم على الألماس والأحجار الكريمة الأخرى، وهذه الحلي تنتقل بين عشرات الأيدي حتى تختفي أخيراً ويستحيل تتبع مصيرها.

هذه مجرد صورة عامة مبهمة بالطبع. قصارى القول هو أنها توجد في مكانٍ ما مجموعة ثالثة من الناس هدفها غامض حتى الآن ولكنها تثير الاضطرابات وسوء الفهم، وتتعامل بصفقات مالية وصفقات جواهر مموهة بشكل ذكي وصولاً إلى أغراضها الخاصة. ولدينا من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن لهذه المجموعة عملاء في كل بلد، وبعضهم مستقر في تلك البلدان منذ سنوات طويلة. بعض هؤلاء العملاء يحتلون مناصب رفيعة محترمة، وآخرون يؤدون أدواراً متواضعة، ولكنهم يعملون جميعاً للوصول إلى هدف يضعونه نصب أعينهم ولا نعرفه نحن. وهذه المجموعة -في جوهرها- أشبه ما تكون بأنشطة الطابور الخامس في بداية الحرب الأخيرة، إلاّ أنها تأخذ بعداً عالمياً واسعاً هذه المرة.

سألت فكتوريا: ولكن من هم هؤلاء الناس؟

- إنهم لا ينتمون -فيما نرى- إلى أية جنسية بعينها، وأخشى أن يكون ما يدعون إليه هو تحسين العالم! إن الوهم القائل إن بإمكان

أناس أن يفرضوا بالقوة عصراً ذهبياً سعيداً على الجنس البشري إنما هو من أخطر الأوهام.

سعل قليلاً ثم أكمل يقول: حسناً، لا ينبغي لي أن ألقي عليك موعظة. دعيني أشرح لك فقط ما نعرفه بالفعل. توجد عدة مراكز للنشاط؛ في الأرجنتين، وفي كندا، ومركز أو أكثر في الولايات المتحدة، وأظن (وإن لم أكن متأكداً تماماً) أنه يوجد مركز في روسيا. والآن نأتي إلى ظاهرة مثيرة جداً.

في السنتين الأخيرتين اختفى ثمانية وعشرون عالماً شاباً لامعاً من جنسيات مختلفة... اختفوا بهدوء من بيئاتهم. وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لمهندسين معماريين، وملاحين، وكهربائيين، والعديد غيرهم من أنواع الفنيين. حوادث الاختفاء هذه كان يجمعها قاسم مشترك واحد: كل الذين اختفوا كانوا شباناً وطموحين، وكلهم ليست لهم روابط قوية تشدهم إلى شيء. وبالإضافة إلى أولئك الذين نعرف عنهم، لا بد أن يوجد الكثيرون غيرهم، وقد بدأنا نحزر شيئاً مما هم بصدد تحقيقه.

أصغت فكتوريا وقد قطبت حاجبيها، فيما مضى داكين يقول: ربما قلتِ إن من المستحيل في هذه الأيام أن تستمر أية عملية في أي بلد دون أن يدري بها العالم. وأنا لا أعني هنا -بالطبع- الأنشطة السرية، فتلك أنشطة يمكن أن تستمر في أي مكان. إن ما أعنيه هو الإنتاج الواسع الحديث. ورغم ذلك فما تزال في هذا العالم مناطق غامضة، بعيدة عن خطوط التجارة، معزولة بالجبال والصحارى، وسط أناس ما زالت لديهم القوة لمنع الغرباء من دخول مناطقهم،

تلك المناطق التي لا يعرفها ولم يزرها إلاّ رحالة معزول هنا أو مسافر وحيد هناك. هناك يمكن أن تستمر أمور لا يمكن لأسرارها أن تنفذ للعالم الخارجي، وإن نفذت فإنما تنفذ كشائعة غامضة سخيفة.

لن أحدد هذه المنطقة، ولكن يمكن الوصول إليها من الصين، ولا أحد يعرف ما الذي يجري في مناطق الصين الداخلية. كما يمكن الوصول إليها من جبال الهيمالايا، ولكن الرحلة من هناك صعبة وطويلة إلاّ على مَن سبق له قطعها. تصل إلى هناك الآلات والعاملون من مختلف بلاد المعمورة بعد أن تحيد عن وجهتها الظاهرية، ولا حاجة للخوض في تفصيلات هذه العملية المعقدة.

ولكن رجلاً واحداً اهتم بمتابعة أثر معين. كان رجلاً غير اعتيادي، رجلاً له أصدقاء وصلات في كل منطقة الشرق؛ فقد وُلد في كاشغار، وهو يتقن مجموعة من اللهجات واللغات. وقد شكّ، وتابع الأثر الذي قادته إليه شكوكه. وكان ما سمعه غريباً لا يُصدَّق بحيث أن أحداً لم يصدقه عندما عاد وأفضى بما لديه.

اثنان فقط صدّقا قصته، أحدهما أنا؛ فأنا لا أحجم عن تصديق الأمور المستحيلة، إذ غالباً ما تكون صحيحة. أما الرجل الآخر...

تردد قليلاً فقالت فكتوريا: من هو؟

- كان الآخر هو السير روبرت كروفتن لي، وهو الرحالة العظيم الذي سافر بنفسه في تلك المناطق النائية ويعرف شيئاً عن إمكانياتها. قصارى القول أن كارمايكل (وهو رجلي الذي أتكلم عنه) قرر الذهاب ليكتشف الحقيقة بنفسه. كانت رحلة خطيرة يائسة،

ولكنه كان يصلح لتنفيذها أكثر من أي شخص آخر. كان ذلك قبل تسعة أشهر، ولم نسمع عنه شيئاً إلاّ قبل بضعة أسابيع، حيث علمنا أنه على قيد الحياة وأنه حصل على ما ذهب من أجله... حصل على الدليل القاطع.

ولكن الطرف الآخر كان يلاحقه، وكان أمرَ حياة أو موت بالنسبة لهم أن لا يعود بأدلته. وقد توفرت لنا أدلة كثيرة عن اختراقهم لجهازنا كله بعملائهم، وحتى في دائرتي الخاصة يوجد من يسرب المعلومات، وبعض هؤلاء -أعاننا الله عليهم- يحتلون مناصب عليا تماماً. وقد تمّت مراقبة كل الجبهات بحثاً عنه، وتمت التضحية بأنفس بريئة قتلت بالخطأ لاعتقادهم أنها هو... فهم لا يحفلون كثيراً بالحياة الإنسانية. ولكنه استطاع -بطريقة أو بأخرى- أن ينجو دون أذى... حتى هذه الليلة.

- أكان ذلك هو إذن؟

- نعم يا عزيزتي. شاب شجاع جداً لا تلين له قناة.

- ولكن ماذا عن الأدلة؟ هل انتزعوا منه تلك الأدلة؟

ارتسمت ابتسامة بطيئة على وجه داكين المتعب وقال: لا أظنهم انتزعوها منه. لا، أنا متأكد تماماً -من معرفتي بكارمايكل- بأنهم لم يحصلوا عليها. ولكنه مات دون أن يتمكن من إبلاغنا بمكان تلك الأدلة وكيف نحصل عليها. أظن أنه ربما حاول قول شيء عند وفاته يعطينا مؤشراً على ذلك.

كرر داكين ببطء: الشيطان... البصرة... لوفارج... لقد كان في

البصرة وحاول أن يبلغ القنصلية، ونجا بأعجوبة من إطلاق النار عليه. من الممكن أن يكون قد ترك الأدلة في مكان ما في البصرة. ما أريد منك فعله -يا فكتوريا- هو أن تذهبي إلى هناك وتحاولي العثور على شيء.

- أنا؟!

- نعم. صحيح أنك لا تملكين الخبرة ولا تعرفين ما الذي تبحثين عنه، ولكنك سمعتِ كلمات كارمايكل الأخيرة، ويمكن لتلك الكلمات أن تفيدك بشيء عندما تصلين هناك. من يدري، ربما صادفك الحظ الذي يحالف المبتدئين؟

قالت فكتوريا بلهفة: بودّي الذهاب إلى البصرة.

ابتسم داكين وقال: هذا يناسبك لأن فتاك هناك، أليس كذلك؟ لا بأس بهذا، وهو تمويه ممتاز أيضاً. لا شيء أفضل للتمويه من قصة حب حقيقية. اذهبي إلى البصرة، وافتحي عينيك وأذنيك وانظري حولك. لا أستطيع إعطاءك أي تعليمات حول كيفية التصرف، والحقيقة أنني أفضل أن لا أعطيك تعليمات. إنك تبدين شابة في منتهى النباهة والذكاء، وإذا افترضنا أنك سمعت الكلمات بشكل صحيح فإنني لا أعرف ما الذي تعنيه كلمات الشيطان ولوفارج. إنني أميل للاتفاق معك على أن لوفارج لا بد أن يكون اسماً. ابحثي عن ذلك الاسم.

قالت فكتوريا بطريقة عملية: كيف أسافر إلى البصرة؟ وكيف أتصرف دون مال؟

أخرج داكين محفظته وأعطاها رزمة من الأوراق النقدية وقال: هذا مال تتصرفين به. أما كيف تسافرين إلى البصرة فأوصيك بإجراء حديث مع تلك العجوز السيدة كارديو تريتش صباح غد. قولي إنك متلهفة على زيارة البصرة قبل التحاقك بتلك الحفريات التي تتظاهرين بالعمل فيها. اسأليها عن فندق هناك، وستخبرك فوراً أن عليك أن تقيمي في القنصلية، وسوف ترسل برقية إلى السيدة كلايتون. وربما وجدتِ فتاك إدوارد هناك. لقد فتحتْ عائلة القنصل كلايتون بيتها للزوار، وكل من يمر هناك يقيم عندهم. وفيما عدا ذلك لا أستطيع إعطاءك أية نصيحة باستثناء نصيحة واحدة: "إذا ما حدث أي مكروه، وإذا ما سُئلتِ عمّا تعرفينه ومَن الذي كلّفك بما تقومين به فلا تحاولي إبراز بطولتك؛ قولي كل ما عندك فوراً".

قالت فكتوريا بامتنان: شكراً جزيلاً لك. إنني جبانة جداً أمام الألم، وإذا ما قُدِّر لأحد أن يعذبني فأخشى أن لا أصمد.

- لن يُحمّلوا أنفسهم عناء تعذيبك، إلاّ إذا دخل عنصر سادي في الموضوع. إن التعذيب وسيلة عفى عليها الزمن. وخزة إبرة صغيرة تجيبين بعدها على كل شيء بصدق ودون أن تدركي ذلك. إننا نعيش في عصر العلم، ولذلك لم أُرِدْ منك تبنّي أفكار مثالية حول مسألة السرية؛ إذ أنك لن تخبريهم بشيء لا يعرفونه أصلاً. لا بدّ أن تنفتح أعينهم عليّ بعد هذه الليلة، وعلى السير روبرت كروفتن لي.

- وماذا عن إدوارد؟ هل أخبره؟

- هذا ما ينبغي أن أتركه لك. يُفترَض بك -نظرياً- أن تكتمي ما تفعلينه عن الجميع. أما عملياً!

رفع حاجبيه حيرة وأكمل قائلاً: إن من شأن ذلك أن يجعله في خطر، ولكني فهمتُ أنه كان ذا سجل جيد في القوة الجوية. لا أظن الخطر سيقلقه. غالباً ما يكون الرأيان أفضل من رأي واحد. إنه يظن -إذن- أن في «غصن الزيتون» ذاك حيث يعمل شيئاً مريباً؟ هذه نقطة مثيرة... مثيرة جداً.

- لماذا؟

قال: "لأننا نرى ذلك أيضاً"، ثم أضاف قائلاً: مجرد نصيحتين وداعيتين. الأولى (إن سمحتِ لي بقولها) هي أن لا تخترعي كذبات كثيرة مختلفة؛ إذ سيصعب تذكّرها والإيفاء بمتطلباتها. أعرف أنك موهوبة في هذا الجانب، ولكن دعي الأمور بسيطة، هذه هي نصيحتي.

قالت فكتوريا بتواضع يقتضيه الحال: سأتذكر ذلك. وما هي النصيحة الأخرى؟

- دعي أذنيك مصغيتين دوماً لأي ذكر لشابة تُدعى آنا شيل.

- ومن هي؟

- لا نعرف الكثير عنها، وسيفيدنا أن نعرف عنها المزيد.

* * *

الفصل الخامس عشر

قالت السيدة كارديو تريتش: طبعاً ينبغي أن تقيمي في القنصلية. هراء ما تقولينه يا عزيزتي... لا يمكنك الإقامة في فندق المطار. سيسعد أسرة كلايتون بك. لقد عرفتُهم لسنوات طويلة. سنرسل برقية ويمكنك بعدها السفر بقطار الليلة، وهم يعرفون الدكتور باونسفوت حق المعرفة.

احمرّ وجه فكتوريا؛ إذ أن أسقف لانغو (الذي أصبح لاحقاً أسقف لانغاو) يختلف تماماً عن الدكتور باونسفوت الحقيقي بشحمه ولحمه!

كان لرحلة القطار كل سحر التجربة الجديدة، وفي محطة الوصول استقبلتْها سيارة القنصلية وقادتها إليها. دخلت السيارة عبر بوابات ضخمة إلى حديقة جميلة حتى انتهت إلى أسفل درج يفضي إلى الشرفة التي تحيط بالمنزل. وخرجت السيدة كلايتون من الباب لتستقبلها بابتسامة ونشاط قائلة: إننا مسرورون لرؤيتك. إن البصرة جميلة حقاً في مثل هذا الوقت من السنة، ولا ينبغي لك أن تتركي العراق دون رؤيتها، ومن حسن الحظ أنه لا يوجد الكثيرون هنا في هذه الأيام بالذات. أحياناً لا نعرف كيف نفعل لنستطيع تأمين إقامة

الناس هنا، ولكن لا يوجد أحدٌ الآن باستثناء موظف السيد رائبون، وهو شاب رائع تماماً. لقد فاتتك -بالمناسبة- رؤية ريتشارد بيكر؛ فقد غادر قبل أن أتلقى برقية السيدة كارديو تريتش بقليل.

لم تعرف فكتوريا من هو ريتشارد بيكر، ولكن بدا من حسن الحظ أن يغادر في هذا التوقيت بالذات.

- لقد ذهب إلى الكويت لمدة يومين، والكويت مكان ينبغي أن تشاهديه. حسناً، ما الذي تفضلينه في البداية... حمّاماً أم كوب قهوة؟

قالت فكتوريا بامتنان: بل الحمّام من فضلك.

- وكيف حال السيدة كارديو تريتش؟ هذه غرفتك، والحمّام هناك. هل هي صديقة قديمة لك؟

- آه، لا. لقد قابلتها قبل فترة فقط.

- وأظنها نبشت تاريخك منذ أول ربع ساعة، أليس كذلك؟ إنها ثرثارة فظيعة كما أظنك عرفت. لديها ما يشبه الجنون لمعرفة كل شيء عن كل شخص، ولكن رفقتها ممتعة، وهي لاعبة ورق من الطراز الأول. أأنتِ متأكدة أنك لا ترغبين بشيء من القهوة أو غيرها أولاً؟

- نعم، شكراً لك.

- حسناً، سأراك لاحقاً إذن. هل لديك كل ما تحتاجينه؟

ابتعدت السيدة كلايتون كنحلة سعيدة، وغسلت فكتوريا

وجهها ومشطت شعرها بكل عناية. من حسن الحظ أن إدوارد يعرفها باسمها الثاني جونز، وربما لا يدهشه إضافة اسم باونسفوت. ستأتي الدهشة من وجودها في العراق، وبالنسبة لهذا الأمر كانت فكتوريا تأمل أن تتمكن من الانفراد به حتى ولو للحظة واحدة.

وضعت هذه الفكرة نصب عينيها، فانسلّت بهدوء خارجة لتأخذ مكانها على الشرفة بحيث تستطيع رؤية إدوارد بمجرد عودته من أي عمل هو منشغل فيه... وهو على الأغلب مصارعة رجال الجمارك للتخليص على صناديق الكتب.

كان أول الواصلين رجلاً طويلاً نحيلاً ذا وجه يبدو عليه طول التفكير، وفيما هو يصعد الدرج ذهبت فكتوريا إلى زاوية الشرفة. وهناك رأت إدوارد بالفعل يدخل من خلال باب الحديقة الذي يفضي إلى منحنى النهر. وعلى طريقة جولييت، اتكأت فكتوريا على سياج الشرفة وأطلقت هسيساً مطولاً تسترعي به انتباه إدوارد. أما إدوارد فقد أدار رأسه بحدة ونظر حوله. نادته فكتوريا بصوت منخفض: هست! هنا...

رفع إدوارد رأسه وبدا على وجهه تعبير دهشة مطلقة، فهتف قائلاً: يا إلهي! فتاة منطقة تشيرنغ كروس!

- هش. انتظرني؛ أنا نازلة.

أسرعت فكتوريا على الشرفة ونزلت الدرج واستدارت إلى زاوية المنزل حيث بقي إدوارد واقفاً طائعاً وعلى وجهه أمارات الدهشة. بادرها قائلاً: لا يمكن أن أكون ثملاً. هذا أنت حقاً؟

أجابته بسعادة: نعم، هذه أنا.

- ولكن ماذا تفعلين هنا؟ وكيف جئت؟ لقد ظننتُ أنني لن أراك ثانية أبداً.

- وأنا ظننتُ ذلك أيضاً.

- إنها حقاً أشبه بمعجزة. كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

- بالطائرة.

- طبعاً بالطائرة، وإلاّ لما وصلت إلى هنا بهذه السرعة. ولكن أعني أية فرصة رائعة أتت بك إلى البصرة؟

- القطار.

- إنك تتعمدين إغاظتي أيتها الشقية. يا إلهي! إنني سعيد لرؤيتك. ولكن كيف وصلت إلى هنا حقاً؟

- لقد خرجتُ من إنكلترا مع امرأة كسرت ذراعها... أمريكية تدعى السيدة كليب. وقد عُرضت عليّ هذه الوظيفة في اليوم التالي للقائي بك، وكنتَ قد تحدثتَ عن بغداد، وأنا كنت قد سئمت لندن بعض الشيء، ولذلك قلت لنفسي: لماذا لا أخرج لرؤية العالم؟

- أنت حقاً شديدة الأريحية يا فكتوريا. أين هذه المرأة كليب، هنا؟

- لا؛ لقد ذهبت إلى ابنة لها قرب كركوك. كانت وظيفتي مرافقتها في سفرها فقط.

- ما الذي تفعلينه الآن إذن؟

- ما زلت أرى العالم. ولكن الأمر تطلب بعض الحيل واللف والدوران، لذلك أردت رؤيتك قبل أن نلتقي بحضور الآخرين، أعني أنني لا أريد أي إشارة متهورة إلى كوني طابعة اختزال فقدتْ عملها، كما كنتُ حين رأيتَني آخر مرة.

- بالنسبة لي أنا فسأعتمد ما تقولينه عن نفسك كائناً ما كان. أنا جاهز لسماع التعليمات.

- الفكرة هي أنني الآنسة باونسفوت جونز. وعمي عالم آثار بارز ينقب عنها في مكان قصي هنا، وسأنضم إليه قريباً.

- وهذا كله غير صحيح، أليس كذلك؟

- بالطبع. ولكنها قصة جيدة الحبك.

- آه، نعم... قصة ممتازة. ولكن ماذا لو التقيت مع العجوز باونسفوت وجهاً لوجه؟

- لا أظن ذلك محتمَلاً. إن علماء الآثار -حسب معلوماتي- إذا بدؤوا بالحفر يستمرون فيه كالمجانين دون توقف.

- نعم، أشبه بكلاب الأثر. أظن أن في ذلك الكثير من الصدق. وهل للسيد باونسفوت ابنة أخٍ حقيقية؟

- وما أدراني بذلك؟

- آه، أنت لا تتقمصين دور أحد بحد ذاته إذن، وهذا يجعل الأمر أسهل.

- نعم؛ فمن شأن الرجل أن يكون له الكثير من بنات الإخوة

والأخوات في نهاية الأمر. أو أنني قد أقول -عند الطوارئ- إنني مجرد ابنة عم له ولكنني اعتدت أن أناديه بعمّي.

قال إدوارد بإعجاب: إنك تفكرين بكل شيء؛ أنت -حقاً- فتاة مدهشة يا فكتوريا. لم أقابل قط فتاة مثلك. لقد ظننت أنني لن أراك لسنوات طويلة، وعندما أراك ستكونين قد نسيت كل شيء عني، وها أنت الآن هنا.

سببت لها النظرة المعجبة المتواضعة التي نظر بها إدوارد إليها رضا شديداً. قال لها: ولكنك ستحتاجين عملاً، أليس كذلك؟ أعني أنك لم تأتي لتحصلي على إرث أو ثروة أو ما شابه ذلك؟

قالت فكتوريا ببطء: أنا أبعد ما أكون عن المواريث والثروات! نعم، سأكون بحاجة إلى عمل، وقد ذهبت -في الحقيقة- إلى مقر عملك المسمى «غصن الزيتون» ورأيت الدكتور راثبون وطلبت منه عملاً، ولكنه لم يُبدِ استجابة كبيرة... أعني لتأمين عمل براتب.

- ذلك الشحاذ العجوز بخيل جداً بماله. فكرته هي أن يأتي الجميع ويعملوا حباً في العمل.

- أتظنه دعيّاً يا إدوارد؟

- لا، لا أدري ماذا أظن. لا أرى كيف يمكن أن يكون غير نزيه... فهو لا يربح مالاً من نشاطه، وحسبما أرى فإن كل تلك الحماسة الرهيبة لا بد أن تكون حقيقية.

- من الأفضل أن ندخل. يمكننا أن نتحدث لاحقاً.

* * *

هتفت السيدة كلايتون: لم أكن أعلم أنكِ وإدوارد متعارفان.

ضحكت فكتوريا وقالت: آه، إننا صديقان قديمان، إلاّ أننا فقدنا الاتصال بعضنا ببعض في الواقع. لم أكن أعرف أن إدوارد موجود في هذا البلد.

سأل السيد كلايتون (وهو الرجل نفسه الذي رأته فكتوريا يصعد الدرج): كيف كان تقدم العمل هذا الصباح يا إدوارد؟ هل حققت أي تقدم؟

- إنها تبدو مهمة صعبة جداً يا سيدي. إن صناديق الكتب موجودة هناك، وهي كلها حاضرة وصحيحة، ولكن الإجراءات الشكلية للتخليص عليها تبدو بلا نهاية.

ابتسم كلايتون وقال: أنت جديد على أساليب التأخير الشرقية.

قال إدوارد موضحاً: إن الموظف المعني يبدو دائماً غائباً في يوم الحاجة إليه. ورغم أن الجميع لطفاء ومتعاونون، إلاّ أن شيئاً لا يحدث كما يبدو.

ضحك الجميع، وقالت السيدة كلايتون على سبيل المواساة: ستخرجها في نهاية الأمر. كان قرار الدكتور راثبون بإرسال شخص لمتابعة الموضوع شخصياً قراراً حكيماً، وإلاّ لبقيت الكتب هنا لأشهر.

وبما أن المعاملات تتوقف في ساعات الظهيرة، فقد خرج إدوارد وفكتوريا بعد الغداء للتجول ورؤية المدينة. وقد أعجبت

فكتوريا بالنهر المسمى شط العرب، بما يحده من سكك النخيل، وأحبت أيما حب الشكل الجميل للقوارب العربية بمقدماتها العالية الشبيهة بقوارب البندقية وقد رُبطت في النهر. ثم ذهب الاثنان إلى السوق وشاهدا صناديق العروس التي تُصنع في الكويت والمرصعة بأشكال فنية من النحاس، وغير ذلك من البضائع.

وعندما قفل الاثنان عائدين إلى القنصلية، وكان إدوارد يحضّر نفسه لهجوم جديد على دائرة الجمارك، عندها فقط سألته فكتوريا فجأة: إدوارد، ما هو اسمك؟

حدق إليها وقال: ماذا تعنين بالله عليك يا فكتوريا؟

- أعني اسمك الأخير. ألا تدرك أنني لا أعرفه؟

- حقاً؟ آه، نعم، أظنك لا تعرفينه. إنه غورينغ.

- إدوارد غورينغ. إنك لا تعرف كيف شعرتُ بأنني مغفلة حين ذهبت إلى «غصن الزيتون» أريد السؤال عنك وأنا لا أعرف شيئاً باستثناء إدوارد.

- هل كانت هناك فتاة سمراء؟ ذات شعر طويل ملفوف؟

- نعم.

- تلك هي كاثرين. إنها لطيفة جداً. لو أنك قلت إدوارد لعرفتني على الفور.

قالت فكتوريا بشيء من ضبط النفس: نعم، أحسبها كانت ستعرف.

- إنها فتاة في غاية اللطف. ألا تظنين ذلك؟

- آه، تماماً...

- ليست جميلة عملياً، ولكنها في غاية التعاطف.

- حقاً؟

كان صوت فكتوريا قد غدا الآن جليدياً تماماً، ولكن الظاهر أن إدوارد لم يلاحظ شيئاً.

- لا أعرف -حقاً- ماذا كنت سأفعل دونها؛ فقد وضعتني في صورة العمل، وأخرجتني من مآزق كنت سأبدو مغفلاً فيها. أنا واثق أنكما ستصبحان صديقتين حميمتين.

- لا أحسب أننا سنجد فرصة لذلك.

- آه، بلى؛ سوف أحصل لك على عمل في مشروعنا.

- وكيف ستتمكن من ذلك؟

- لا أدري، ولكني سأتمكن من ذلك بشكل ما. سأقول لرائبون العجوز أية طابعة رائعة أنت... إلى آخر تلك المعزوفة.

- ولكنه سرعان ما سيكتشف أنني لست كذلك.

- ومع ذلك فسأدخلك إلى «غصن الزيتون» بشكل أو بآخر. لن أسمح لك بأن تبقي جوالة على هواك. وإلاّ لكان الخبر التالي الذي سأسمعه هو أنك اتجهت إلى بورما أو مجاهل أفريقيا. لا يا عزيزتي

فكتوريا، سأضعك أمام ناظري تماماً. إنني لا أثق بك مقدار حبة خردل، فأنت مغرمة جداً برؤية الدنيا.

فكرت فكتوريا مع نفسها قائلة: "أيها الأحمق! ألا تدري أن الخيول الجامحة ليس من شأنها أن تزحزحني من بغداد". أما بصوت عال فقالت له: حسناً، سيكون من الممتع تماماً الحصول على عمل في «غصن الزيتون».

- ما كنتُ لأصف ذلك بالممتع. فالأمر كله في غاية الجدية، بالإضافة إلى كونه عملاً سخيفاً جداً.

- أما زلت ترى أن فيه شيئاً غير طبيعي؟

- آه، كانت تلك مجرد فكرة طائشة خطرت لي.

- كلا، لا أظنها كانت مجرد فكرة طائشة. أظنها فكرة صحيحة.

التفت إليها بحدة وقال: ما الذي يجعلك تقولين ذلك؟

- شيء سمعته... من صديق لي.

- من هو؟

- مجرد صديق.

قال إدوارد متذمراً: يبدو أن للفتيات من أمثالك الكثير من الصداقات.

أخفت رضاها السعيد وسألت: إدوارد، هل يوجد مَن يُدعى

بوضوح وطوراً بإبهام. ولسببٍ غامض لم تكن فكتوريا قادرة على أن تروي أحداثاً حقيقية بشكل درامي مؤثر. كان سردها متعثراً ناقصاً وكأنها تروي قصة منتحلَة مُختَرَعة. وعندما انتهت من سردها نظر إليها إدوارد بارتياب وقال: أأنت على ما يرام يا فكتوريا؟ أعني هل أصابتك ضربة شمس أو... حلم أو شيء آخر؟

- كلا بالطبع.

- لأن هذا يبدو أمراً يستحيل حدوثه تماماً.

قالت فكتوريا وقد تحسست: ولكنه حدث.

- وهذه القصة الميلودرامية عن القوى العالمية والمنشآت السرية الغامضة في قلب التبت أو بلوشستان. أعني أن هذا كله لا يمكن أن يكون صحيحاً. إن أموراً كهذه لا تحدث.

- هذا ما يقوله الناس دوماً قبل أن تحدث.

- بالله عليك أيتها الشقية... ألست تخترعين ذلك كله؟

صاحت فكتوريا منزعجة: كلا!

- وقد جئتِ إلى هنا للبحث عن شخص يدعى لوفارج وامرأة تدعى آنا شيل...

قاطعته قائلة: وهي امرأة سمعتَ بها أنت شخصياً. لقد سمعتَ بها، أليس كذلك؟

- لقد سمعتُ الاسم... نعم.

- كيف؟ وأين؟ في «غصن الزيتون»؟

سكت إدوارد لبضع دقائق ثم قال: لا أدري إن كان ذلك يعني شيئاً. كان مجرد أمر... غريب...

- هيا، أخبرني.

- اسمعي يا فكتوريا، إنني أختلف عنك. أنا لست على درجة ذكائك. إنني أشعر فقط، أشعر بطريقة غريبة بأن الأمور غير طبيعية على نحو ما... ولا أدري لماذا أحس بذلك. أنت تحددين الأمور وتستنتجين منها حقائق، أما أنا فليس لي من الذكاء ما يجعلني أقوم بذلك. إنني أشعر بطريقة مبهمة فقط بأن الأمور غير طبيعية، ولكنني لا أدري لماذا.

- أنا أيضاً أشعر بذلك أحياناً، كحالة السير روبرت على الشرفة.

- من هو السير روبرت؟

- السير روبرت كروفتن لي. كان مسافراً على متن الطائرة معنا. وهو متبجح جداً ومغرور، ولكنه شخصية بارزة كما تعلم. وعندما رأيته جالساً على الشرفة في فندق تيو تحت أشعة الشمس انتابني شعور غريب -كالذي ذكرتَه- بأن في الأمر خطأً ما، دون أن أعرف ماهيته.

- لقد طلب منه راثبون إلقاء محاضرة في «غصن الزيتون» كما

أظن، ولكنه لم يستطع. أظنه عاد بالطائرة صباح أمس إلى القاهرة أو دمشق أو مكان آخر.

- حسناً، أكملْ حديثك عن آنا شيل.

- آه، آنا شيل... لم يكن في الأمر شيء في الواقع؛ مجرد ملاحظة من إحدى الفتيات.

قالت فكتوريا على الفور: كاثرين؟

- أظنها كانت كاثرين بالفعل، تذكرتُ الآن.

- لقد كانت كاثرين بالطبع؛ ولهذا لم تشأ أن تخبرني بالأمر.

- هراء، هذا زعم سخيف تماماً.

- حسناً، ماذا كانت تلك الملاحظة؟

- قالت كاثرين لإحدى الفتيات: "عندما تأتي آنا شيل يمكننا التقدم. عندها ستتلقى أوامرنا منها... ومنها فقط".

- هذا في غاية الأهمية يا إدوارد.

حذَّرها إدوارد قائلاً: تذكري أنني لست واثقاً حتى من أنه هو الاسم الذي ذُكر.

- ألم ترَ الأمر غريباً في ذلك الوقت؟

- نعم، لم أَرَهُ غريباً بالطبع. ظننت أنها مجرد امرأة قادمة

لتترأس العمل؛ مجرد واحدة من تلك النساء القديرات. أأنت واثقة من أنك لا تتخيلين الأمر كله يا فكتوريا؟

وقبل أن ترميه بنظرتها سارع إلى الاعتذار قائلاً: حسناً، حسناً، إلاّ أن عليك أن تعترفي بأن القصة كلها تبدو غريبة بالفعل. إنها كقصص الرعب والإثارة... يدخل شاب ويدمدم بكلمة لا تعني شيئاً... ثم يموت. إنها لا تبدو قصة حقيقية.

قالت: "أنت لم ترَ الدماء"، ثم ارتعدت قليلاً، فقال متعاطفاً: لا بد أنها شكلت لك صدمة رهيبة.

- لقد صدمني ذلك بالفعل. وتأتي أنت لتتوّج ذلك وتسألني إن كنتُ أخترعُ القصة كلها.

- أنا آسف، ولكنك ماهرة قليلاً في اختراع الأمور... كشأن أسقف لانغو وغير ذلك!

- آه، كان ذلك مجرد حيوية فتاة شابة، أما هذا الأمر فهو جِدّي يا إدوارد، جدّي حقاً.

- ماذا بالنسبة لذلك الرجل... هل اسمه داكين؟ هل أقنعك كرجل يعرف ما الذي يتكلم عنه؟

- نعم، لقد كان مُقنعاً جداً. ولكن، اسمع يا إدوارد... كيف عرفتَ...

قطعت حديثها صيحة من الشرفة: "هيا تعالا... الشاي جاهز بانتظاركما"، فردّت فكتوريا: إننا قادمان.

قالت السيدة كلايتون لزوجها وهي تراقبهما يقتربان من الدرج: إن وراء الأكمة ما وراءها! شابان لطيفان... ربما لم يكن لديهما مال أبداً. هل أقول لك رأيي يا جيرالد؟

- بالتأكيد يا عزيزتي؛ إنني مهتم دوماً بسماع أفكارك.

- أظن أن تلك الفتاة قد جاءت من إنكلترا لتنضم إلى عمها في حفرياته لسبب وحيد وبسيط هو ذلك الشاب.

- لا أكاد أظن ذلك يا روزا. لقد دُهشا تماماً لرؤية بعضهما بعضاً.

- ها! هذا لا يعني شيئاً. أظن أنه هو الذي اندهش لرؤيتها.

هز جيرالد كلايتون رأسه عتباً عليها وابتسم، فقالت: إنها ليست من نوعية العاملين بالآثار؛ فالعاملات بهذا الحقل عادة ما يكنَّ جديات ويضعن نظارات... وغالباً ما يكنَّ مملات.

- يا عزيزتي، لا يمكنك التعميم بهذه الطريقة.

* * *

ذهبت فكتوريا إلى فراشها في تلك الليلة وهي تحت وطأة مشاعر متضاربة. لقد وصلت إلى ما كانت تسعى إليه؛ فقد وجدت إدوارد! ولكنها ارتعدت لتفكيرها برد الفعل الحتمي، فقد ألحّ عليها شعور بهبوط الترقب وتباطؤ الحدث، بغضّ النظر عما تفعله.

كان عدم تصديق إدوارد لقصتها السببَ -جزئياً- في جعل كل

ما حدث يبدو مصطنعاً غير حقيقي. لقد وصلت هي (فكتوريا جونز، الطابعة المغمورة في لندن) إلى بغداد، ورأت رجلاً يُقتَل أمام عينيها تقريباً، ثم أصبحت عميلة سرية أو شيئاً بهذا المستوى من الإثارة، ثم التقت -أخيراً- بالرجل الذي أحبته، التقته في حديقة استوائية ترفرف فيها أشجار النخيل.

وطاف في خيالها مقطع شعري من أيام الطفولة:

كم ميلاً إلى بابل؟
إنها سبعون،
أأستطيع الوصول هناك على ضوء الشموع؟
نعم، والعودة ثانية أيضاً.

ولكنها لم تعد ثانية... كانت ما تزال في بابل. ربما لن تعود أبداً... هي وإدوارد في بابل!

سؤال ما أرادت طرحه على إدوارد... هناك في الحديقة. هي وإدوارد... تسأل إدوارد... ولكن السيدة كلايتون نادت... وقد طار ذلك من ذهنها... ولكنها ينبغي أن تتذكر... لأنه كان سؤالاً مهماً... لم يكن للأمر أي معنى. نخيل... إدوارد... آنا شيل... روبرت كروفتن لي... كل شيء غير طبيعي على نحو ما... لو استطاعت فقط أن تتذكر...

امرأة تأتي باتجاهها في ممر أحد الفنادق... امرأة في بدلة جيدة التفصيل... كانت هي نفسها... ولكن عندما اقتربت المرأة رأت أن الوجه وجه كاثرين. إدوارد وكاثرين... هراء! قالت لإدوارد: "تعال

معي، سنجد السيد لوفارج..."، وفجأة كان هناك، مرتدياً قفازات صفراء رقيقة بلون الليمون وله لحية صغيرة مدببة سوداء.

لقد ذهب إدوارد الآن وغدت وحيدة. ينبغي أن تعود من بابل قبل أن تنطفئ الشموع وندخل في الظلام.

مَن الذي قال ذلك؟ العنف... الرعب... الشر... دماء على سترة خاكية بالية. كانت تركض... تركض... في ممر أحد الفنادق... وكانوا يركضون خلفها.

ثم استيقظت فكتوريا لاهثة.

* * *

قالت السيدة كلايتون: قهوة؟ كيف تحبين البيض؟ مخفوقاً؟

- هذا رائع.

- تبدين شاحبة. هل تشعرين بمرض؟

- لا، ولكني لم أنم جيداً هذه الليلة. لا أدري لماذا، فالسرير مريح جداً.

- هل لكَ أن تفتح لنا المذياع يا جيرالد؟ إنه وقت نشرة الأخبار.

دخل إدوارد في نفس الوقت الذي كانت الأبواق تنطلق فيه لبدء نشرة الأخبار:

قدّم رئيس الوزراء ليلة أمس تفصيلات جديدة في مجلس العموم حول التخفيضات في المستوردات بالدولار.

أعلن تقرير من القاهرة أن جثة السير روبرت كروفتن لي قد انتُشِلت من النيل. (وضعت فكتوريا فنجانها بحدة على المائدة، فيما أطلقت السيدة كلايتون شهقة) وكان السير روبرت قد غادر فندقه بعد وصوله بالطائرة من بغداد ولم يعد إليه في تلك الليلة، وكانت قد مضت على فَقده أربع وعشرون ساعة عندما تم العثور على جثته، وقد نتجت الوفاة عن طعنة في القلب وليس عن الغرق. وقد كان السير روبرت جوالة مشهوراً، وقد عُرف برحلاته في الصين وبلوشستان، وقد ألّف عدة كتب.

هتفت السيدة كلايتون: لقد قُتل! أظن أن القاهرة أسوأ من أي مكان الآن. هل تعرف أي شيء عن هذا كله يا جيرالد؟

- عرفت أنه كان مفقوداً. يبدو أنه تلقى رسالة سُلِّمت له باليد فغادر الفندق بسرعة مشياً على الأقدام دون أن يقول إلى أين ذهب.

قالت فكتوريا لإدوارد بعد الإفطار عندما كانا بمفردهما: أرأيت؟ الأمر كله صحيح. بدأ الأمر بذلك الرجل، كارمايكل، والآن السير روبرت كروفتن لي. أشعر الآن بالأسف لأنني وصفته بالتبجح، فليس هذا من الأدب في شيء. كل الناس الذين يعرفون أو

يخمنّون شيئاً عن هذا الأمر الغريب تتم إزاحتهم عن الطريق. إدوارد، هل تظن أنني سأكون التالية على القائمة؟

- بالله عليك لا تُظهري مثل هذا السرور بالفكرة يا فكتوريا! إن إحساسك بالدراما قوي جداً. لا أرى سبباً يدفع أحداً لتصفيتك، لأنك لا تعرفين شيئاً... ولكن أرجوك، أرجوك، أن تكوني حريصة.

- سنكون حريصين نحن الاثنين، فلقد ورطْتك في الأمر.

- آه، لا بأس بذلك، فهو يخفف عليّ هذه الرتابة.

- نعم، ولكن انتبه لنفسك.

ثم ارتعدت فجأة وقالت: إنه أمر فظيع! لقد كان مليئاً بالحياة. أعني السير روبرت... وها قد مات الآن. إنه لأمر مخيف حقاً!

* * *

الفصل السادس عشر

سأل داكين: هل وجدتِ فتاك؟

أومأت فكتوريا بالإيجاب، فسألها: وهل وجدت شيئاً آخر؟

هزت فكتوريا رأسها نافية بشيء من الألم، فقال داكين: حسناً، هوّني عليك، وتذكري أن النتائج في هذه اللعبة قليلة وتأتي في فترات متباعدة. ربما كان بإمكانك التقاط شيء ما هناك... لا أحد يدري، ولكني لم أضع حساباتي على هذا الأساس أبداً.

- أأستطيع الاستمرار في المحاولة؟

- هل تريدين الاستمرار؟

- نعم، أريده. يظن إدوارد أن بوسعه الحصول على عمل لي في «غصن الزيتون»، ولو أبقيت عيني وأذني مفتوحة فربما عثرتُ على شيء، أليس كذلك؟ إنهم يعرفون شيئاً عن آنا شيل هناك.

- هذا أمر مثير يا فكتوريا، كيف عرفتِ ذلك؟

كررت فكتوريا ما قاله لها إدوارد... حول ملاحظة كاثرين التي

قالت فيها إنهم سيتلقون الأوامر من آنا شيل عند قدومها.

قال داكين: هذا أمر مثير تماماً.

- من هي آنا شيل؟ لا بد أنكم تعرفون شيئاً عنها... أم أنها مجرد اسم؟

- إنها السكرتيرة الخاصة لمصرفي أمريكي... رئيس مؤسسة مصرفية دولية. وقد غادرت نيويورك وجاءت إلى لندن قبل نحو عشرة أيام، ثم اختفت منذ ذلك التاريخ.

- اختفت؟ أتعني أنها ماتت؟

- إن كانت قد ماتت فإن جثتها لم يُعثَر عليها.

- ولكنها ربما تكون قد ماتت، أليس كذلك؟

- آه، بلى، ربما.

- هل كانت... قادمة إلى بغداد؟

- ليست لديّ فكرة عن ذلك. يبدو من ملاحظات هذه الشابة كاثرين أنها كانت قادمة. أو لنقل إنها جاءت بالفعل... إذ ليس لدينا حتى الآن سبب يدعونا للاعتقاد بأنها ماتت فعلاً.

- ربما استطعتُ معرفة المزيد في «غصن الزيتون».

- نعم، ربما استطعتِ... ولكن ينبغي أن أحذِّرك مرة أخرى بوجوب التزام الحذر التام يا فكتوريا. إن المنظمة التي تعملين ضدها

شرسة جداً ولا ترحم، ولا أرغب أبداً في رؤية جثتك طافية على نهر دجلة.

ارتعدت فكتوريا قليلاً وتمتمت: مثل السير روبرت كروفتن لي. أتعلم أنه في ذلك الصباح عندما كان موجوداً في الفندق هنا كان في حاله شيء غريب... شيء أدهشني. أتمنّى لو أستطيع تذكر طبيعة ذلك الشيء.

- ماذا تعنين بكلمة غريب؟

قالت: "أعني... مختلف"، ثم هزت رأسها بانزعاج جواباً على نظرته المتسائلة وقالت: ربما تذكرتُ لاحقاً، ولكن لا أظن ذلك مهماً على أية حال.

- كل شيء قد يكون مهماً.

- إن حصل لي إدوارد على وظيفة فإنه يرى أن عليّ العثور على غرفة أقيم فيها كالفتيات الأخريات.

- من شأن ذلك أن يثير شكوكاً أقل، كما أن فنادق بغداد غالية جداً. يبدو أن لفتاك عقلاً راجحاً.

- أتريد أن تراه؟

هز داكين رأسه نافياً بإصرار وقال: كلا، أخبريه أن يبقى بعيداً عني دوماً. من المؤسف أنك ستكونين موضع شبهة بسبب الظروف التي أحاطت بموت كارمايكل في تلك الليلة، ولكن لا يوجد أبداً ما يربط إدوارد بتلك الحادثة ولا بي أنا... ولهذا الأمر قيمة بالغة.

- كنت أنوي سؤالك عمّن طعن كارمايكل عملياً؟ أكان قاتله شخصاً تبعه إلى هنا؟

قال داكين ببطء: كلا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك.

- لا يمكن؟

- لقد جاء إلى هنا في «قفّة»، وهي نوع من القوارب الصغيرة المحلية، ولم يكن أحد يتبعه. إننا نعرف ذلك لأنني كلفت شخصاً بمراقبة النهر.

- إذن فقد كان القاتل شخصاً... من الفندق؟

- نعم يا فكتوريا، والأنكى أنه كان شخصاً من جناح محدد في الفندق... لأنني كنت -شخصياً- أراقب الدرج ولم يصعد أحد عبره.

راقب وجهها المتحير ثم قال بهدوء: هذا لا يعطينا كثيراً من أسماء المشتبه بهم؛ أنت وأنا والسيدة كارديو ترينتش وماركوس وأخواته، وبعض الخدم العجائز الذين خدموا هنا لسنوات طويلة... يمكن أن يكون القاتل أي واحد منهم. ومع ذلك فلا يُرجّح هذا لسبب وجيه جداً.

- ما هو؟

- لقد كان كارمايكل في أوج تيقظه وحذره... كان يعلم أن لحظة الذروة في مهمته تقترب، وكان رجلاً ذا غريزة حادة جداً في تحسس الخطر. كيف خذلته تلك الغريزة؟

بدأت فكتوريا تقول: عناصر الشرطة الذين جاؤوا...

فقاطعها داكين قائلاً: آه، ولكنهم جاؤوا فيما بعد... جاؤوا من الشارع. أحسب أنهم تلقوا إشارة ما، ولكنهم لم يقوموا بالطعن. لا بد أن الطعنة كانت على يد شخص يعرفه كارمايكل جيداً ويثق به، أو على يد شخص اعتبره كارمايكل بسيطاً لا يؤبه له. لو كنت أعرف فقط!

* * *

إن تحقيق إنجازٍ ما يجلب معه -عادةً- ذلك الإحساس بالارتخاء وتباطؤ الأحداث. لقد رأت فكتوريا في قدومها إلى بغداد وفي عثورها على إدوارد برنامجاً ساحراً، أما الآن وقد حصلت على مرادها فقد أصبحت تتساءل -في لحظات نادرة من مساءلة النفس- عمّا دفعها لفعل ما تفعله!

لقد كان لإدوارد -بطريقة أو بأخرى، بقوة التصميم المجردة أو بقوة الإقناع- دور أساسي في حصول فكتوريا على وظيفة بأجر زهيد في «غصن الزيتون»، وكانت تمضي جُلَّ وقتها في غرفة مظلمة يضيئها مصباح كهربائي وتطبع على آلة طابعة قديمة رسائل وملاحظات وبيانات حول البرنامج العاطفي الساذج لهذه المنظمة. كان إدوارد قد أحس بأن في المنظمة شيئاً غير طبيعي، وبدا أن السيد داكين يتفق مع وجهة النظر تلك. أما هي فقد كانت هنا لتكتشف ما تستطيعه، ولكن لم يوجد -بقدر ما تراه- ما يمكن اكتشافه! فقد كانت أنشطة «غصن الزيتون» غارقة في عسل السلام العالمي، وقد



تم عقد تجمعات عديدة قُدم فيها عصير الليمون ومعه أطعمة فظيعة، وكانَ يُفترَض بفكتوريا في تلك التجمعات أن تلعب دور المضيفة فتختلط بالحضور وتُعرّف الناس بعضهم ببعض وتعزز الشعور العام الجيد بين أشخاصٍ من جنسيات مختلفة كانوا يميلون إلى التحديق بعضهم إلى بعض بشيء من العدائية ويلتهمون ما لديهم من طعام وشراب.

كانت قد تركت فندق تيو وأخذت مكانها مع بعض العاملات الشابات في المنظمة من جنسيات مختلفة في بيت على الضفة الغربية للنهر. ومن بين أولئك الشابات كانت كاثرين، وبدا لفكتوريا أن كاثرين تراقبها بعين الريبة، ولكنها لم تستطع الجزم فيما إذا كان ذلك نتيجة لشك كاثرين في أنها (أي فكتوريا) جاسوسة أم أن المسألة تتعلق فقط بكسب عواطف إدوارد. كانت تميل إلى هذا الاحتمال الأخير؛ فقد كان معروفاً أن إدوارد هو الذي فاز بالوظيفة لفكتوريا، وقد رمقتها أعين كثيرة بشيء من الحسد والنفور.

ومع أن منظمة «غصن الزيتون» نفسها بدت بريئة تماماً، إلاّ أن فكتوريا أحست بشعور محدد بأن رئيسها ومؤسسها كان من صنف مختلف؛ فقد انتبهت -في مناسبة أو مناسبتين- لنظرة الدكتور راثبون المتأملة تستقر عليها، ومع أنها واجهت تلك النظرة بأكثر أساليبها براءة، إلاّ أنها شعرت بوخزة مفاجئة أشبه بالخوف. ومرةً سألها عندما استُدعيت إليه لشرح خطأ مطبعي: "أرجو أن تكوني سعيدة بالعمل معنا؟"، فقالت: "آه، نعم؛ سعيدة حقاً يا سيدي"، ثم أضافت قائلة: "إنني آسفة لأنني أرتكبُ كل هذه الأخطاء"، فقال: "نحن لا نأبه للأخطاء. لا فائدة لنا من آلة لا روح فيها؛ إننا نحتاج الشباب، نحتاج

سخاء النفس وسعة الأفق". وحاولت فكتوريا أن تبدو متلهفة سخية، فيما مضى الدكتور راثبون قائلاً: "ينبغي لك أن تحبي العمل... أن تحبي الموضوع الذي تعملين فيه وأن تتطلعي للمستقبل المجيد. اتحسين حقاً بكل ذلك يا طفلتي العزيزة؟".

تمتمت فكتوريا بعبارة موافقة من قبيل المجاملة واستدارت لتخرج، ثم تذكرت أنها نسيت الورقة المطبوعة فعادت ثانية، وقد أفزعتها قليلاً النظرة التي رأتها في عيني الدكتور راثبون. كانت نظرة حادة متشككة، وتساءلت -بكثير من عدم الارتياح- عن مقدار مراقبة الدكتور راثبون لها عن كثب وعن رأيه الحقيقي فيها.

كانت التعليمات التي تلقتها من السيد داكين محددة ودقيقة جداً؛ فقد كان يُفترَض بها أن تلتزم ببعض القواعد في الاتصال به إن كان لديها ما تريد إيصاله له، وفكرت -بمرارة- بأنها لم تجد حاجة لمثل هذا الإجراء حتى الآن. كان كل عملها هو القيام بوظيفة ذات أجر زهيد تؤديها دون اهتمام، ولم تكن ترى إدوارد إلاّ في فترات متباعدة، إذ أن الدكتور راثبون كثيراً ما كان يرسله إلى أماكن بعيدة نائية. وقد عاد لتوه الآن من رحلة إلى إيران. وخلال غيابه كانت قد أجرت لقاء واحداً وغير كافٍ مع داكين. كانت التعليمات التي تلقتها تقضي بأن تذهب إلى فندق تيو وتسأل إن كانت قد تركت خلفها سترة صوفية في الفندق. وبما أن الجواب كان بالنفي فقد ظهر ماركوس وقادها مباشرة إلى المصطبة المطلة على النهر لتناول الشاي. وخلال ذلك دخل داكين الفندق قادماً من الشارع كالمتسكع فلوّح له ماركوس ودعاه للانضمام إليهما. وفيما كان داكين يرتشف

كوبه سرعان ما تم استدعاء ماركوس لأمر ما، وظل الاثنان هناك متقابلين على المائدة الصغيرة.

وبشيء من الخشية اعترفت فكتوريا بأنها لم تنجح في مهمتها، ولكن داكين طمأنها بعطف قائلاً: يا طفلتي العزيزة، إنك لا تعرفين حتى ما تبحثين عنه، أو حتى إن كان يوجد ما يمكن العثور عليه هناك. ما هو انطباعك -عموماً- عن «غصن الزيتون»؟

قالت فكتوريا بتمهل: إنها منظمة غامضة تماماً.

- وماذا عن راثبون؟ أهو حقيقي صادق؟

- أظنه حقاً كذلك...

ولكن صوت فكتوريا كان يوحي بالشك، وقد فكرت قائلة لنفسها: نعم، الأمر كله يتركز حول راثبون. ففي أول لقاء لإدوارد معه قبل أسابيع في لندن كان الدكتور راثبون هو السبب في ملاحظات إدوارد الغامضة حول «الريبة» التي تحيط بهذا الأمر. وقررت -فجأة- أنه لا بد من وجود حدث معين أو كلمة معينة أيقظت ذلك التململ وعدم الارتياح لدى إدوارد؛ فهي ترى أن تلك هي الطريقة التي تعمل بها أذهان الناس. إن شكوك المرء الغامضة لا تكون عادة نتيجة إحساس غريزي، بل تكون دائماً نتيجة سبب معين. ولو أنها استطاعت الآن حمل إدوارد على العودة بتفكيره إلى الوراء والتذكر لأمكنهما معاً أن يقعا على الحقيقة أو الحادث الذي أثار شكوك إدوارد. وفكرت فكتوريا أن عليها -بنفس الطريقة- أن تحاول تذكّر ذلك الشيء الذي أدهشها إلى ذلك الحد عندما خرجت إلى الشرفة

في فندق تيو ووجدت السير روبرت كروفتن لي جالساً هناك في الشمس. صحيح أنها كانت تتوقع وجوده في السفارة وليس في فندق تيو، ولكن ذلك لم يكن كافياً لتفسير ذلك الشعور القوي الذي أحست به وجعلها ترى أن جلوسه هناك أمر غير واقعي أبداً! سوف تسترجع أحداث ذلك الصباح مرة بعد مرة، وينبغي أن يتم حثُّ إدوارد على استرجاع الفترة الأولى لارتباطه بالدكتور راثبون. سوف تقول له ذلك عندما تنفرد به في المرة القادمة، ولكن لم يكن من السهل الانفراد به أبداً. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: لقد كان من الأفضل لي -لقلة رؤيتي لإدوارد- لو بقيت في إنكلترا!

ولكن سرعان ما ثبت -بعد وقت قصير جداً- أن ذلك لم يكن صحيحاً؛ فقد جاء إليها إدوارد حاملاً بعض الأوراق وقال: يرغب الدكتور راثبون بطباعة هذه الأوراق فوراً من فضلك يا فكتوريا. انتبهي بشكل خاص للصفحة الثانية، ففيها أسماء عربية ربما كانت صعبة بعض الشيء.

تنهدت فكتوريا وأدخلت ورقة في الآلة الطابعة وشرعت تطبع بأسلوبها السريع المعتاد. لم يكن خط الدكتور راثبون صعب القراءة كثيراً، وكانت تهنئ نفسها لأنها ارتكبت من الأخطاء عدداً أقل مما ترتكبه عادة. نحَّتْ جانباً الورقة الأولى ومضت لطباعة الثانية... وأدركت على الفور معنى أمر إدوارد لها بالانتباه لهذه الصفحة؛ فقد كانت هناك ملاحظة صغيرة أرفقها إدوارد في رأس الورقة الثانية: "اذهبي في نزهة على الأقدام على طول ضفة دجلة خلف بيت ملك علي في نحو الحادية عشرة من صباح غد".

كان اليوم التالي يوم جمعة، يوم العطلة الأسبوعية، وقد ارتفعت معنويات فكتوريا بشكل هائل. سترتدي سترتها الخضراء، كما أن عليها أن تغسل شعرها. إن مرافق البيت الذي تسكنه تجعل من الصعب عليها أن تغسل شعرها بنفسها. تمتمت بصوت عالٍ: وهو بحاجة للغسل فعلاً.

رفعت كاثرين رأسها بارتياب (وكانت تعمل في كومة من البيانات والمغلفات) وقالت من مكانها على المكتب الآخر: ماذا قلتِ؟

سارعت فكتوريا إلى تكوير قصاصة الورق التي كتبها إدوارد وقالت بشكل عادي: شعري بحاجة إلى غسل ولا أدري أين أذهب.

- إنني أعرف فتاة أرمنية تغسل الشعر بشكل جيد ومناشفها نظيفة. سآخذك إليها.

- هذا لطف بالغ منك يا كاثرين.

- سنذهب غداً؛ فهو عطلة.

- كلا، ليس غداً.

- لماذا؟

وقعت عليها نظرة ارتياب، وشعرت فكتوريا بازدياد ضيقها وكراهيتها لكاثرين. قالت: "أفضّلُ الخروج في نزهة على الأقدام... لاستنشاق بعض الهواء؛ فالمرء محصور كثيراً هنا". ثم طبعت سطراً بسرعة فائقة... ثم ما لبثت أن انزعجت إذ وجدت أنها داست المفتاح

الخطأ فكتبت سطراً كاملاً من إشارات التعجب والأرقام والأقواس. أخرجت الورقة من الآلة واستبدلت بها ورقة جديدة وانكبّت على عملها حتى أنجزته وأخذته للدكتور راثبون.

ألقى الدكتور نظرة على الأوراق وتمتم قائلاً: "شيراز في إيران وليست في العراق... كما أنك أخطأت في تهجئة كلمة العراق... وهذه المدينة اسمها واسط وليس وسط... شكراً لك يا فكتوريا". ثم عاد فناداها وهي تغادر الغرفة وقال: فكتوريا، هل أنت سعيدة هنا؟

- آه، نعم يا دكتور راثبون.

كانت عيناه السوداوان تحت حاجبيه الكثين مركزتين تبحثان. شعرت بالاضطراب يتصاعد لديها. قال: أخشى أننا لا ندفع لك الكثير.

- هذا لا يهم؛ إنني أحب العمل.

- أتحبينه حقاً؟

- آه، نعم. يشعر المرء أن هذا النوع من النشاط قيِّمٌ فعلاً.

- يوجد نقص هذه الأيام في طابعات الاختزال في بغداد. أظن أنني قادر على العثور لك على موقع أفضل من موقعك هنا.

- ولكنني لا أريد أي موقع آخر.

- ربما كان من الحكمة أن تأخذي موقعاً آخر.

- الحكمة؟

ارتعدت فكتوريا قليلاً.

- نعم، هذا ما قلته. مجرد كلمة تحذير... ونصيحة.

كان في نبرته شيء ينذر قليلاً بالخطر. فتحت فكتوريا عينيها أوسع من ذي قبل وقالت: إنني لا أفهم حقاً يا دكتور راثبون.

- أحياناً يكون من الأحكم للمرء أن لا يورط نفسه في أمور لا يفهمها.

شعرت بأنها واثقة تماماً من وجود الخطر هذه المرة، ولكنها استمرت في التحديق به بعينين بريئتين كقطة صغيرة. سألها: لماذا جئت للعمل هنا يا فكتوريا؟ من أجل إدوارد؟

تورد وجهها غضباً وقالت بسخط: كلا بالطبع.

أومأ الدكتور راثبون برأسه وقال: إن أمام إدوارد طريقاً طويلاً، وستمضي سنوات كثيرة جداً قبل أن يصبح في موقع يمكن معه أن يكون ذا فائدة لك. لو كنت مكانك لكففت عن التفكير به. كما يمكنك الحصول على وظائف جيدة حالياً كما قلت لك، مع راتب جيد ومستقبل واعد... وهي وظائف تجعلك وسط أناس من نوعيتك.

رأت فكتوريا أنه كان يراقبها حتى الآن. أكان هذا اختباراً؟ قالت متظاهرة باللهفة: ولكنني مولعة حقاً بالعمل في «غصن الزيتون» يا دكتور راثبون.

رفع كتفيه بلامبالاة، وخرجت من عنده، ولكنها كانت تشعر بعينيه مركزة على ظهرها وهي تغادر الغرفة. لقد أثارت هذه المقابلة شيئاً من الاضطراب عندها. هل حدث شيء أثار شكوكه؟ هل خمَّن أنها قد تكون جاسوسة دُسَّتْ في منظمة «غصن الزيتون» لكشف أسرارها؟ لقد جعلها صوتُه وأسلوبه تشعر بخوف كريه. وقد أغضبتها ملاحظته بأنها قد جاءت لتكون بقرب إدوارد وأنكرتها بقوة، ولكنها أدركت الآن أن ظن الدكتور راثبون أنها جاءت إلى هذا المكان من أجل إدوارد أسلم وآمن بكثير من شكه أن لداكين علاقة بهذا الأمر. وعلى أية حال، ربما اعتقد الدكتور راثبون فعلاً أن سبب مجيئها هو إدوارد، وذلك بسبب الخجل الغبي الذي بدا عليها... وهكذا يكون كل شيء قد انتهى على أفضل حال.

ومع ذلك كله فقد أوت في تلك الليلة إلى فراشها وفي قلبها غصة خوف صغيرة مقيتة.

* * *

الفصل السابع عشر

ثبت -في اليوم التالي- أن من السهل تماماً على فكتوريا أن تخرج بمفردها بعد التزود ببعض الإيضاحات. كانت قد استفسرت عن بيت الملك علي وعلمت أنه بيت ضخم مبني على النهر تماماً في مكان قريب عند الضفة الغربية منه.

لم يكن قد أتيح لفكتوريا -حتى ذلك اليوم- من الوقت ما يسمح لها باكتشاف ما حولها من مناطق، ولذلك فقد أحست بدهشة فرحة عندما وصلت إلى آخر الشارع الضيق ووجدت نفسها عند ضفة النهر. استدارت يميناً ومشت ببطء على طول حافة الضفة، ولم يكن سيرها يخلو من بعض الخطورة أحياناً، فقد تآكلت الضفة في بعض المواضع ولم يتم إصلاحها أو بناؤها. وكان لأحد البيوت درج أمامه ينحدر نزولاً بحيث يجد المرء نفسه في النهر إذا ما بالغ في نزوله في ليلة مظلمة. نظرت فكتوريا إلى الماء أسفل منها، ثم انعطفت مع حافة النهر، ثم ما لبث الطريق أن أصبح واسعاً ومعبّداً، ورأت أن للبيوت على يمينها ما يمنح شعوراً لطيفاً بالغموض بحيث لا تفصح عن طبيعة أو هوية ساكنيها. ثم وصلت بعد ذلك إلى حدائق نخيل كثيفة، وعلى يسارها كانت قد مرّت بدرج غير مستوٍ يفضي

نزولاً إلى النهر، فيما جلس عربي في قاربه البدائي وأخذ يشير بيديه وينادي، وحسبت أنه يريد سؤالها إن كانت تريد عبور النهر. وقدّرت فكتوريا أنها قد أصبحت الآن -دون شك- مقابل فندق تيو، رغم أنه كان من الصعب تمييز الفوارق في الأساليب المعمارية من هذا الجانب من النهر حيث بدت مباني الفنادق شبيهةً بعضها ببعض. بعد ذلك وصلت إلى طريق يخترق أشجار النخيل ويُفضي إلى بيتين عاليين لكل منهما شرفة عالية، وخلف البيتين كان هناك بيت ضخم مبني بحيث يطل على النهر تماماً وله حديقة مسيجة، وكان الطريق المحاذي لضفة النهر يعبر إلى داخل البيت الذي كان بيت الملك علي بالتأكيد.

وبعد بضع دقائق كانت فكتوريا قد عبرت مدخله ووصلت إلى طريق يبتعد عن النهر وقفت عنده سيارة. كانت سيارة خربة قديمة بعض الشيء، وبجانبها وقف إدوارد الذي بادرها قائلاً: جيد، لقد وصلتِ... اصعدي.

سألته فكتوريا وهي تدخل السيارة القديمة فرحةً: أين سنذهب؟

التفت إليها السائق الذي بدا كومةً من الثياب الرثة تدب فيها الحياة وابتسم لها بفرح. قال إدوارد: سنذهب إلى بابل. لقد آن لنا أن نتمتع بيوم عطلة.

انطلقت السيارة برجفة عنيفة وأخذت تخبط بجنون على الطريق المرصوفة بحجارة ناتئة. صاحت فكتوريا: إلى بابل؟ ما أجمل ذلك. حقاً إلى بابل؟

انعطفت السيارة يساراً ومضى الركب على طريق معبدة جيدة وواسعة، فيما قال إدوارد: نعم، ولكن لا تتوقعي الكثير. إن بابل لم تعد كما كانت من قبل، إن كنتِ تفهمينني.

لم يكن الطريق الواسع (الذي بدا معبداً بشكل جيد) بمستوى الآمال التي عُقدت عليه؛ فرُغم أنه ما زال واسعاً إلا أنه قد أصبح الآن مليئاً بالحفر وآثار العجلات. صاح إدوارد: سيغدو أسوأ فيما بعد.

وفيما كانت أجسامهم تهتز بسعادة مع اهتزاز السيارة ارتفع الغبار سحباً حولهم، وجاءت شاحنات مليئة بالناس فتجاوزت سيارتهم بسرعة وقوة، غير آبهة لكل التحذيرات التي أطلقها بوق السيارة. وبعد ذلك عبر الموكب حدائق مسيجة، ومجموعات من النساء والأطفال والحمير، وكان ذلك كله جديداً على فكتوريا وجزءاً من سحر الرحلة إلى بابل وإدوارد إلى جانبها.

وصلوا إلى بابل في غضون ساعتين وقد نالت منهم الرضوض. وقد خاب أمل فكتوريا قليلاً برؤية أكوام لا معنى لها من الطين الخرب والآجرّ المعالج بالنار؛ فقد كانت تتوقع شيئاً من قبيل الأعمدة والأقواس التي رأتها في صور لمدينة بعلبك. ولكن -شيئاً فشيئاً- بدأت خيبة أملها تتراجع وهما يمشيان خلف دليلهما السياحي بصعوبة فوق أكوام من الآجر المشوي. أصغت بأذن واحدة فقط لشروحاته المسهبة، وعندما مضى الثلاثة في طريق الموكب إلى بوابة عشتار، مع ما تبعثه صور الحيوانات المحفورة عالياً على الجدران من ارتياح، أحست فكتوريا -فجأة- بعظمة الماضي تسيطر عليها، مع رغبة بمعرفة شيء عن هذه المدينة الواسعة الشامخة التي تتمدد

الآن ميتة مهجورة. وعندما انتهت الجولة على الآثار جلس الاثنان قرب أسد بابل ليتناولا طعام الرحلة الذي جاء به إدوارد، أما الدليل فقد ابتعد وهو يبتسم بمحبة ويخبرهما -بكل تشديد- بوجوب رؤيتهما المتحف فيما بعد.

قالت فكتوريا كالحالمة: أيجب علينا رؤية المتحف؟ إن التحف المحفوظة بالعلب مع شروحاتها لا تبدو لي حقيقية أبداً لسبب ما. لقد ذهبت مرة إلى المتحف البريطاني، وكانت تلك التجربة فظيعة ومتعبة جداً لطول الوقوف على القدمين.

- الماضي ممل دوماً... المستقبل أهم بكثير منه.

قالت فكتوريا وهي تشير بشطيرتها باتجاه منظر عام للآجر المكوَّم: إنه ليس مملاً؛ فهو يثير إحساساً بالـ... بالعظمة. أكنتَ تحب لو كنت ملكاً لبابل يا إدوارد؟

سحب إدوارد نفساً عميقاً وقال: نعم، كنت سأحب ذلك. لقد كان الشاعر مِلتون محقاً تماماً؛ «أن تحكم في جهنم أفضل من أن تخدم في الجنة».

- وعندئذ ستنسى كل شيء عني!

- يا طفلتي المسكينة! ثقي أن قلبي سيظلّ معلقاً بطابعة لندنية صغيرة لا تستطيع تهجئة أية كلمة طويلة.

قطبت فكتوريا جبينها فجأة؛ فقد أعادت كلمات إدوارد إلى ذهنها تلك المقابلة الغريبة لها مع الدكتور راثبون. قصت عليه قصة

المقابلة، فبدا أكثر انزعاجاً لذلك مما توقعت وقال: هذا أمر خطير يا فكتوريا، خطير حقاً. حاولي أن تذكري لي ما قاله بالضبط.

حاولت فكتوريا جهدها لتستعيد الكلمات نفسها التي استخدمها رائبون، ثم قالت: ولكنني لا أفهم لماذا أزعجك الأمر إلى هذا الحد.

بدا إدوارد شارداً وهو يقول: ماذا؟ لا تفهمين؟ يا فتاتي العزيزة، ألا تدركين أن ذلك يعني أنهم انتبهوا لك. إنهم يحذرونك لضرورة الابتعاد عن طريقهم. إنني غير مرتاح لذلك يا فكتوريا... غير مرتاح أبداً، ولا أريد رؤيتك وقد ضُرب رأسك وأُلقيتِ في دجلة يا عزيزتي.

وفكرت فكتوريا كم هو غريب أن يكونا جالسَين وسط آثار بابل يتناقشان فيما إذا كان من المحتمل أن يتم قريباً ضربها على رأسها وإلقاؤها في دجلة. وفكرت -حالمةً- وعيناها شبه مغمضتين قائلة لنفسها: "لن ألبث أن أصحو لأجد نفسي في لندن أحلم حلماً ميلودراميا رائعاً حول بابل الخطيرة". ثم أغمضت عينيها كلياً وفكرت قائلة لنفسها: ربما كنت الآن في لندن، ولن يلبث المنبه أن يرنّ قريباً لأنهض وأذهب إلى مكتب السيد غرينهولتز...

وعند تلك الفكرة الأخيرة فتحت عينيها ثانية بسرعة لتتأكد من أن إدوارد موجود قربها بالفعل (وما هو ذلك السؤال الذي أردت طرحه عليه في البصرة عندما قاطعونا فنسيت السؤال؟). لم يكن ذلك حلماً. كانت الشمس تشعّ بقوة تبهر الأبصار بطريقة أبعد ما تكون عن شمس لندن، وكانت آثار بابل باهتة تحت أشعة الشمس، وفي

خلفية المشهد انتصبت أشجار النخيل بلونها الداكن، وبجانبها جلس إدوارد وظهره يكاد يكون باتجاهها. كم هو رائع شعره الذي ينمو ليلتف قليلاً عند رقبته، ويا لها من رقبة جميلة وقد اسمرّتْ واكتسبت اللون البرونزي من الشمس... رقبة لا يشوبها أي عيب أو أثر. إن لكثير من الرجال رقاباً تحمل دمامل وبثوراً في موضع احتكاك ياقات قمصانهم... كرقبة السير روبرت -مثلاً- المصابة بدُمّلة بدأت تنتفخ لتوها.

فجأة انتصبت فكتوريا في جلستها وقد كتمت صيحة كادت تخرج من فمها، وأصبحت أحلام اليقظة في خبر كان. كانت شديدة الانفعال. وقد التفت إدوارد متسائلاً وقال: ما الأمر؟

- لقد تذكرتُ لتوي... بخصوص السير روبرت كروفتن لي.

وفيما ظل إدوارد ينظر إليها نظرة تساؤل، مضت فكتوريا لتشرح ما تعنيه، والحقيقة أنها لم تتمكن من شرح قصدها بكثير من الوضوح. قالت: لقد كانت دُمّلة... على رقبته.

قال إدوارد وقد أخذته الحيرة: دُمّلة على رقبته؟

- نعم، في الطائرة؛ فقد جلس أمامي، وقد سقط غطاء الرأس الملحق بردائه إلى الخلف فرأيتها... أعني الدُمّلة.

- ولماذا لا تكون له دملة؟ إنها مؤلمة، ولكنها موجودة لدى الكثير من الناس.

- نعم، موجودة بالطبع. ولكن النقطة هي أنه في ذلك الصباح على الشرفة لم تكن له.

- لم يكن له ماذا؟

- لم تكن له دُمّلة. آه، حاول يا إدوارد أن تفهم الموضوع. كانت له في الطائرة دملة، وفي فندق تيو لم تكن له دملة. كانت رقبته صحيحة تماماً ليس فيها أي أثر... كرقبتك الآن.

- حسناً، أحسبها قد شُفيت.

- آه، لا يا إدوارد. هذا غير ممكن؛ لم يكن ذلك إلاّ بعد يوم واحد، وكانت الدملة قد بدأت تنتفخ لتوها في اليوم السابق. لم يكن ممكناً أن تشفى بهذه السرعة ودون ترك أي أثر. أترى ما الذي يعنيه ذلك؟ نعم، لا بد أن يعني أمراً واحداً... وهو أن الرجل الذي كان في فندق تيو لم يكن السير روبرت أبداً.

ثم أومأت برأسها بحماسة، فيما نظر إدوارد إليها وقال: أنت مجنونة يا فكتوريا، لا بد أنه كان السير روبرت؛ أنت لم تري أي فارق آخر لديه.

- افهمني يا إدوارد؛ فأنا لم يُتَحْ لي أبداً النظر إليه بشكل صحيح. لم أنظر إلاّ إلى... إلى الأثر العام لمظهره. القبعة... والرداء الواسع... وموقفه المتبجح المغرور. إنه رجل من السهل جداً تمثيل شخصيته وانتحالها.

- ولكن كان من شأنهم أن يعرفوا ذلك في السفارة...

- ولكنه لم يُقِم في السفارة، أليس كذلك؟ بل جاء إلى فندق تيو. وكان الذي استقبله أحد الموظفين الصغار؛ فالسفير في إنكلترا.

- ولكن لماذا؟

- بسبب كارمايكل طبعاً. كان كارمايكل قادماً إلى بغداد لمقابلته... لكي يخبره بما اكتشفه. إلاّ أنهما لم يلتقيا من قبل، ولذلك لم يكن من شأن كارمايكل أن يعرف بأنه ليس الرجل الصحيح... ولن يكون حذراً بما فيه الكفاية. وبالطبع فإن السير روبرت الزائف هو الذي طعن كارمايكل! آه، يا إدوارد... هذا يوضح كل شيء!

- إنني لا أصدق حرفاً من ذلك. هذا جنون. لا تنسي أن السير روبرت قد قُتل في القاهرة فيما بعد.

- نعم، وقد جرى الأمر كله هناك. إنني أعرف الآن. آه، ما أفظع ذلك يا إدوارد! لقد رأيت ذلك يحدث.

- رأيتِه يحدث؟ هل جُننتِ يا فكتوريا؟

- لا؛ إنني أبعد ما أكون عن الجنون. اسمعني فقط يا إدوارد. لقد حدث طرق على باب غرفتي... في الفندق في القاهرة. أو أنني ظننت -على الأقل- أنه بابي، ففتحت الباب وأطللت منه، ولكن الطرق لم يكن على بابي بل على الباب المجاور، باب السير روبرت كروفتن لي. كان الطارق إحدى المضيفات أو الخادمات أو سمِّهِنّ ما شئت. سألَتْه إن كان بوسعه الحضور إلى مكتب شركة الطيران... في نهاية الممر. وقد خرجتُ من غرفتي بعد ذلك تماماً وعبرتُ باباً عليه لافتة تشير إلى أنه مكتب الطيران، ثم انفتح الباب وخرج السير روبرت منه. فكرت -وقتها- أنه ربما تلقى خبراً جعله يمشي بشكل مختلف. أتفهمني يا إدوارد؟ لقد كان ذلك فخاً، وكان البديل ينتظر

جاهزاً، وبمجرد أن دخل الغرفة ضربوه على رأسه وخرج الآخر ليمثل دوره، وأحسب أنهم ربما احتفظوا به في مكان ما في القاهرة وذلك بتخديره طوال الوقت، ثم قتلوه في اللحظة المناسبة عندما عاد الرجل الآخر إلى القاهرة.

- إنها قصة رائعة، ولكن الصراحة -يا فكتوريا- أنك تخترعين ذلك كله. لا يوجد ما يدعم ذلك.

- الدملة...

- آه، تباً للدملة!

- وبعض الأمور الأخرى.

- ما هي؟

- لافتة مكتب الطيران على الباب. لم تعد موجودة هناك فيما بعد. لقد تذكّرتُ أنني احترت عندما وجدت مكتب الطيران في الجانب الآخر من قاعة الدخول. هذا أمر، ويوجد أمر آخر؛ تلك المضيفة التي قرعت بابه. لقد رأيتها بعد ذلك... هنا في بغداد... والأنكى أنني رأيتها في «غصن الزيتون» في أول يوم ذهبت فيه هناك. فقد دخلَتْ وتحدثت مع كاثرين، وفكرت يومها بأنني رأيتها من قبل.

ثم سكتت لحظة وقالت: وهكذا ينبغي أن تعترف -يا إدوارد- أن الأمر ليس خيالاً مني.

قال إدوارد ببطء: كل الأمور تعود لتصب في «غصن الزيتون»!

- ماذا عن السيد داكين؟ أينبغي عليّ إخباره بهذا؟

- نعم، بالطبع. ولكن انتظري يوماً أو يومين؛ فربما توفرت لدينا معلومات إضافية نسير على هديها.

* * *

بعد أن تحمست فكتوريا (نتيجةً مكتشفاتها) لم تجد صعوبة في اليوم التالي في تحية كاثرين بفيض من الود. قالت إنه لمن شديد اللطف من كاثرين أنها دلتها على مكان تغسل شعرها فيه؛ فشعرها بأمسّ الحاجة إلى الغسل (وكان هذا صحيحاً تماماً؛ فقد عادت من بابل وقد أصبح شعرها الأسود بلون الصدأ الأحمر ممّا علق به من رمال).

قالت كاثرين وهي تنظر إلى شعر فكتوريا بشيء من الرضا المتشفي: نعم، إنه يبدو فظيعاً، أوَقد خرجتِ -إذن- في تلك الزويبعة الرملية بعد ظهر أمس؟

- لقد استأجرت سيارة وذهبت لرؤية بابل. كانت رحلة مثيرة جداً، ولكن الزويبعة اشتدت في طريق العودة حتى كادت تخنقني وتعميني.

- بابل ممتعة، ولكن عليك الذهاب إليها مع شخص يفهمها ويمكنه أن يحدثك عنها بشكل جيد. أما بالنسبة لشعرك فسآخذك الليلة إلى تلك الفتاة الأرمنية، وسوف تغسله لك بغسول من أفضل الأنواع.

وعندما غادرتا «غصن الزيتون» في تلك الأمسية كانت الفتاتان على أحسن ما تكون الصداقة. دخلت كاثرين وخرجت في العديد من الأزقة الضيقة، ثم طرقت -أخيراً- على باب متواضع ليس عليه ما يدل على أن عمليات تجميل أو تصفيف شعر تتم خلفه. ومع ذلك فقد استقبلتهما شابة دميمة تبدو عليها الكفاءة وتتكلم إنكليزية بطيئة متأنية وقامت باقتياد فكتوريا إلى مغسلة نظيفة جداً تلتمع حنفياتها وتنتشر حولها زجاجات مختلفة من غسول الشعر ومليّناته. ثم غادرت كاثرين وسلمت فكتوريا رأسها لِيدَيْ الآنسة أنكوميان الماهرتين، وسرعان ما غدا شعرها كتلة من الرغوة الكثيفة.

- والآن، انحني إذا سمحتِ...

انحنت فكتوريا فوق المغسلة، وانهمر الماء فوق شعرها وغرغر نزولاً في ماسورة المياه. وفجأة داهمت أنفها رائحة زكية ولكنها تبعث على الغثيان، وذكّرتها الرائحة بالمستشفيات بشكل ما. كانت لفافة مبللة من القماش تُطبق بقوة على أنفها وفمها، وصارعت بكل قوتها وهي تتلوى وتستدير، ولكن القبضة الحديدية أبقت على الكمامة في مكانها. بدأت تختنق، ودار رأسها، وطرق سمعها صوت هادر... وبعد ذلك سادت العتمة، عميقة ثقيلة.

* * *

الفصل الثامن عشر

عندما استعادت فكتوريا وعيها شعرت بمرور وقت طويل جداً. هاجت في ذهنها ذكرياتٌ مضطربة... اهتزاز جسمها في سيارة... أحاديث عالية ومشاجرات باللغة العربية... أضواء تومض في عينيها... نوبة غثيان فظيعة. ثم تذكرت -على نحو غامض- تمدّدها على سرير وأحدهم وهو يرفع ذراعها والوخزة المؤلمة للإبرة، ثم المزيد من الأحلام المضطربة والعتمة، وخلف ذلك إحساس متعاظم بالعجلة التي تصاحب حالة الطوارئ.

أما الآن فقد أحست أخيراً -على نحو غائم- بأنها هي نفسها من جديد... فكتوريا جونز. وقد حدث لها شيءٌ ما، منذ وقت طويل طويل... منذ أشهر، وربما منذ سنوات... وربما كان ذلك منذ أيام فقط.

بابل... أشعة الشمس... الغبار... الشعر... كاثرين. كاثرين بالطبع، وهي تبتسم بعينيها الماكرتين. لقد أخذتها كاثرين لكي تغسل شعرها، وبعدها... ما الذي حدث؟ تلك الرائحة الفظيعة المقززة... الكلوروفورم بالطبع. لقد خدروها بالكلوروفورم وأخذوها... إلى أين؟

حاولت فكتوريا الجلوس بحذر. بدا أنها نائمة على سرير... سرير قاسٍ جداً. كان رأسها يؤلمها وتشعر بالدوار، كما أنها ما تزال تحس بالنعاس، بنعاس فظيع... تلك الوخزة، وخزة الإبرة. لقد كانوا يخدرونها... كانت ما تزال نصف مخدرة.

حسناً، إنهم لم يقتلوها على أية حال (لماذا؟...). هذا أمر حسن على الأقل. وفكرت فكتوريا نصف المخدرة بأن أفضل شيء هو العودة للنوم، وسرعان ما فعلت ذلك.

عندما أفاقت مرة أخرى شعرت أن ذهنها أكثر صفاء. كان الوقت نهاراً الآن، وكان بمقدورها أن ترى أين هي. كانت في غرفة صغيرة ولكن سقفها عالٍ جداً وقد طُليت بطلاء أزرق شاحب يبعث الضيق في النفس، وكانت أرضيتها من الطين المرصوص، وبدا أن الأثاث الموجود يقتصر على السرير الذي تنام عليه، وقد أُلقيت بطانية قذرة عليها، وثمة طاولة مخلّعة عليها طست صيني سقط طلاؤه، وتحتها سطل نحاسي، وكانت على الجدار نافذة عليها من الخارج شبك خشبي.

نهضت فكتوريا مترنحةً عن سريرها وهي تشعر بصداع شديد وحالة غريبة وتقدمت من النافذة، وكان بوسعها أن ترى بوضوح من خلال الشبك الخشبي حديقة تنتصب خلفها أشجار النخيل. كانت الحديقة جميلة بالمقاييس الشرقية، مع أن من شأن ملاّك إنكليزي أن ينظر إليها باستخفاف. كان فيها الكثير من أشجار البرتقال، وبعض أشجار الكاليبتوس التي يعلوها الغبار، وشجيرات أخرى ذابلة بعض

الشيء. وكان ثمة طفل يلعب بكرة وذراعه مليئة بالأربطة، وهو يغني بصوت عال يخرج من أنفه ليغدو منتحباً كموسيقى القِرَب.

صرفت فكتوريا انتباهها بعد ذلك إلى الباب الذي كان ضخماً ثقيلاً. ذهبت إليه دون كبير أملٍ وعالجته، فوجدته مقفلاً، فعادت وجلست على طرف السرير. ترى أين هي؟ من المؤكد أنها ليست في بغداد. وما الذي ستفعله الآن؟

لفت انتباهها -بعد لحظات- أن سؤالها الأخير هذا لا معنى له في الواقع؛ فالأحرى أن تسأل نفسها ما الذي سيفعله الآخرون بها؟ وتذكرت -وقد انتابها إحساس مزعج في قمة معدتها- نصيحة السيد داكين لها بأن تقول كل ما تعرفه. ولكن ربما كانوا قد حصلوا منها على كل ذلك وهي مخدرة.

ومع ذلك عادت فكتوريا إلى تلك النقطة بفرح مقصود... فكرة أنها ما تزال حية. فإن استطاعت أن تبقى على قيد الحياة حتى يجدها إدوارد... ماذا سيفعل إدوارد عندما يكتشف أنها اختفت؟ هل سيذهب إلى السيد داكين؟ هل سيتصرف بمفرده؟ هل سيخيف كاثرين ويجبرها على الكلام؟ هل سيشك بكاثرين أصلاً؟ ومع ازدياد محاولات فكتوريا لتخيل صورة مُطَمْئنة لإدوارد في حالة التصرف والمبادرة كانت صورة إدوارد تتلاشى شيئاً فشيئاً لتصبح أقرب إلى تجريد لا ملامح له. ما مدى ذكاء إدوارد؟ هذا هو حقاً لب القضية؛ فقد كان إدوارد محبوباً وذا سحر، ولكن هل يمتلك عقلاً راجحاً؟ ذلك أن من الواضح أنها ستحتاج العقل في محنتها الحالية.

من شأن السيد داكين أن يمتلك عقلاً راجحاً، ولكن هل

ستتوفر لديه الحماسة؟ أم أنه سيكتفي بشطب اسمها من دفتر عقله؟ أو يكتب أمام اسمها بخط منمنم «رحمها الله»؟ فهي بالنسبة للسيد داكين لا تعدو أن تكون -في نهاية الأمر- واحدة من آلاف غيرها. يجازفون فإن خانهم الحظ لا يُعتبر ذلك إلاّ من سوء طالعهم. كلا، لم تستطع تصور السيد داكين يقوم بعملية إنقاذ، فلقد حذّرها على أية حال.

كما أن الدكتور راثبون قد حذرها أيضاً (هل حذرها أم هددها؟...)، وحين رفضت الخضوع للتهديد لم يتأخر كثيراً تنفيذ التهديد! كررت فكتوريا مع نفسها بإصرار على رؤية الجانب الإيجابي من الأمور: "ولكنني ما أزال حية".

اقترب صوتُ خطىً في الخارج، ثم جاء صوت إدارة المفتاح في قفل صدئ. أصدر الباب صريراً من مفاصله وانفتح، وفي فتحته ظهر رجل عربي يحمل صينية قديمة من التنك عليها أطباق. وقد بدا الرجل في مزاج جيد؛ فقد ابتسم ابتسامة عريضة ونطق ببعض العبارات غير المفهومة باللغة العربية، وأخيراً وضع الصينية وفتح فمه وأشار إلى مجرى الطعام في صدره وغادر الغرفة بعد أن أقفل الباب خلفه من جديد.

اقتربت فكتوريا من الصينية باهتمام، فوجدت طبقاً كبيراً من الأرز، وشيئاً أشبه بأوراق الكرنب الملفوفة، ورغيف خبز عربياً كبيراً. وكان على الصينية أيضاً إبريق ماء وكأس.

بدأت فكتوريا بشرب كأس كبير من الماء، ثم شرعت بالأرز، ثم الخبز، ثم أوراق الملفوف التي كانت مليئة بلحم مفروم ذي

طعم غريب بعض الشيء. وعندما أنهت كل ما في الصينية شعرت بتحسن كبير.

حاولت جهدها لتفكر بالأمور بوضوح. لقد تم تخديرها بالكلوروفورم واختطافها. منذ متى حدث ذلك؟ لم تكن واثقة أبداً من الإجابة على هذا السؤال، ولكنها خمّنت -من تكرار نومها وصحوها- أن ذلك كان منذ عدة أيام. وقد تم إخراجها من بغداد... إلى أين؟ وهنا -أيضاً- لم تكن لديها وسيلة لمعرفة الإجابة. وبسبب جهلها اللغة العربية لم يكن بمقدورها حتى طرح أسئلة. لم تستطع العثور على مكان أو اسم أو تاريخ.

تبعت ذلك عدة ساعات من الملل القاتل. وفي ذلك المساء ظهر حارسها مرة أخرى ومعه صينية طعام، وقد جاءت معه -هذه المرة- امرأتان، كانتا ترتديان ملابس سوداء وتخفيان وجهيهما. لم تدخلا الغرفة، بل بقيتا خارج الباب مباشرة، وكانت إحداهما تحمل طفلاً بين ذراعيها. وقفتا هناك تضحكان ضحكاً مكتوماً، فلقد كان وجود امرأة أوروبية مسجونة هنا أمراً مثيراً بالنسبة إليهما.

تكلمت فكتوريا معهما بالإنكليزية والفرنسية، ولكنها لم تلق جواباً إلاّ الضحك المكتوم، ورأت أن من الغريب أن لا تستطيع التفاهم مع بنات جنسها. قالت ببطء وصعوبة إحدى العبارات التي سبق وتعلمتها: **الحمد لله**.

وقد كوفئت على لفظها لهذه العبارة بسيل فرح من الكلام العربي؛ فقد أومأت المرأتان برأسيهما بقوة. وتحركت فكتوريا نحوهما، ولكن الخادم العربي (أو كائناً ما كانت صفته) سارع إلى

سد الطريق عليها، ثم أمر المرأتين بالتراجع وخرج هو أيضاً وأقفل الباب وراءه. ولكن قبل أن يفعل ذلك نطق كلمة واحدة عدة مرات: "بُكرة... بُكرة..."، وكانت تلك كلمة سمعتها فكتوريا من قبل، وهي تعني غداً.

جلست على سريرها لكي تفكر في الأمور بعمق. غداً؟ غداً سيأتي أحدٌ أو سيحدث شيءٌ ما. غداً سينتهي سجنها (أم تراه لن ينتهي؟)... ربما تأتي مع نهاية سجنها نهايتها هي أيضاً! ويأخذ مجمل الوضع بالحسبان لم تأبه فكتوريا كثيراً لفكرة الغد. شعرت -غريزياً- أنه سيكون من الأفضل كثيراً لها أن تكون غداً في مكان آخر.

ولكن هل كان ذلك ممكناً؟ أعطت كل انتباهها لهذه النقطة لأول مرة. ذهبت أولاً إلى الباب وتفحصته. من المؤكد أن شيئاً لا يمكن فعله بخصوص الباب؛ فهذا ليس من الأقفال التي يمكن للمرء فتحها بدبوس شعر... هذا إن كان بمقدورها حقاً أن تفتح أي قفل بدبوس شعر، الأمر الذي تشك به كثيراً.

بقيت النافذة. وسرعان ما وجدت أن النافذة تعطي أملاً أكبر بكثير مما يعطيه الباب؛ فقد كان الشبك الخشبي الذي يغطيها في المراحل الأخيرة من الهشاشة والعطب، فإذا ما افترضت أنها تستطيع كسر فتحة تخرج منها في الخشب الهش، فإنها لا تكاد تستطيع القيام بذلك دون إحداث أصوات كثيرة من شأنها أن تجذب الانتباه لها. والأنكى من ذلك هو أن الغرفة التي سُجنت بها تقع في الطابق العلوي، مما يعني أن عليها إما أن تجد حبلاً تتدلى منه أو أن تجازف بالقفز مما قد يعرضها لالتواء في الكاحل أو لجرح آخر. وفكرت

فكتوريا أن المعهود في الروايات أن يصنع المرء حبلاً من شراشف السرير، ثم نظرت بارتياب إلى ذلك الشرشف القطني السميك وإلى البطانية القديمة فلم يبدُ أن أياً منهما يناسب غرضها، وليس معها ما تستطيع به قص الشرشف إلى شرائح طويلة. ومع أنها كانت تستطيع تمزيق البطانية فإن تعفُّنها يجعل الثقة في إمكانية تحملها لوزن فكتوريا أمراً مستبعداً.

قالت بصوت عالٍ: "تباً"، وقد افتتنت -أكثر فأكثر- بفكرة الهرب. أحست من كل ما رأته بأن سجانيها كانوا أناساً ذوي عقلية بسيطة جداً يظنون معها أن مجرد إقفال باب الغرفة عليها يعني نهاية الأمر. لن يتوقعوا هروبها لسبب بسيط هو أنها أسيرة ولا تستطيع الهرب. إن مَن حقنها بالمخدر وأحضرها إلى هنا (كائناً مَن كان) ليس موجوداً هنا الآن... هذا ما كانت واثقة منه. إن من حقنها أو من حقنتها أو حقنوها يُتوقّع حضورهم «بكرة». لقد تركوها في منطقة بعيدة في عهدة أناس بسطاء من شأنهم أن يطيعوا الأوامر، ولكن ليس من شأنهم الانتباه للمكر وسعة الحيلة، ويُفترض أنهم لا يقدِّرون الملكات الخلّاقة التي يمكن أن تتوفر لشابة أوروبية يفترسها خوف شديد من الفناء.

قالت لنفسها: سأخرج من هنا بطريقة ما!

جاءت إلى الطاولة وأكلت من الوجبة الجديدة التي أُحضرت لها، فمن الأفضل أن تحافظ على قوّتها. كان يوجد أرز مرة أخرى، وبعض البرتقال، وبعض قطع اللحم التي طُبخت بمرق برتقالي اللون.

أكلت كل ما في الصينية، ثم شربت ماء. وعندما أعادت الإبريق إلى الطاولة اهتزت الطاولة قليلاً وانسكب شيء من الماء على الأرض. وسرعان ما أصبحت الأرض -في تلك البقعة بالذات- عبارة عن طين سائل. وبينما نظرت فكتوريا إلى ذلك خطرت لعقلها الخصب دائماً فكرة.

كان السؤال هو: هل تُرك المفتاح في الباب من الخارج أم لا؟

كانت الشمس تغرب الآن، وسرعان ما سيحل الظلام. ذهبت إلى الباب فجثت أمامه ونظرت من الثقب الضخم للمفتاح فلم ترَ أي نور من خلاله. كان ما تحتاجه الآن شيئاً يمكنها أن تدفع به المفتاح... قلم رصاص أو طرف قلم حبر. كم هو مزعج أن يأخذوا حقيبتها منها. نظرت حولها مقطبة الجبين. لم يكن هناك من أدوات المائدة إلاّ ملعقة ضخمة، وهي لا تنفع حاجتها الحالية، رغم أنها قد تفيد لاحقاً. جلست فكتوريا لتفكر وتحتال لنفسها، وسرعان ما هتفت بفرح وقامت فنزعت حذاءها واستطاعت نزع بطانته الجلدية الداخلية، ثم لفّت البطانة بإحكام فوجدتها قاسية بما يكفي. عادت إلى الباب فركعت أمامه وأدخلت اللفافة بقوة في فتحة المفتاح، وكان من حسن حظها أن المفتاح الضخم لم يكن محكم الثبات في موضعه داخل القفل، وبعد بضع دقائق استجاب لمحاولاتها ووقع خارج الباب دون أن يصدر صوتاً عالياً في وقوعه على أرض طينية.

وفكرت فكتوريا في أن عليها أن تسرع الآن قبل أن يتلاشى تماماً ضوء النهار. أحضرت إبريق الماء وصبت قليلاً من الماء بحذر

أسفل إطار الباب مقابل النقطة التي قدّرت أن المفتاح قد سقط فيها. بعد ذلك استخدمت الملعقة كما استخدمت أصابعها في كشط وإزاحة بقعة الطين التي تنجت. وشيئاً فشيئاً، وبسكب الماء مرات عديدة على الطين، استطاعت أن تحفر ثغرة صغيرة تحت الباب. تمددت وحاولت الإطلال منها، ولكن لم يكن من السهل رؤية شيء أبداً. ثم رفعت كُمَّ قميصها وحاولت إدخال يدها في الثغرة فوجدت أن بالإمكان إخراج يدها وجزء من ذراعها خارج الباب. تحسست الأرض خارج الباب بأصابع متلهفة إلى أن لمست برأس أحد أصابعها شيئاً معدنياً في النهاية. ها قد حددت مكان المفتاح، ولكنها لم تكن قادرة على إخراج ذراعها بما يكفي لتناوله. وبعد محاولات عديدة (كادت أن تبكي معها غيظاً) استطاعت أن تمسكه بأصابعها، ثم سحبته من خلال الفتحة الطينية إلى داخل الغرفة.

جلست فكتوريا على مؤخرة قدميها وكلها إعجاب بعبقريتها. أمسكت المفتاح بيدها التي ملأها الوحل، ثم نهضت وأدخلته في القفل. انتظرت لحظات حتى انطلقت جوقة كلاب تنبح في الجوار وأدارت المفتاح، واستجاب الباب لدفعتها وانفتح قليلاً، فأطلّت منه بحذر لترى أنه يفضي إلى غرفة صغيرة أخرى لها باب مفتوح في الجانب الآخر. انتظرت لحظة ثم خرجت من الباب على رؤوس أصابعها. كان لهذه الغرفة الخارجية فتحات كبيرة في السقف وفتحة أو اثنتان في أرضيتها، وكان بابها يفضي إلى أعلى درج طيني خشن ملحق بطرف البيت يؤدي نزولاً إلى الحديقة.

كان هذا هو كل ما أرادت فكتوريا رؤيته. عادت على رؤوس

أصابعها إلى غرفة سجنها، ولم يكن من المحتمل أن يأتيها أحد مرة أخرى هذه الليلة، ولذلك سوف تنتظر إلى أن يحل الظلام ثم تخرج.

وقد لاحظت أمراً آخر. فقرب الباب الخارجي كان ثمة قطعة سوداء من القماش البالي مكومة هناك. ورأت فكتوريا أنها عباءة قديمة ستكون مفيدة في إخفاء ملابسها الغربية. ولم تعرف فكتوريا كم من الوقت انتظرت هناك. بدت ساعات لا تنتهي بالنسبة إليها، وأخيراً خفتت الأصوات المحلية المختلفة، وتوقفت آلة غراموفون بعيدة عن إطلاق الأغاني العربية، وسكنت الصيحات العالية وضحكات النساء الحادة وبكاء الأطفال.

أخيراً لم تعد تسمع إلاّ أصوات عواء بعيدة حسبتها أصوات بنات آوى، ونوبات نباح الكلاب فجأة بين الحين والآخر، وهو ما تعرف أنه سيستمر طوال الليل. قالت لنفسها وهي تنهض: حسناً، إلى العمل!

بعد لحظة من التفكير أقفلت باب سجنها من الخارج وأبقت المفتاح في القفل، ثم تحسست طريقها عبر الغرفة الخارجية وأخذت تلك القطعة المكومة من القماش الأسود وخرجت إلى أعلى الدرج الطيني. كانت السماء مقمرة، ولكن القمر لم يبلغ بعد قبة السماء، بل كان هناك من الضياء ما يكفي فكتوريا لرؤية طريقها. نزلت الدرج بهدوء ثم توقفت قبل نحو أربع درجات من نهايته، فقد كانت هنا على مستوى السياج الطيني الذي يحيط بالحديقة. فإذا ما استمرت في نزول الدرج سيتعين عليها أن تمر بمحاذاة البيت. كان بوسعها سماع

الشخير من الغرف في الطابق السفلي. ربما كان من الأفضل أن تذهب عن طريق هذا السياج، فقد كان سياجاً عريضاً يمكن السير عليه.

اختارت هذا الخيار الأخير ومضت بسرعة وحذر إلى حيث كان الجدار يستدير بزاوية قائمة، وهناك رأت في الخارج ما بدا لها حديقة نخيل، وكان الجدار في أحد مواضعه مهدماً. شقت فكتوريا طريقها هناك ونزلت الجدار بنصف تعلُّق ونصف قفزة، وبعد لحظات كانت تسير بسرعة بين أشجار النخيل باتجاه ثغرة في الجدار البعيد. خرجت إلى زقاق ضيق بدائي أصغر من أن تمر به سيارة، ولكنه يصلح لمرور الحمير. وكان على جانبي الزقاق جداران من الآجر الطيني، وهرعت فكتوريا تقطع الزقاق بكل ما أوتيت من سرعة.

وهنا بدأت الكلاب تنبحها بكل شدة، وجاءها من أحد الأبواب كلبان أبرشان يزمجران، فما كان منها إلاّ أن التقطت قبضة من الحجارة والحصى ورمتهما بها، فصاح الكلبان وابتعدا راكضين، وأسرعت فكتوريا. استدارت عند منعطف لتجد نفسها وسط ما بدا أنه الشارع العام. وكان الشارع ضيقاً مرصوفاً تحفُّ به البيوت الطينية للقرية التي تبدو جميعها باهتة اللون في ضوء القمر. كانت أشجار النخيل تطل من فوق الجدران، والكلاب تزمجر وتنبح. وقد أخذت فكتوريا نفَساً عميقاً وركضت، واستمرت الكلاب بالنباح، ولكن أحداً من البشر لم يهتم لاحتمال وجود قاطعة طريق في هذا الليل. وسرعان ما وصلت فكتوريا إلى فضاء رحب فيه جدول مياه موحلة وفوقه جسر مقوس أصابه البلى، وبعد الجسر بدا أن الطريق أو الممشى الترابي يمتد عميقاً في أرض لا حدود لها. واستمرت فكتوريا في الركض حتى تقطعت أنفاسها.

أصبحت القرية الآن بعيدة عنها إلى الخلف، وتوسّط القمر السماء. وإلى يمينها وشمالها وما بين يديها لم يكن هناك إلاّ الأرض الحجرية الجرداء، أرض لم تتعهدها يد إنسان وليس فيها أثر يدل على أي عمران بشري. بدت الفلاة مسطحة سهلية، ولكنها لم تكن تخلو في الواقع من مرتفعات ومنخفضات بسيطة، ولم تعرف فكتوريا إلى أين تمضي هذه الفلاة، كما لم تكن تعرف الكثير عن النجوم حتى تعرف -على الأقل- في أي اتجاه تسير. كان في هذه الأرض الشاسعة أمر غامض يبعث الرعب، ولكن كان من المستحيل العودة، ولم يكن أمامها سوى أن تستمر.

توقفت لحظات لتلتقط أنفاسها وتُطَمْئن نفسها بالنظر إلى ما خلفها والتأكد من أن أحداً لم يكتشف هروبها، ثم انطلقت من جديد تمشي بثبات قاطعة ثلاثة أميال ونصف الميل في الساعة باتجاه المجهول. وبزغ الفجر أخيراً ليجد فكتوريا منهكة تعبة متورمة القدمين تكاد تكون على شفير الانهيار العصبي. تأكدت من خلال ملاحظة الضوء في السماء بأنها تتجه نحو الجنوب الغربي بشكل عام، ولكن بما أنها لا تعرف أين هي فإن هذه المعلومة لم تكن ذات فائدة تُذكَر لها.

كان أمامها إلى جانب الطريق شبه تلة أو نتوء صغير. تركت فكتوريا الطريق الترابي واتجهت إلى ذلك النتوء الذي كانت حوافُّه شديدة الانحدار، فتسلقته وصولاً إلى قمته. ومن هناك كان بوسعها أن ترى المنظر العام للمنطقة حولها، وعاودها شعورها بالذعر الذي لا تفسير له؛ فقد كان الخواء في كل اتجاه. كان المنظر جميلاً في ضوء الصباح الباكر، والتمعت الأرض والأفق بظلال باهتة من

مختلف الألوان الحمراء والقرمزية التي كانت تؤلف أشكالاً بديعة من الظلال. كان ذلك جميلاً ومخيفاً. وقالت فكتوريا لنفسها: أعرف الآن معنى أن يقول المرء إنه وحيد في هذه الدنيا!

كانت بقع من الأعشاب الصغيرة باهتة اللون تنتشر هنا وهناك، بالإضافة إلى بعض الأشواك الجافة. وفيما عدا ذلك لم يكن ثمة أثر للخضرة أو دليل على الحياة. لم يكن هناك سوى فكتوريا جونز، كما لم يكن هناك أي أثر للقرية التي هربت منها. كان الطريق الذي جاءت منه يمتد رجوعاً إلى ما بدا أنه أرض خلاء لا نهاية لها، وقد بدا لها أمراً لا يُصدَّق أن تكون قد قطعت كل هذه المسافة بحيث غابت القرية تماماً عن مجال البصر، وانتابها -للحظات- شوق للعودة يؤججه الذعر والرعب... شوق لأن تستعيد بشكل أو بآخر صلتها مع أبناء البشر!

ثم عادت فسيطرت على نفسها، فقد أرادت الهرب، وهربت، ولكن ليس من المحتمل أن تنتهي مشكلاتها لمجرد أنها وضعت بينها وبين سجّانيها بضعة أميال. إن من شأن سيارة -مهما كانت قديمة وخربة- أن تقطع تلك الأميال بكل سهولة وسرعة. وبمجرد اكتشاف أمر هروبها سيقوم أحدهم بالبحث عنها، فكيف عساها تختبئ أو تختفي؟ لا يوجد -ببساطة- أي مكان يمكن الاختباء فيه. لم تزل تحمل معها تلك العباءة السوداء البالية، وها قد جربت الآن أن تلف نفسها بين طياتها وتسحبها لتغطي وجهها، دون أن تعرف كيف بدا شكلها، إذ لم تكن معها مرآة. لعلها إن نزعت حذاءها الأوروبي وجواربها ومشت حافية القدمين، لعلها تستطيع تفادي انكشاف أمرها. كانت تعرف أن من شأن امرأة عربية فاضلة ترتدي الخمار

أن تحظى بكل الحصانة الممكنة مهما ساءت حالتها أو بلغ فقرها، وسيُعتبَر منتهى سوء الأخلاق أن يعمد أي رجل لمضايقتها. ولكن هل سيخدع ذلك التنكر أعيناً غربية ربما انطلقت خلفها بسيارة للبحث عنها؟ إنها -على أية حال- الفرصة الوحيدة أمامها.

كانت قد نالت من التعب ما لا تستطيع معه متابعة المسير حالياً، وكانت تحس بعطش شديد أيضاً، ولكن كان من المستحيل العثور على حلّ لذلك؛ ولذا قررت أن أفضل شيء هو أن تضطجع في ظل تلك التلة، فبوسعها من هناك أن تسمع صوت أية سيارة قادمة، ويمكنها أن تخفي نفسها بالالتفاف إلى مؤخرة التلة بحيث تبقى بعيدة عن أنظار من يأتي في هذا الطريق... ومن جهة أخرى فإن ما كانت بحاجة ماسة إليه هو العودة إلى الحضر، والطريقة الوحيدة التي رأتها لتحقيق ذلك هي إيقاف سيارة يقودها أوروبيون والطلب منهم نقلها معهم.

ولكن عليها أن تتأكد من أن أولئك الأوروبيين ليسوا من الأوروبيين غير المرغوب فيهم. ولكن كيف عساها تتأكد من هذه النقطة؟ ظلت تفكر في هذه النقطة حتى غلبها النوم على غير توقع منها، وقد أتعبتها الرحلة الطويلة والإرهاق العام. وعندما أفاقت كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء. شعرت بالحر والتشنج والدوار، وكان عطشها قد أصبح الآن عذاباً مضنياً. أطلقت أنّةً من شفاهها الجافة المريرة، وعندها تجمدت فجأة وأصغت؛ فقد سمعت صوتاً ضعيفاً (ولكنه مؤكد) لسيارة. رفعت رأسها بحذر شديد فرأت أن السيارة لم تكن قادمة من جهة القرية، بل ذاهبة باتجاهها، وذلك يعني أنها ليست سيارةَ مُطاردة. كانت السيارة ما تزال نقطة

سوداء بعيدة تماماً عند نهاية الطريق الترابي. تمددت فكتوريا لتخفي نفسها قدر الإمكان واستمرت في مراقبة السيارة. ولَكَم تمنت لو أن لديها منظاراً مقرباً.

اختفت السيارة لدقائق معدودة في منخفض من الأرض، ثم عادت للظهور وهي تتسلق مرتفعاً غير بعيد. كان فيها سائق عربي وإلى جانبه رجل بملابس غربية. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "الآن عليّ أن أقرر". أكانت تلك فرصتها؟ هل تركض نزولاً إلى الطريق وتلوح للسيارة لتوقفها؟

وبينما كانت تستعد للقيام بذلك أتاها وازع مفاجئ أوقفها، فماذا لو افترضت، مجرد افتراض، أن هذا هو العدو؟ كيف يمكنها أن تخمن ذلك؟ من المؤكد أن هذا الطريق مهجور تماماً، إذ لم تمر أية سيارة أخرى، ولا شاحنة، ولا حتى قافلة حمير. ربما كانت هذه السيارة متجهة للقرية التي هربت منها الليلة الماضية... ماذا عساها تفعل؟ كان من الفظيع أن تضطر لاتخاذ قرار خطير كهذا في غضون لحظات فقط. إن كان هذا هو العدو فإنها النهاية، ولكن إن لم يكن العدو فربما كان أملها الوحيد للنجاة؛ لأنها إن استمرت في التجول على غير هدى فربما ماتت عطشاً. ماذا عساها تفعل؟

وبينما كانت تقعي مشلولة لا تستطيع اتخاذ قرار تغير صوت السيارة المقبلة، فقد خففت سرعتها ثم انعطفت وخرجت عن الطريق فوق الأرض المليئة بالأحجار لتتجه نحو التلة التي تجلس فكتوريا خلفها. لقد رآها! إنهم يبحثون عنها!

انزلقت نزولاً من الملجأ الذي احتمت به وزحفت حول

مؤخرة التلة مبتعدة عن السيارة المقبلة، ثم سمعتها تتوقف، وسمعت صوت صفق بابها بعد نزول أحدهم منها. بعد ذلك قال أحدهم شيئاً بالعربية، ولم يحدث شيء. وفجأة، ودون أي إنذار، ظهر رجل أمام نظرها. كان يمشي حول التلة صاعداً إلى منتصفها، وكانت عيناه تبحثان في الأرض، وكان ينحني -من وقت لآخر- ليلتقط شيئاً عن الأرض. ولئن كان يبحث عن شيء فإن ذلك الشيء لم يكن أبداً فتاة تدعى فكتوريا جونز! وفوق ذلك فقد بدا إنكليزياً لا يمكن للعين أن تخطئه.

تنهدت فكتوريا بارتياح وجاهدت لتقف على قدميها وتقدمت من الرجل الذي رفع رأسه ونظر إليها دَهِشاً. قالت: آه، من فضلك... إنني في غاية السعادة لحضورك.

بقي يحدق إليها، ثم بدأ قائلاً: من تكونين بالله عليك... أأنت إنكليزية؟ ولكن...

رمت فكتوريا عن نفسها العباءة بنوبة من الضحك وقالت: إنني إنكليزية طبعاً؛ وهل يمكنك -رجاءً- أن تعيدني إلى بغداد؟

- لست ذاهباً إلى بغداد، بل لقد جئت منها لتوي. ولكن ما الذي تفعلينه -بربّك- هنا وحيدة في وسط الصحراء؟

قالت فكتوريا لاهثة: لقد اختُطفت. ذهبت لأغسل شعري فخدروني بالكلوروفورم، وعندما صحوت وجدت نفسي في بيت عربي في قرية هناك.

ثم أشارت نحو الأفق، فقال لها: في مِنْدلي؟

- لا أعرف اسمها. هربت ليلة أمس، ومشيت طوال الليل، ثم اختبأت خلف هذه التلة خشية أن تكون عدواً.

كان منقذها ينظر إليها وعلى وجهه تعبير شديد الغرابة. كان رجلاً أشقر الشعر في نحو الخامسة والثلاثين، يبدو عليه شيء من التعالي، وإذا تكلم تكلم بحديث أكاديمي دقيق. وضع الآن نظارته على عينيه وحدق إليها من خلال النظارة وعليه سيماء التقزز، وأدركت فكتوريا أن هذا الرجل لم يصدق كلمة واحدة مما كانت تقوله. وتحولت مشاعرها -فوراً- إلى سخط غاضب وقالت: إنها صحيحة تماماً، بكل كلمة فيها!

بدا الغريب أبعد من أي وقت مضى عن تصديقها، ثم قال بنبرة برود: أمر رائع جداً.

انتاب فكتوريا اليأس، كم هو مؤسف أن لا تمتلك قوة الإقناع عندما تحكي الحقائق المجردة، وهي التي تستطيع دوماً أن تجعل الكذب يبدو مقبولاً. لقد كانت تروي الحقائق الفعلية بشكل سيء يفتقر إلى الإقناع. قالت للرجل: وإذا لم يكن معكم ما أشربه فإنني سأهلك عطشاً... وسأموت عطشاً على أية حال إن أنت تركتني هنا وذهبت.

قال الغريب بتشنج: من الطبيعي أن لا أحلم بفعل شيء كهذا، إذ لا يناسب امرأة إنكليزية أبداً أن تتيه وحدها في البراري. يا إلهي! إن شفتيك متشققتان تماماً... يا عبدو.

- نعم؟

ظهر السائق عند طرف التلة، وعند تسلمه التعليمات باللغة العربية هرع نحو السيارة ليعود -بعد لحظات- حاملاً حافظة ماء ضخمة كروية الشكل وكأساً من البلاستيك.

شربت فكتوريا بشراهة ثم قالت: أووه! هكذا أفضل.

قال الإنكليزي: اسمي ريتشارد بيكر.

- وأنا فكتوريا جونز.

ثم أرادت استعادة ما خسرته من ثقة الإنكليزي وتحويل تكذيبه لها إلى انتباه واحترام فقالت: باونسفوت جونز. إنني ملتحقة بعمي الدكتور باونسفوت جونز في موقع حفرياته.

قال بيكر وهو ينظر إليها باستغراب: يا للمصادفة الغريبة! إنني في طريقي إلى موقع الحفريات أنا الآخر. إنها لا تبعد عن هنا إلاّ نحواً من خمسة عشر ميلاً. إنني الشخص المناسب الذي أرسلته العناية الإلهية لإنقاذك، أليس كذلك؟

لعل القول إن فكتوريا قد فوجئت يكون تهويناً لحقيقة صدمتها؛ فلقد أُسقط في يدها تماماً، إلى الحد الذي لم تعد معه قادرة على النطق بأية كلمة. تبعت ريتشارد بخنوع وصمت إلى السيارة وركبت فيها. وقال ريتشارد وهو يُجلسها في المقعد الخلفي بعد إزاحة الكثير من الأغراض: أظنك أنت عالمة الأجناس. لقد سمعتُ أنك قادمة، ولكنني لم أتوقع وصولك في مثل هذا الوقت المبكر.

وقف لحظة يرتب شظايا الفخار التي أخرجها من جيبه، والتي أدركت فكتوريا الآن أنها هي التي كان يلتقطها عن الأرض عند التلة،

ثم أشار إلى التلة وقال: "يبدو من المحتمل أنه كان تلاً أثرياً، ولكن ليس فيه ما يوحي بالقيمة كما أرى. معظم ما فيه من أواني العهد الآشوري المتأخر... وشيء من آثار البارثيين وغيرهم". ثم ابتسم وأضاف قائلاً: إنني سعيد إذ أرى أن غريزتك الآثارية قادتك -رغم متاعبك- لتفحص هذا التل الأثري.

فتحت فكتوريا فمها ثم عادت فأغلقته، ثم انطلقت السيارة.

ما الذي يمكنها قوله في نهاية المطاف؟ صحيح أن أمرها سينكشف بمجرد وصولهم إلى مقر البعثة الآثارية... ولكن الأفضل بالتأكيد أن ينكشف أمرها هناك وتعترف بذنبها مكفّرة عما ابتدعته من قصص من أن تعترف للسيد ريتشارد بيكر وسط هذا التيه اللامتناهي. إن أسوأ ما يمكن أن يفعلوه لها هو إعادتها إلى بغداد. وفكرت فكتوريا (التي لا تتوب أبداً) أنها ربما استطاعت التفكير بعذرٍ ما قبل الوصول إلى هناك، وقد بدأ خيالها النشيط عمله مباشرة: فقدان مؤقت للذاكرة؟ لتقل إنها سافرت مع فتاة طلبت منها أن... ولكن لا، يبدو أن الأمر سيتطلب منها رواية كاملة هذه المرة. ولكنها كانت تفضل -بالتأكيد- أن تفرغ مكنونات صدرها للدكتور باونسفوت جونز من أن تفضي بها إلى ريتشارد بيكر بالطريقة المتعالية التي يرفع فيها حاجبيه وبإنكاره الصريح للقصة الدقيقة الصحيحة التي روتها له.

قال السيد بيكر وهو يلتفت في كرسيه الأمامي: إننا لا ندخل مندلي تماماً، بل ننعطف عن الطريق لندخل الصحراء بعد نحو ميل

من هنا. يكون من الصعوبة أحياناً العثور على النقطة تلك في غياب الشواخص.

وسرعان ما قال شيئاً لعبدو فانعطفت السيارة بحدة عن الطريق الترابي واتجهت مباشرة إلى عمق الصحراء، وقد قام ريتشارد بيكر بتوجيه السائق بإشارات منه دون أن ترى فكتوريا وجود شواخص يستعين بها... وكانت السيارة تذهب تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال. وسرعان ما أطلق ريتشارد صيحة ارتياح وقال: إننا نسلك الطريق الصحيح الآن.

لم يكن بوسع فكتوريا رؤية أي طريق. ولكنها أخذت تلاحظ -بين الحين والآخر- وجود آثار عجلات لا تكاد تُرى. وبعد قليل اجتازت السيارة آثار عجلات أوضح قليلاً، وما أن اجتازتها حتى صاح ريتشارد وأمر عبدو بالتوقف، ثم قال لفكتوريا: ها هنا منظر مثير لك لم تريه من قبل طالما أنك جديدة على هذا البلد.

كان هناك رجلان يقتربان من السيارة، وكان أحدهما يحمل مقعداً خشبياً قصيراً على ظهره، فيما حمل الآخر جهازاً خشبياً كبيراً بحجم البيانو. حياهما ريتشارد، وردّا عليه تحيته بكل ترحيب وسعادة، ثم أخرج ريتشارد لفافات تبغ وزعها عليهما، وبدا أن جو صداقة دافئاً يسود الجميع. ثم التفت ريتشارد إليها وقال: هل تحبين السينما؟ ينبغي أن تشاهدي عرضاً إذن.

تحدث مع الرجلين فابتسما بفرح، ونصبا المقعد وأشارا لفكتوريا وريتشارد بأن يجلسا عليه. ثم ركّبا الجهاز المستدير على قاعدة ما، وكان فيه فتحتان للنظر من خلالهما، وحالما نظرت

فكتوريا منهما صاحت قائلة: إنه صندوق العجائب!

- بالضبط، نسخة بدائية منه.

ركزت فكتوريا عينيها على فتحتي النظر المغطاتين بالزجاج، وبدأ أحد الرجلين يدير ذراعاً ملحقاً بالآلة، فيما أخذ الآخر يغني نشيداً فيه بعض الرتابة. سألت فكتوريا: ما الذي يقوله؟

ترجم لها ريتشارد فيما مضى الرجل في غنائه يقول: تعال وجهز نفسك للكثير من العجائب والمتعة... تجهّز لرؤية عجائب الزمان.

ورأت فكتوريا من الفتحة صورة بدائية الألوان لزنوج يحصدون القمح، فيما شرح لها ريتشارد ترجمةً: «فلاحون في أمريكا». ثم جاء شرحٌ لصورة أخرى: «زوجة الشاه الأكبر للعالم الغربي»، فيما ابتسمت الإمبراطورة يوجيني وعبثت بخصلة من شعرها. ثم ظهرت صورة لقصر الملك في مونتي نيغرو، وصورة أخرى للاستعراض العظيم.

وتتابعت بعد ذلك مجموعة غريبة منوعة من الصور لا يجمعها جامع، ويتم الإعلان عنها أحياناً بأغرب التعابير: زوجة الأمير، خليج الترويج، متزلجون في سويسرا... كل ذلك توالى لتُستكمل هذه اللمحة الغريبة عن الأيام البعيدة الخوالي. ثم أنهى الرجل عرضه بالكلمات التالية: وهكذا أتينا لكم بعجائب الدنيا القديمة وغرائبها في أماكن أخرى بعيدة، فلتكن مساهمتكم سخية بمستوى العجائب التي رأيتموها، لأن كل هذه الأمور حقيقية.

وانتهى العرض، وأشرق وجه فكتوريا سعادةً وقالت: كان هذا حقاً رائعاً! ما كنت لأصدق وجوده.



وفيما كان أصحاب السينما المتنقلة يبتسمون بفخر نهضت فكتوريا عن المقعد الذي كان ريتشارد يجلس على طرفه الآخر مما أدى إلى اختلال توازن ريتشارد ووقوعه أرضاً بشكل محرج. اعتذرت فكتوريا دون أن تسمح لذلك بتنغيص فرحتها. وقام ريتشارد بمكافأة الرجلين اللذين غادرا بعد عبارات الوداع اللطيفة وبعد أن عبّر الطرفان عن اهتمام كل منهما بالآخر والدعوة بالتوفيق من الله لكل منهما، ثم عاد ريتشارد وفكتوريا إلى السيارة وانطلق السائق في الصحراء. سألت فكتوريا: إلى أين يذهبان؟

- إنهما يسافران في طول البلد وعرضه. لقد قابلتهما أول مرة في الأردن وهما يقطعان الطريق بين البحر الميت وعمّان، وهما الآن ذاهبان إلى كربلاء دون شك، وهما يذهبان عبر طرق فرعية لا تُستخدم كثيراً بحيث يقدمان عروضهما في القرى النائية.

- ألا يقلّهما أحد في سيارته في تلك الطرقات؟

ضحك ريتشارد وقال: قد لا يقبلون ذلك. لقد عرضتُ مرةً على رجل عجوز أن أحمله بسيارتي، وكان يقطع الطريق بين البصرة وبغداد ماشياً. سألته كم ستأخذ منه الرحلة برأيه فأجابني أنها ستستغرق نحو شهرين، فطلبت منه أن يصعد السيارة ليكون في بغداد في وقت لاحق من ذلك المساء، ولكنه شكرني ورفض العرض، فالوصول بعد شهرين سيناسبه أكثر. إن الوقت لا يعني شيئاً هنا، وبمجرد أن يقتنع المرء بذلك فإنه يجد رضا غريباً بالأمر.

- نعم؛ بوسعي تخيل ذلك.

- إن العرب يجدون في نفاد صبرنا وإلحاحنا على إنجاز الأمور

بسرعة أمراً يصعب فهمه كثيراً، كما أنهم يرون طريقتنا في الدخول مباشرة في الموضوع طريقةً تفتقر تماماً للتهذيب والأدب. إذ ينبغي عليك دوماً أن تجلسي وتبدئي بتقديم الملاحظات العامة نحواً من ساعة قبل ذلك!

- سيكون ذلك غريباً إن طبقناه في مكاتبنا في لندن؛ فبذلك يهدر المرء الكثير من الوقت.

- نعم، ولكن ذلك يقودنا من جديد إلى نفس السؤال: ما هو الوقت؟ وما هو الهدر؟

أخذت فكتوريا تتأمل في هذه النقاط، فيما بدا أن السيارة مستمرة في تقدمها في هذه المتاهة بأكبر قدر من الثقة. قالت أخيراً: أين هذا المكان؟

- تل أسوَدْ؟ إنه بعيد في وسط الصحراء. سوف ترين الزقّورة بعد قليل، ولكن حتى ذلك الحين انظري إلى شمالك. هناك... حيث أشير.

- هل هذه غيوم؟ لا يمكن أن تكون جبالاً.

- بل هي جبال؛ جبال كردستان التي تغطيها الثلوج. لا تستطيعين رؤيتها إلا عندما يكون الجو صافياً جداً.

اجتاح فكتوريا شعور بالرضا والقناعة أشبه بالحلم، وتمنت لو كان بوسعها أن تستمر في مثل هذه الرحلة إلى الأبد. لو أنها فقط لم تكن تلك الكذّابة التعيسة! انكمشت كطفل لفكرة المكاشفة الكريهة

التي تنتظرها. تُرى أي نوع من الرجال هو الدكتور باونسفوت جونز؟ طويل ذو لحية طويلة بيضاء وتقطيبة صارمة قاسية؟ ولكن لا بأس، مهما كانت درجة انزعاج الدكتور باونسفوت جونز فإنها استطاعت التملص من كاثرين والدكتور راثبون و«غصن الزيتون».

قال ريتشارد: "ها قد وصلنا"، ثم أشار أمامه، فنظرت فكتوريا لترى شيئاً لم يبدُ لها إلاّ كشامة في الأفق البعيد. قالت: يبدو على بعد أميال كثيرة.

- آه، لا؛ لم تبقَ إلاّ أميال قليلة الآن، وسترين.

وبالفعل تطورت الشامة بسرعة مذهلة لتصبح كتلة صغيرة في البداية، ثم تلة صغيرة، ثم أصبحت -أخيراً- تلاً أثرياً ضخماً مهيباً. وعلى أحد جوانب التل امتد بناء طويل من الآجر الطيني. قال ريتشارد: هذا مقر البعثة.

ثم تقدمت السيارة وهم يلوحون وسط نباح الكلاب، فيما اندفع الخدم بأثوابهم البيضاء لتحيتهم بوجوه بشوشة. وبعد تبادل التحيات قال ريتشارد: الواضح أنهم لم يتوقعوا حضورك بهذه السرعة، ولكنهم سيُعدّون لك سريرك، وسيهيئون لك ماء حاراً على الفور. أحسب أنك تودين الاستحمام والراحة؟ الدكتور باونسفوت جونز خرج إلى التل، وأنا ذاهب إليه. سوف يعتني بك إبراهيم.

ثم مضى بعيداً، فيما لحقت هي بإبراهيم إلى البيت وهو يبتسم. بدا البيت مظلماً من الداخل في بداية الأمر لمن يدخل من الخارج حيث الشمس الساطعة. وعبر الاثنان غرفة معيشة فيها بعض

الطاولات الكبيرة والكراسي القديمة، ثم قادها إبراهيم حول باحة لتدخل غرفة صغيرة ليس لها إلاّ نافذة صغيرة واحدة. وكان في الغرفة سرير وخزانة أدراج قديمة وطاولة عليها إبريق ووعاء ماء كبير وأمامها كرسي. ابتسم إبراهيم وأومأ لها برأسه، ثم أحضر لها إبريقاً ضخماً فيه ماء حار موحل المنظر ومنشفة خشنة الملمس، ثم عاد بابتسامة اعتذار حاملاً معه مرآة صغيرة علّقها بحرص في مسمار صدئ في الجدار.

كانت فكتوريا ممتنة لفرصة الاستحمام التي واتتها. كانت قد بدأت تدرك -لتوها- مدى تعبها وإنهاكها ومقدار اتساخ جسمها بالأتربة التي لصقت به. وقالت لنفسها وهي تتقدم نحو المرآة: أحسبني سأبدو مخيفة تماماً.

ثم حدّقت إلى صورتها المنعكسة للحظات لا تكاد تفهم شيئاً... هذه لم تكن هي... ليست هذه فكتوريا جونز!

ثم أدركت أخيراً بأن ملامحها الدقيقة اللطيفة -رغم أنها ملامح فكتوريا جونز نفسها- إلاّ أن شعرها كان الآن أشقر بلاتينياً!

* * *

الفصل التاسع عشر

وجد ريتشارد الدكتور باونسفوت جونز في موقع الحفريات يجلس القرفصاء قرب رئيس عماله وينقر -بحذر- جداراً مستخدِماً منقرة صغيرة. حيا الدكتور جونز زميله بأسلوب واقعي قائلاً: مرحباً بصغيري ريتشارد، ها قد ظهرت إذن. كانت لديّ فكرة بأنك ستصل يوم الثلاثاء، لا أدري لماذا؟

- واليوم هو الثلاثاء.

قال الدكتور باونسفوت دون اهتمام: أهو حقاً الثلاثاء؟ تعال هنا وانظر ماذا ترى بشأن هذا. جدران سليمة جداً تظهر ونحن لم نحفر بعد سوى ثلاثة أقدام. يبدو لي أنه يوجد بعض أثر لطلاء هنا. تعال وأعطني رأيك... يبدو لي الأمر واعداً جداً.

قفز ريتشارد إلى الخندق، واستمتع الأثاريّان لمدة ربع ساعة بحديث متخصص جداً، ثم قال ريتشارد: بالمناسبة، لقد أحضرتُ فتاة.

- آه، حقاً؟ فتاة من أي نوع؟

- تقول إنها ابنة أخيك.

- ابنة أخي؟

جاهد الدكتور باونسفوت ليعود بعقله من تأملاته في الجدران الطينية، ثم قال بارتياب وكأنه يُحتمل أن تكون له ابنة أخٍ قد نسي أمرها: لا أظن أن لديّ ابنة أخٍ.

- فهمت أنها جاءت للعمل معك هنا.

أشرق وجه الدكتور باونسفوت وقال: آه، بالطبع، هذا يعني أنها فيرونيكا.

- أظنها قالت فكتوريا.

- نعم، نعم، فكتوريا. لقد كتب لي إيميرسن عنها من كامبريدج. فهمتُ أنها فتاة قديرة جداً... عالمة بالأجناس. لا أرى سبباً يدعو المرء لأن يصبح عالم أجناس، أترى أنت سبباً؟

- لقد سمعتُ أن عالمة أجناس سافرت في طريقها إليك.

- ليس لدينا شيء يتطلب اختصاصها حتى الآن، ولكننا ما نزال في البداية طبعاً. لقد فهمت أنها لن تأتي قبل مضي أسبوعين تقريباً، ولكنني لم أقرأ رسالتها بإمعان، ثم أضعت الرسالة، ولذلك فإنني لا أتذكر حقاً ما قالته. ستصل زوجتي في الأسبوع القادم... أو في الأسبوع الذي يليه... تُرى ماذا فعلتُ برسالتها؟ ولقد ظننتُ أن فينيسيا ستأتي معها، ولكن ربما فهمتُ الأمر كله خطأً بالطبع. حسناً،

حسناً... أظن أن بوسعنا أن نستفيد منها؛ فالكثير من الفخاريات ستظهر معنا.

- هل في تلك الفتاة أي شيء غريب؟

نظر الدكتور باونسفوت إليه وقال: غريب؟ بأي معنى؟

- أعني هل تعرّضَتْ لانهيار عصبي أو ما شابه ذلك؟

- أذكر أن إيميرسن قال -بالفعل- إنها كانت تدرس بكل جد، لنيل شهادة أو درجة أو شيء من هذا، ولكنني لا أظنه قال شيئاً عن انهيار عصبي. لماذا تسأل؟

- لقد التقطتُها عن جانب الطريق وهي تتجول هناك بمفردها تماماً. وجدتها هناك عند ذلك التل الأثري الصغير الذي ذهبتَ إليه على بعد ميل قبل أن نترك الطريق العام...

- نعم، تذكرت. أتعلم أنني وجدت في ذلك التل مرة قطعة من حجر نوزو. من الغريب جداً العثور عليها في هذا البعد جنوباً.

ولكن ريتشارد رفض الانجرار إلى موضوعات أثرية ومضى بإصرار قائلاً: لقد روت لي قصة أغرب من الخيال. قالت إنها ذهبت لتغسل شعرها فقام بعضهم بتخديرها بالكلوروفورم واختطافها وأخذها إلى مندلي وسجنها في بيت هناك، وإنها هربت في منتصف الليل... هراء عجيب ما سمع امرؤ مثله.

هز الدكتور باونسفوت جونز رأسه حيرة وقال: لا يبدو ذلك محتملاً أبداً؛ فالبلد هادئ جداً ولم يسبق له أن كان بمثل هذا الأمان.

- بالضبط. يبدو واضحاً انها اخترعت القصة كلها؛ ولهذا سألتُ إن كانت قد عانت من انهيار عصبي. لا بد أنها من تلك الفتيات العُصابيّات وربما سببت لنا الكثير من المتاعب.

قال الدكتور باونسفوت متفائلاً: آه، أظنها ستهدأ وتستقر. أين هي الآن؟

قال ريتشارد: "تركتها لتستحم وتصلح من أمرها". ثم تردد لحظة وقال: إنها لا تحمل معها أية أمتعة أبداً.

- حقاً؟ هذا أمر فظيع فعلاً. أتحسب أنها تتوقع مني إعارتها ملابسي؟

- سيتعين عليها تدبير أمرها كيفما اتفق ريثما تذهب الشاحنة في الأسبوع القادم. إنني أتعجب ما الذي كانت بصدده... وهي تتجول وحيدة وسط تلك المتاهة.

قال الدكتور باونسفوت بغموض: الفتيات مدهشات هذه الأيام. يظهرن في كل مكان؛ وهو ما يشكل إزعاجاً عظيماً إذا ما كنت تريد إنجاز أعمالك. ربما خطر لك أن هذا المكان أبعد وأنأى من أن يتردد عليه الزوار، ولكنك ستُدهش إن علمت كيف تظهر السيارات والناس هنا في الوقت الذي لا وقت لديك لخدمتهم. يا إلهي، لقد توقف الرجال عن العمل. لا بد أنه وقت الغداء. من الأفضل أن نعود إلى البيت.

* * *

وجدت فكتوريا -بعد انتظارٍ قلِقٍ- أن الدكتور باونسفوت جونز

أبعد ما يكون عما تخيلته. كان رجلاً ضئيل الجسم ممتلئاً ذا رأس شبه أصلع وعينين لا تنفكان ترمشان، وقد أدهشها جداً أنه تقدم منها بيدين ممدودتين قائلاً: أهلاً، أهلاً يا فينيسيا... أعني فكتوريا. هذه مفاجأة بكل معنى الكلمة. لقد دخل في روعي أنك لن تأتي حتى الشهر القادم، ولكنني سعيد برؤيتك، سعيد فعلاً. كيف حال إيميرسن؟ أرجو أنه لا يعاني من الربو كثيراً؟

استجمعت فكتوريا حواسها وملكاتها المشتتة وقالت بحذر إن الربو لم يكن بهذا السوء مؤخراً.

- إنه شديد الحرص على لف رقبته كثيراً، وهي غلطة كبرى، وقد قلتُ له ذلك. إن أولئك الأكاديميين الذين يقبعون طوال الوقت في جامعاتهم ينشغلون كثيراً بصحتهم. لكي يبقى المرء سليماً عليه أن لا يفكر بالأمر. حسناً، أرجو أن تستقري هنا. ستأتي زوجتي في الأسبوع القادم... أو الذي بعده... لقد كانت مريضة بعض الشيء. عليّ أن أعثر على رسالتها حقاً. لقد أخبرني ريتشارد أن أمتعتك قد ضلت طريقها. كيف ستتدبرين أمرك؟ إذ لا نستطيع إرسال الشاحنة حتى الأسبوع القادم.

- أظنني سأتدبر أمري حتى ذلك الحين.

قهقه الدكتور باونسفوت وقال: لا نستطيع أنا وريتشارد أن نعيرك الكثير. بالنسبة لفرشاة الأسنان لا توجد مشكلة؛ إذ يوجد أكثر من عشرة في مخازننا... وماذا بعد؟ بعض مساحيق التجميل، وبعض الجوارب والمناديل الاحتياطية. ولا يوجد الكثير غير ذلك.

قالت فكتوريا وهي تبتسم بسعادة: لا بأس بذلك.

نبهها الدكتور باونسفوت قائلاً: لا أثر لمقابر تمارسين من خلالها اختصاصك. تظهر الآن لدينا بعض الجدران الرائعة وكميات من قطع الفخار ظهرت في الخنادق البعيدة، وربما اكتشفنا بعض العظام لاحقاً. ولكننا سنجد لك ما يشغلك بشكل ما. هل تستطيعين التصوير؟

قالت فكتوريا بحذر: "أعرف شيئاً عنه"، وأحست بالارتياح لذكر شيء لديها خبرة عملية فيه بالفعل.

- حسناً، جيد. أتستطيعين تحميض الأفلام؟ أنا متخلّف في هذا المجال... ما زلت أستعمل الألواح. غرفة التحميض المظلمة بدائية بعض الشيء، وأنتم الشباب الذين اعتدتم على الأجهزة المبتكرة غالباً ما تجدون هذه الظروف البدائية مزعجة تماماً.

- لن أهتم لذلك.

بعد ذلك عمدت إلى مخازن البعثة فأخذت فرشاة ومعجوناً للأسنان وإسفنجة وبعض مساحيق التجميل.

كان ذهنها ما يزال مشوشاً حائراً وهي تحاول أن تفهم بالضبط حقيقة مركزها. من الواضح أنهم أخطؤوا فحسبوها فتاة أخرى تدعى فينيسيا من المفترض أن تأتي لتنضم للبعثة، وهي عالمة بالأجناس. ولم تكن فكتوريا تعلم حتى معنى علم الأجناس! لو أنها عثرت فقط على قاموس هنا أو هناك، إذ أن عليها أن تبحث عن معنى ذلك العلم. لا يُفترض أن تصل الفتاة الأخرى قبل مضي أسبوع على

الأقل. حسناً إذن، من الآن وحتى مضي أسبوع، أو حتى ذهاب تلك السيارة أو الشاحنة إلى بغداد، ستكون فكتوريا هي فينيسيا، وستقوم بدورها بأفضل ما تستطيع، رغم المصاعب! لم يساورها الخوف من الدكتور باونسفوت جونز الذي بدا سعيداً غامضاً عاماً في طرحه، ولكنها كانت تحس بالارتباك والقلق من ريتشارد بيكر، فقد كرهت تلك الطريقة المتأملة التي ينظر بها إليها وساورتها فكرة تقول إنه سرعان ما سيكشف ادعاءاتها إن لم تكن في غاية الحذر. وقد كان من حسن حظها أنها عملت لفترة قصيرة كسكرتيرة طابعة في معهد الآثار في لندن، ولذلك فإن لديها حصيلة متناثرة من المفردات والجمل التي ستكون مفيدة الآن. ولكن يتعين عليها أن تحذر أشد الحذر من ارتكاب خطأ حقيقي فاضح. ورأت أن من حسن الحظ أن الرجال يتملكهم دوماً إحساس بالتفوق على النساء بحيث أن أي غلطة ترتكبها لن ينظر إليها الرجال على أنها حدث مريب بقدر ما يرون فيها دليلاً على مدى سخف وخواء النساء جميعاً!

ستكون هذه الفترة فترة راحة أحست فكتوريا أنها في أمسّ الحاجة إليها، ذلك أن اختفاءها التام سيكون مربكاً لخاطفيها. لقد هربت من سجنها، ولكن سيكون من الصعب جداً عليهم تتبع ما حدث لها بعد ذلك. فسيارة ريتشارد لم تمر في مندلي، بحيث لا يمكن لأحد أن يخمن بأنها الآن في تل أسود. نعم، سيرون أنها تبخرت في الهواء، وربما استنتجوا -على الأرجح- أنها ماتت... تاهت في الصحراء وماتت جوعاً وإعياء.

حسناً، فليظنوا ذلك. وإن كان من المؤسف -طبعاً- أن يظن إدوارد ذلك أيضاً! ولكن لا بأس، عليه أن يتحمل ذلك، فهو لن يُضطر لتحمله طويلاً في كل الأحوال؛ إذ ستعود له فجأة وقد بُعثت من عالم الموتى... غير أنها بُعثت شقراء لا سمراء محمرّة.

وقد أعادها ذلك إلى اللغز القائل: لماذا عمدوا إلى صبغ شعرها؟ رأت فكتوريا أن لذلك سبباً دون ريب، ولكنها لم تستطع تخمين هذا السبب أبداً. إنها -والحالة هذه- سرعان ما ستظهر بمظهر غريب جداً عندما يبدأ شعرها بالنمو بلونه الأسود عند الجذور. ولكن فكتوريا قالت لنفسها: لا بأس، ألست حية أُرزَق؟ ولست أرى سبباً يمنعني من التمتع بما أنا فيه قدر استطاعتي... لأسبوع واحد على الأقل. كانت متعة كبيرة حقاً أن تكون مع بعثة أثرية وترى كيف تعمل مثل هذه البعثات. لو أنها فقط تستطيع النجاة من المأزق وعدم فضح نفسها!

لم تجد دورها سهلاً بشكل عام؛ إذ ينبغي التعامل بحذر مع الأحاديث التي تتناول الناس والكتب المنشورة، وأصناف الفخار المختلفة، والأساليب المعمارية. ومن حسن الحظ أن الناس يقدّرون دوماً شخصاً حسن الإصغاء. وقد كانت فكتوريا مستمعة ممتازة للرجلين، وقد بدأت -وهي تتحسس طريقها بكل احتراس- تلتقط مفردات المهنة وعباراتها بسهولة كبيرة.

وعندما كانت تجد نفسها بمفردها في البيت كانت تقرأ سراً بشكل محموم، وكانت هناك مكتبة آثارية جيدة ساعدت فكتوريا في تعلم شيء عن الموضوع بسرعة. وعلى غير توقع منها، وجدت فكتوريا الحياة شيقة تماماً. كان يؤتى لها بالشاي صباحاً، ثم تخرج إلى موضع الحفريات فتساعد ريتشارد في مسائل التصوير،

وتحاول تجميع ولصق قطع الفخار المكسور، وتراقب الرجال وهم يعملون، وتعجب لمقدار خبرة وحذر المسؤولين عن استخراج الآثار، وتستمتع بأغاني وضحكات الصبية الصغار الذين يركضون لتفريغ قُفَفهم من التراب في مكبِّ الأتربة. وقد أتقنت تمييز الفترات التاريخية، والمستويات المختلفة التي يجري بها الحفر، وتعرفت على ما تم من عمل في الموسم الماضي. كان الأمر الوحيد الذي تخشاه هو ظهور مدافن أثناء الحفر؛ إذ لم تستطع -من كل ما قرأته- أن تكوِّن فكرة عما يُنتظَر منها فعله كعالمة أجناس ممارِسة! وقالت فكتوريا لنفسها: إذا ما ظهرت لدينا عظام أو قبور فسيتعين عليَّ الوقوع فريسة لزكام شديد... كلا، بل لنوبة آلام شديدة في الكبد... وألزم فراشي!

ولكن لم تظهر أية قبور، بل ظهرت -بدل ذلك- جدران أحد القصور ببطء. وقد افتتنت فكتوريا ولم تُتح لها فرصة إظهار أية قابلية أو مهارة خاصة. ولكن ريتشارد بيكر ظل ينظر إليها بشيء من التساؤل أحياناً، وكانت تحسّ بنقده المكتوم، ولكن طريقة تعامله ظلت ودودة مرحة، وقد أُعجب فعلاً بحماستها. قال لها يوماً: إنه لأمر جديد عليك تماماً أن تخرجي من إنكلترا. أتذكّر كم كنتُ منفعلاً في أول موسم سافرت له.

- منذ متى كان ذلك؟

ابتسم وقال: منذ وقت طويل. منذ خمسة عشر عاماً تقريباً.

- لا بد أنك تعرف هذا البلد جيداً.

- لم يقتصر عملي على هذا البلد وحده. سوريا... وإيران أيضاً.

- إنك تتكلم العربية بشكل ممتاز، أليس كذلك؟ لو ألبسوك لباساً عربياً فهل تستطيع إيهامهم بأنك عربي؟

هز رأسه نفياً وقال: آه، لا... هذا يحتاج لجهد كبير. وإنني أشك في أن إنكليزياً قد استطاع أبداً إيهام العرب بأنه عربي... أعني لفترة معقولة.

- ولورنس؟

- لا أحسب أن لورنس استطاع إيهامهم أبداً بأنه عربي. كلا، الرجل الوحيد الذي أعرفه ولم يكن بالإمكان تمييزه عن أهل البلد هو صاحبٌ لي وُلد عملياً في هذه المناطق. كان والده قنصلاً في كاشغار وفي أماكن نائية أخرى، وكان يتحدث كل اللهجات المحلية منذ طفولته، وأظنه حافظ عليها لاحقاً.

- وماذا حدث له؟

- لم أَرَه منذ أن تركنا المدرسة. لقد كنا في مدرسة واحدة، وقد اعتدنا أن نسميه الفقير، لأنه كان يستطيع الجلوس ساكناً تماماً وكأنه في إغشاءة غريبة. لا أدري ماذا يفعل الآن... مع أن بوسعي أن أخمّن تخميناً لا يبعد كثيراً عن الصواب.

- ألم تره أبداً بعد المدرسة؟

- الغريب أنني صادفته قبل أيام فقط... وكان ذلك في البصرة. كان أمراً غريباً بمجمله.

- غريباً؟

- نعم، فأنا لم أميزه؛ إذ كان يرتدي زياً عربياً، كوفية وقفطاناً مقلّماً وسترة عسكرية قديمة، وكان يحمل سبحة من مسابح الكهرمان تلك التي يحملونها أحياناً، وكان يطقطق حباتها بين أصابعه بشكل يوحي بالتقى، إلاّ أنه كان يستخدم -في الواقع- شيفرة عسكرية بتلك الأصوات؛ شيفرة مورس. وكان بتلك الطقطقة يبعث برسالة... لي أنا!

- وماذا قالت الرسالة؟

- ذكر فيها اسمي... أو بالأحرى لقبي أيام المدرسة، ولقبه، وبعدها نداءً للوقوف بجانبه قائلاً إنه يتوقع مشكلات.

- وهل حدثت مشكلات؟

- نعم؛ فحينما نهض ليخرج من الباب قام رجل عادي يوحي شكله بأنه تاجر متجول وأخرج مسدساً. وضربتُ أنا يده... وهرب كارمايكل.

- كارمايكل؟!

التفت إليها بسرعة للنبرة التي ذكرت بها الاسم وقال: كان هذا اسمه الحقيقي. لماذا... هل تعرفينه؟

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "كم سيبدو الأمر غريباً إن قلت له إن الرجل مات في سريري!". ولكنها قالت ببطء: نعم، كنت أعرفه.

- كنتِ تعرفينه؟ لماذا... هل...

- نعم؛ لقد مات.

- متى مات؟

قالت: "في بغداد، في فندق تيو"، ثم أضافت بسرعة: ولكن تمّ التكتم على الأمر... لا أحد يعرف بذلك.

أومأ برأسه ببطء وقال: فهمت. كان منخرطاً في هذا النوع من النشاط. ولكنك...

نظر إليها ثم قال: كيف عرفتِ بذلك؟

- تورطتُ في الأمر... صدفة.

رماها بنظرة طويلة متأملة، فسألته فجأة: أكان لقبك في المدرسة هو الشيطان؟

بدا مدهوشاً وقال: الشيطان؟ لا، كانوا يسمونني بومة... لأنني كنت أضع نظارات لامعة دوماً.

- ألا تعرف أحداً يسمونه الشيطان... في البصرة؟

هز ريتشارد رأسه بالنفي وهو يراقبها عن كثب. كانت تفكر مقطبة الجبين، ثم ما لبثت أن قالت: ليتك تخبرني بما حدث في البصرة بالضبط.

- لقد أخبرتك.

- لا، أعني أين كنت أنت عندما حدث كل ذلك؟

- آه، فهمت. كان ذلك في غرفة الانتظار في القنصلية. كنت أنتظر رؤية كلايتون، القنصل.

- ومن كان هناك غير هذين الاثنين، كارمايكل وذلك التاجر المتجول؟ هل كان هناك غيرهما؟

- كان ثمة اثنان آخران، رجل أسمر نحيل فرنسي أو سوري، وعجوز أظنه إيرانياً.

- والتاجر أخرج مسدساً فأوقفته، فخرج كارمايكل... كيف خرج؟

- استدار -بدايةً- باتجاه مكتب القنصل، وهو عند النهاية الأخرى من الممر وخلفه حديقة...

قاطعته قائلة: أعرف؛ لقد أقمتُ هناك بضعة أيام، والحقيقة أن ذلك كان بعد مغادرتك مباشرة.

قال: "أكان ذلك حقاً؟"، ثم عاد ليراقبها عن كثب... ولكن فكتوريا لم تكن منتبهة لذلك. كانت تتخيل الممر الطويل في القنصلية، ولكن بباب مفتوح عند نهايته... مفتوح على أشجار خضراء وشمس مشرقة.

قال ريتشارد: وكما كنت أقول، فقد اتجه كارمايكل في ذلك الاتجاه في البداية، ثم استدار بعدها واندفع في الاتجاه الآخر إلى الشارع... وكان ذلك آخر ما رأيته منه.

- وماذا عن التاجر المتجول؟

رفع ريتشارد كتفيه حيرة وقال: لقد فهمتُ أنه روى قصة مهلهلة حول رجل هاجمه وسطا على ممتلكاته في الليلة السابقة، قائلاً إنه تخيل أن السارق هو ذلك العربي في القنصلية. ولم أسمع المزيد عن الأمر لأنني سافرت إلى الكويت.

- مَن كان يقيم في القنصلية في ذلك الوقت؟

- رجل يدعى كروسبي... من العاملين في النفط، ولا أحد غيره. آه، نعم، أظن أن شخصاً آخر كان هناك، وقد أتى من بغداد لتخليص كتب أو شيء من هذا القبيل، ولكني لم أقابله ولا أذكر اسمه.

رددت فكتوريا مع نفسها اسم كروسبي، وتذكرت الكابتن كروسبي بجسمه القصير المربوع وحديثه المتقطع. كان شخصاً عادياً تماماً، رجلاً مستقيماً ليس لديه الكثير من البراعة وسعة الحيلة. وكان كروسبي قد عاد إلى بغداد في الليلة التي جاء فيها كارمايكل إلى فندق تيو. أيمكن أن يكون كارمايكل قد عاد أدراجه فجأة في ذلك الممر في القنصلية واتجه إلى الشارع بدل الدخول على القنصل لأنه رأى كروسبي في الطرف الآخر من الممر؟

كانت مستغرقة في التفكير بتفسير ذلك، وقد جفلت مع شيء من الشعور بالذنب إذ رفعت بصرها فرأت ريتشارد يراقبها بإمعان. سألها قائلاً: لماذا تريدين معرفة كل ذلك؟

- إنني مهتمة بالأمر فقط.

- هل من أسئلة أخرى؟

- هل تعرف أحداً باسم لوفارج؟

- لا؛ لا يمكنني تذكّر اسم كهذا. أهو رجل أم امرأة؟

- لا أدري.

كانت تتساءل عن كروسبي. كروسبي؟ الشيطان؟

* * *

في تلك الليلة، عندما تمنت فكتوريا للرجلين ليلة سعيدة ومضت إلى فراشها، قال ريتشارد للدكتور باونسفوت جونز: إنني أتساءل إن كان بوسعي إلقاء نظرة على تلك الرسالة التي جاءتك من إيميرسن. أرغب في أن أرى ما قاله بالضبط عن هذه الفتاة.

- بالطبع يا صديقي العزيز، بالطبع. إنها موجودة في مكان ما هنا. أذكر أنني كتبتُ بعض الملاحظات على ظهرها. لقد أسهب في مدح فيرونيكا إن لم تخني الذاكرة... قال إنها شديدة الحرص. تبدو لي فتاة رائعة، رائعة تماماً. كما أنها كانت شجاعة إذ لم تفتعل ضجة كبرى بسبب فقدان متاعها. لقد كان من شأن أغلب الفتيات أن يطلبن نقلهن دون إبطاء لبغداد لشراء ملابس جديدة. إنها فتاة بسيطة غير معقدة. بالمناسبة، كيف حدث أن فقدت أمتعتها؟

قال ريتشارد بحياد بارد: تم تخديرها بالكلوروفورم، واختطافها، وسجنها في بيت محلي.

- نعم، يا إلهي! لقد قلتَ لي ذلك من قبل... تذكرتُ الآن، وهي قصة غير ممكنة. وهي تذكّرني... بماذا تذكّرني؟ آه، نعم؛

تذكرني بإليزابيت كاننغ. لعلك تذكر كيف خرجت علينا بقصة مستحيلة التصديق بعد أن فقدناها لمدة أسبوعين. كان في الأدلة التي ساقتها تخبط مثير جداً... إن كانت هي القضية نفسها التي أفكر فيها. وقد كانت فتاة دميمة جداً بحيث لم يبدُ من المرجح وجود رجل في القضية. أما فكتوريا الصغيرة... أو فيرونيكا... لا أستطيع أبداً تذكر اسمها بشكل صحيح... فإنها فتاة جميلة جداً، ويُحتمل كثيراً أن يكون في قضيتها رجل ما.

قال ريتشارد ببرود: كانت ستبدو أجمل لو لم تصبغ شعرها.

- وهل تصبغه؟ يا لاتساع معرفتك بهذه المسائل!

- وماذا بشأن رسالة إيميرسن يا سيدي؟

- طبعاً، طبعاً... لا أدري أين وضعتها. ولكن ابحث حيث شئت؛ فأنا حريص على العثور عليها على أية حال، بسبب تلك الملاحظات التي كتبتها على ظهرها، وبسبب رسمة رسمتها عليها لتلك السبحة الدائرية.

* * *

الفصل العشرون

في عصر اليوم التالي أطلق الدكتور باونسفوت جونز زفرة ملل عندما تناهى إلى مسامعه صوتٌ ضعيفٌ لسيارة تقترب، وسرعان ما حدد موقع السيارة التي كانت تدور الصحراء باتجاه التل.

قال بحقد: زوّار، ويأتون في أسوأ الأوقات أيضاً! أريد الإشراف على معالجة تلك القطعة التي تشبه الوردة والتي عثرنا عليها في الزاوية الشمالية الشرقية، إذ ينبغي معالجتها بالسيليلوز. لا بد أنهم بعض البلهاء الذين أتوا من بغداد لشغلنا بالكثير من الثرثرة الاجتماعية، ويتوقعون أن نريهم موقع الحفريات كله.

قال ريتشارد: هنا تكمن الفائدة من فكتوريا. أتسمعينني يا فكتوريا؟ عليك أن تشرفي بنفسك على جولة لهم في الموقع.

أجابت فكتوريا: ربما كانت المعلومات التي أقدمها لهم مغلوطة كلها؛ فأنا حقاً قليلة الخبرة كما تعلم.

قال ريتشارد فرحاً: بل أحسبك تتقدمين بشكل رائع في الحقيقة. تلك الملاحظات التي أبديتها هذا الصباح عن الآجر المحدَّب يمكن

للمرء أن يحسبها أتت مباشرة من كتاب «ديلونغاز».

احمر وجه فكتوريا قليلاً وقررت أن تعمد -عند إلقاء ثقافتها الموسوعية- إلى بعض التغيير في النصوص التي قرأتها. لقد كانت نظرة ريتشارد المتسائلة من خلف نظارته تربكها أحياناً. قالت باستسلام: سأبذل ما في وسعي.

قال ريتشارد: إننا ندفع إليك بكل المهمات الصعبة.

ابتسمت فكتوريا لقوله. والحقيقة أن أنشطتها خلال الأيام الخمسة الماضية قد أدهشتها كثيراً؛ فقد حمّضت أفلاماً باستخدام ماء تم ترشيحه عبر القطن وتحت ضوء مشكاة بدائية داكنة اللون فيها شمعة تنطفئ دوماً في أحرج الأوقات، وكانت طاولة غرفة التحميض المظلمة عبارة عن علبة كرتون كبيرة، وكان عليها -وهي تعمل- أن تقعي أو تجثو على ركبتيها. أما غرفة التحميض نفسها فقد كانت موضع تندر ريتشارد وسخريته، وقد أكد لها الدكتور باونسفوت أن بانتظارها المزيد من المفاجآت السارة القادمة...

لقد أثارت قُفف الفخار المكسور في البداية سخريتها ودهشتها (رغم حرصها على عدم إظهار ذلك). إذ ما الفائدة من كل هذه القطع الخشنة من الفخار؟ ولكن عندما وجدت -بعد ذلك- الأجزاء المفقودة التي تجمع هذه الشظايا، ولصقتها بعضها ببعض، ودعّمتها ضمن صناديق من الرمل... بدأت -عندها- تهتم بما تفعله. تعلّمت تمييز الأشكال والأنماط الأثرية، ووصلت أخيراً إلى أن حاولت أن تتخيل لماذا وكيف كانت تلك الأواني تستخدم قبل نحو ثلاثة آلاف عام. وفي المنطقة الصغيرة التي تم العثور فيها على بيوت صغيرة

بسيطة لأشخاص عاديين قامت فكتوريا بتخيل تلك البيوت كما كانت في الأساس، بالناس الذين عاشوا فيها، بحاجاتهم وممتلكاتهم الصغيرة وأعمالهم، وبآمالهم ومخاوفهم. وبما أن فكتوريا كانت ذات خيال خصب، فقد كانت الصور تنهض في مخيلتها بسهولة. وفي ذلك اليوم الذي عثروا فيه على إناء فخاري صغير محشور في أحد الجدران وبداخله أكثر من ستة أقراط ذهبية انفعلت فكتوريا أيما انفعال، وقال ريتشارد -وهو يبتسم- إن ذلك ربما كان مهراً لابنة صاحب البيت.

صحون مليئة بالحنطة، أقراط ذهبية تم ادخارها لتكون مهراً، إبرٌ من العظم، مطاحن يدوية وأجران، تماثيل صغيرة وتمائم... كل ما يمثل الحياة اليومية، ومخاوف وآمال مجتمع من الناس البسطاء العاديين. قالت فكتوريا لريتشارد: هذا ما أجده ساحراً جداً، فقد كنت أحسب دوماً أن الآثار لا تعدو أن تكون قصوراً ومقابر ملكية.

ثم أضافت بابتسامة غريبة صغيرة: ملوك بابل! ولكن ما أحبه كثيراً في هذا الأمر كله هو أنه يحدثك عن أناس عاديين بسطاء... أناس مثلي.

كانت تفكر في هذه الأمور وهي تراقب الزائرَيْن يصعدان جانب التل، وذهب ريتشارد لاستقبالهما وتبعته فكتوريا. كانا رجلَيْن فرنسيين مهتمَّيْن بالآثار، وكانا يقومان بجولة تشمل سوريا والعراق. وبعد تحيات المجاملة أخذتهما فكتوريا في جولة على موقع الحفريات ورددت عليهما -بطريقة ببغائية- طبيعة ما يجري من عمل. ولكن بما أنها كانت فكتوريا التي لا تستطيع مغالبة طبعها،

فقد أضافت تزويقات مختلفة من عندها، مبررة ذلك لنفسها بضرورة جعل الأمر أكثر إثارة.

لاحظت أن لون أحد الرجلين كان ممتقعاً تماماً، وكان يجرّ نفسه جرّاً دون كبير اهتمام، ثم ما لبث أن طلب أن تعذره فكتوريا لأنه يريد العودة للمنزل، إذ أنه لا يشعر بأنه على ما يرام منذ صباح ذلك اليوم... والشمس تزيد حالته سوءاً.

ثم غادر باتجاه بيت البعثة، وشرح لها الآخر بصوت منخفض أن علة صاحبه تكمن في معدته مع الأسف، وأن طعام بغداد لم يناسبه كما يبدو، ولذلك ما كان عليه أن يخرج في هذه الرحلة اليوم.

انتهت الجولة وبقي الفرنسي يتحدث لفكتوريا، وأخيراً نودي الرجل، واقترح الدكتور باونسفوت جونز -بكل إصرار الضيافة الأصيلة- ضرورة بقاء الزائرين لتناول الشاي قبل المغادرة. ولكن الفرنسي اعتذر عن ذلك بدعوى أن عليهما أن لا يتأخرا في الرحيل حتى يحل الظلام وإلاّ فإنهما لن يجدا طريقهما أبداً، وقد قال ريتشارد بيكر فوراً إن ذلك صحيح تماماً. وهكذا تم استدعاء الرجل المريض من البيت وانطلقت السيارة بأقصى سرعة.

دمدم الدكتور باونسفوت جونز قائلاً: "أحسب أن هذه لا تعدو أن تكون البداية، وسيتتابع علينا الزوار الآن في كل يوم"، ثم أخذ قطعة كبيرة من الخبز العربي ودهنها بمربى الخوخ بكثافة.

ذهب ريتشارد إلى غرفته بعد تناول الشاي، فقد كانت لديه

رسائل يريد الإجابة عليها وأخرى يريد كتابتها استعداداً للذهاب إلى بغداد في اليوم التالي. وفجأة قطب جبينه؛ فرغم أنه لم يكن امرأ شديد الترتيب فيما يخص المظاهر الخارجية، إلاّ أن له في ترتيب ملابسه وأوراقه طريقة لم تكن تتغير أبداً، وقد لاحظ الآن أن كل درج من أدراجه قد تم العبث به، وكان متأكداً أن ذلك لم يكن من فعل الخدم. لا بد -إذن- أنه ذلك الزائر المريض الذي افتعل عذراً ليعود إلى البيت وفتش كل أغراضه ببرود. تأكد من عدم فقدان شيء من أغراضه، كما لم يتم لمس ماله. ما الذي كانوا يبحثون عنه إذن؟ تجهم وجهه وهو يفكر فيما ينطوي عليه الأمر.

ذهب إلى غرفة الآثار ونظر في الدرج الذي يحتوي على الأختام وطبعاتها، ثم صدرت منه ابتسامة أقرب إلى التكشيرة... إذ لم يتمّ لمس شيء أو أخذه. ذهب إلى غرفة المعيشة، وكان الدكتور باونسفوت خارجاً في الباحة مع رئيس العمال، ولم تكن هناك إلاّ فكتوريا غارقة في كتاب تقرؤه.

قال ريتشارد دون مقدمات: لقد فتش شخصٌ ما غرفتي.

رفعت فكتوريا بصرها مدهوشة وقالت: لماذا؟ ومن فتشها؟

- ألم تكوني أنت؟

قالت فكتوريا بسخط: أنا؟! بالطبع لا. ولماذا عساي أعبث بأغراضك؟

نظر إليها بإمعان ثم قال: لا بد أنه ذلك الغريب الذي ادّعى المرض وجاء إلى البيت.

- هل سرق شيئاً؟

- لا؛ لم يُفقد شيء.

- ولكن لماذا يُقدِم أي امرئ...

قاطعها ريتشارد قائلاً: حسبتُ أنك ربما كنت تعرفين الجواب.

- أنا؟!

- ذلك أنك اعترفت بأن أموراً غريبة قد حدثت لك.

- آه، هذا ما تعنيه... نعم.

بدا وكأنها قد جفلت قليلاً، ثم قالت ببطء: ولكنني لا أرى سبباً يجعلهم يفتشون غرفتك أنت. فليس لك علاقة بالـ...

- بماذا؟

لم تجبه فكتوريا لبضع لحظات. بدت غارقة في أفكارها، ثم قالت أخيراً: إنني آسفة، ماذا قلت؟ لم أكن منتبهة.

لم يكرر ريتشارد سؤاله، بل سألها بدل ذلك: ماذا تقرئين؟

- ليس لدى المرء خيارات كثيرة لقراءة قصص خفيفة هنا. لا يوجد إلاّ «قصة مدينتين» و«الكبرياء والهوى» وقليل غيرهما. إنني أقرأ «قصة مدينتين».

- ألم تقرئيها من قبل؟

- أبداً؛ كنت دوماً أرى أن من شأن تشارلز ديكنز أن يكون مملاً.

- يا لهذه الفكرة!

- ولكنني أجدها ممتعة جداً.

- إلى أين وصلتِ فيها؟

ثم نظر من فوق كتفها وقرأ من الرواية: «ثم عدَّت المرأة الحائكة واحداً».

- إنني أراها امرأة مخيفة جداً.

- السيدة دوفارج؟ نعم، شخصية متقنة. مع أنني كنت أشك دوماً في قدرة المرء على الاحتفاظ بسجل للأسماء عن طريق الحياكة. ولكنني لست حائكاً بالطبع لأجزم بذلك.

قالت فكتوريا وهي تفكر في المسألة: أظن ذلك ممكناً. تقوم بغرزة عادية وغرزة معقوفة، ثم تقوم بغرزات مبتكرة، ثم غرزة خاطئة بين الحين والآخر، أو تغفل غرزات معينة، وكل غرزة تقوم مقام حرف أو اسم. نعم، يمكن القيام بذلك... وهي عملية تمويه بالطبع، بحيث يبدو الأمر وكأن الحائكة لا تتقن الحياكة وترتكب أخطاء فيها...

فجأة، وبالتماعٍ حي كالتماع البرق، تمثَّل لذهنها أمران في وقت واحد وكان لهما تأثير الانفجار عليها: اسم... صورة ذهنية تذكرتها. الرجل بوشاحه الأحمر الخشن الذي حيك يدوياً، وقد

أطبق عليه يديه... الوشاح الذي سارعت لالتقاطه لاحقاً ودسّه في أحد الأدراج. ومع ذلك الاسم دوفارج. ليس لوفارج... بل دوفارج، السيدة دوفارج!

عادت إلى نفسها على صوت ريتشارد وهو يقول لها بلطف: أتوجد مشكلة؟

- لا... لا، لقد كنت أفكر فقط في شيء ما.

- فهمت.

فكرت فكتوريا في أنهم سيذهبون جميعاً إلى بغداد غداً. غداً ستنتهي فترة استراحتها، فلقد مرّ أكثر من أسبوع نعمتْ فيه بالأمان والسلام والوقت الذي تستعيد به رباطة جأشها. وقد استمتعت بهذا الوقت.. استمتعت به كثيراً. وخاطبت نفسها قائلة: "ربما كنتُ جبانة، نعم ربما كان ذلك هو السبب". كانت قد تحدثت عن المغامرات بفرح، ولكنها لم تحبها كثيراً عندما جاءتها. كرهت ذلك الصراع ضد الكلوروفورم، وذلك الاختناق البطيء، ولقد خافت كثيراً في تلك الغرفة العلوية عندما قال ذلك العربي: «بكرة».

وها هي الآن مضطرة للعودة إلى ذلك كله؛ لأنها كانت موظفة لدى السيد داكين وتتقاضى منه أجراً، ولا بد لها أن تفعل ما يبرر ذلك الأجر وتظهر بمظهر شجاع! بل ربما كان عليها أن تعود حتى إلى «غصن الزيتون». ارتعدت قليلاً إذ تذكرت الدكتور راثبون ونظرته الغامضة الباحثة. لقد حذّرها...

ولكن ربما لا يكون لزاماً عليها أن تعود إلى هناك. ربما قال

السيد داكين إن من الأفضل أن لا تعود، خاصة وقد عرفوا الآن بأمرها. ولكن سيتعين عليها العودة إلى مكان سكناها لأخذ أمتعتها؛ لأن الوشاح الأحمر كان ملقى في حقيبتها دون اهتمام. كانت قد حشرت كل شيء في الحقائب عندما غادرت إلى البصرة، وبمجرد أن تسلّم ذلك الوشاح إلى السيد داكين ربما تنتهي مهمتها، وربما قال لها كما يقولون في الأفلام: آه، عمل جيد يا فكتوريا!

رفعت بصرها لترى ريتشارد يراقبها، ثم قال: بالمناسبة، هل ستكونين قادرة على الحصول على جواز سفرك غداً؟

- جواز سفري؟

فكرت فكتوريا في الموقف. كان أمراً يلائم طبيعتها أنها لم تحدد -بعد- خطة عملها فيما يخص وجودها ضمن البعثة الأثرية. وبما أن فيرونيكا الحقيقية (أو فينيسيا) سوف تصل من إنكلترا قريباً فمن الضروري الانسحاب بهدوء، ولكن المشكلة التي لم تكن قد طرحت نفسها أمامها بعد هي إن كانت ستكتفي بالاختفاء ببساطة أو ستعترف بمكرها وتبدي الندم المطلوب، أم ستقرر أمراً آخر. كانت فكتوريا تميل دوماً إلى تبني موقف خلاصته أن أمراً ما سيستجد.

قالت كمن يكسب الوقت: حسناً، لست متأكدة من ذلك.

شرح لها قائلاً: إنه ضروري، لشرطة هذه المحافظة؛ فهم يسجلون رقمه واسمك وعمرك وعلاماتك الفارقة وغير ذلك من تلك التفصيلات، ولكن بما أننا لا نملك الجواز فإنني أرى أن علينا

إرسال اسمك وأوصافك لهم. وبالمناسبة، ما هو اسم عائلتك؟ لقد كنت أناديك فكتوريا دوماً.

استجمعت فكتوريا قواها بشجاعة وقالت: هيا، لا تتذاكَ؛ أنت تعرف اسم عائلتي كما أعرفه أنا.

- هذا ليس صحيحاً تماماً.

انثنت ابتسامته للأعلى لتعطي لشكله شيئاً من القسوة، ثم قال: أنا أعرف اسم عائلتك بالفعل، ولكنني أظن أنك أنتِ التي لا تعرفينه.

- إنني أعرف اسمي بالطبع.

- إذن سأتحداك أن تقوليه لي... الآن.

أصبح صوته فجأة قاسياً لاذعاً، وقال: لا فائدة من الكذب؛ لقد انتهت اللعبة، وقد كنتِ ذكية جداً فيها؛ فقد درستِ دروسك جيداً وأبديتِ ملاحظات توحي بالثقافة والعلم... ولكن هذا النوع من الانتحال لا يمكن الاستمرار فيه طوال الوقت. لقد نصبتُ لك مصائد، ووقعتِ فيها. لقد اقتطفتُ لك مقاطع على أنها من كتب، وكانت هراء بحتاً، ولكنك تقبلتِها.

توقف قليلاً ثم أضاف: أنت لست فينيسيا سافيل. فمن أنت؟

- لقد قلتُ لك مَن أنا في أول مرة التقيتك بها. أنا فكتوريا جونز.

- ابنة أخ الدكتور باونسفوت جونز؟

- لست ابنة أخيه... ولكن اسم عائلتي جونز بالفعل.

- لقد قلتِ لي أشياء كثيرة أخرى.

- نعم، قلت. **وكانت كلها صحيحة!** ولكنني رأيت أنك لم تصدقها، وقد أثار ذلك جنوني؛ فرغم أنني أكذب أحياناً (بل في أغلب الأحيان في الواقع) إلاّ أن ما أخبرتك به لم يكن كذباً. وهكذا، ولكي أجعل نفسي مقنعة أكثر قلت لك إن اسمي هو باونسفوت جونز... ولقد قلت ذلك من قبل في هذا البلد وكان وقعه ممتازاً. من أين لي أن أعرف أنك كنت قادماً إلى هذا المكان؟

- لا بد أنها كانت صدمة كبيرة لك عندما علمتِ بذلك، ولكنك تلقيت الأمر بشكل رائع... ببرود كبرود الثلج.

- ليس من الداخل؛ فقد كنت أرتجف تماماً. ولكنني رأيت أن أنتظر لأشرح الأمر... ففي كل الأحوال سأكون في مأمن هنا.

- في مأمن؟

فكر في الكلمة لحظة ثم قال: اسمعيني يا فكتوريا، أكانت صحيحةً تلك القصة الخرافية السخيفة التي رويتِها حول تخديرك بالكلوروفورم؟

- بالطبع كانت صحيحة! ألا يمكنك أن ترى، لو أردتُ تلفيق قصة للفّقتُ قصة أكثر إقناعاً بكثير، ولقلتها بشكل أفضل أيضاً!

- بعد ازدياد معرفتي بك قليلاً الآن يمكنني أن أصدق ذلك

منك! ولكن ينبغي أن تعترفي أن القصة كانت تبدو مستهجنة جداً لأول وهلة.

- ولكنك مستعد لأن تراها ممكنة الآن، لماذا؟

قال ريتشارد ببطء: لأنك إن كنت متورطة -كما تقولين- بحادث مقتل كارمايكل... فربما كانت القصة صحيحة.

- من هناك بدأ الأمر كله.

- من الأفضل أن تخبريني بالقصة كلها.

نظرت فكتوريا إليه بإمعان ثم قالت: إنني أتساءل إن كان بوسعي الوثوق بك.

- سبحان من يقلب الأحوال رأساً على عقب! هل تدركين بأن شكوكاً قوية كانت تراودني بانك زرعت نفسك هنا باسم مستعار لتحصلي على معلومات مني أنا؟ وربما كان هذا فعلاً ما تعملينه.

- أتعني أنك تعرف شيئاً عن كارمايكل يودون هم لو يعرفونه؟

- من هم بالضبط هؤلاء الـ «هم»؟

قالت: سأضطر لإخبارك كل شيء؛ إذ لا توجد أي طريقة أخرى. وإن كنت واحداً منهم فأنت تعرف ذلك أصلاً، ولذلك لا يهم.

ثم أخبرته بما حدث ليلة مقتل كارمايكل، وبمقابلتها لداكين،

ورحلتها إلى البصرة، وتوظيفها في «غصن الزيتون»، والدكتور راثبون وتحذيره لها، والخاتمة التي جرت لها، بما في ذلك لغز شعرها المصبوغ. الأمران الوحيدان اللذان استبقتهما لنفسها هما الوشاح الأحمر ومدام دوفارج.

توقف ريتشارد عند نقطة الدكتور راثبون قائلاً: الدكتور راثبون؟ أتظنين أنه متورط في هذا الأمر أو يقف خلفه؟ ولكن يا عزيزتي، إنه رجل مرموق بالغ الأهمية. إنه معروف في كل أنحاء العالم وتنصبُّ عليه التبرعات من كل مكان لدعم مشروعاته.

سألته فكتوريا: أليس بحاجة ليكون كلَّ ذلك الذي ذكرتَه حتى ينجح في أمر كهذا؟

قال ريتشارد متأملاً: لقد كنتُ أعتبره دوماً حماراً متبجحاً.

- وهذا -أيضاً- غطاء وتمويه ممتاز.

- نعم... نعم، أظنه كذلك. ومَن هذا لوفارج الذي سألتِني عنه؟

- مجرد اسم آخر... ويوجد اسم آخر أيضاً: آنا شيل.

- آنا شيل؟ لا، لم أسمع بها أبداً.

- إنها مهمة، ولكنني لا أعلم بالضبط كيف ولماذا؟ الأمر كله مختلط معقد.

- أخبريني فقط مرة أخرى، من هو الرجل الذي وضعك على هذا الطريق كله؟

- إدوا... آه، تعني السيد داكين. أظنه يعمل في قطاع النفط.

- أهو رجل متعب محني الظهر يبدو فارغاً؟

- نعم. ولكنه ليس حقاً كذلك... أعني ليس فارغاً.

استند ريتشارد إلى الخلف في جلسته ونظر إليها وقال: هل ما أراه حقيقي؟ هل أنت حقيقية؟ وهل أنت البطلة الملاحَقة أم المغامِرة الشريرة؟

قالت فكتوريا بأسلوب عملي: النقطة الأساسية هي: ماذا سنقول للدكتور باونسفوت جونز عني؟

- لا شيء؛ لن يكون ذلك ضرورياً.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

انطلقوا إلى بغداد مبكرين. وكانت معنويات فكتوريا منخفضة على نحو غريب، بل إنها أحست بغصة في حلقها وهي تلتفت إلى مقر البعثة، ولكن ما سببه الارتجاج العنيف المجنون للشاحنة من عدم ارتياح وألم ساعد في صرف ذهنها عن كل ما عدا هذا الألم الممضّ. بدا لها غريباً أن تستقل سيارة على هذا الطريق مرة أخرى، وهي تمر بقوافل الحمير وبالشاحنات التي يعلوها التراب، وقد انقضى ما يقرب من ثلاث ساعات قبل أن يصلوا إلى ضواحي بغداد. أنزلتهم الشاحنة في فندق تيو، وذهبت ومعها الطباخ والسائق للقيام بشراء الحاجات الضرورية، ووجد الدكتور باونسفوت جونز وريتشارد بيكر رزمة ضخمة من الرسائل بانتظارهما في الفندق.

ثم ظهر ماركوس ببنيته القوية ووجهه المستبشر فحيا فكتوريا بكل مرحه ووده المعهود قائلاً: آه، لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة، فأنت لا تأتين إلى فندقي. لماذا لا تأتين لأسبوع أو أسبوعين؟ سوف تتغدين هنا اليوم، وسيكون لك كل ما تريدين من لحوم ودجاج.

بدا واضحاً أن أحداً في فندق تيو لم يلاحظ مسألة اختطاف

فكتوريا، وربما كان إدوارد قد امتنع عن إبلاغ الشرطة بناء على نصيحة من السيد داكين. سألت فكتوريا: أتعرف إن كان السيد داكين في بغداد يا ماركوس؟

- السيد داكين؟ آه، نعم، شخص لطيف جداً... وهو صديق لك بالطبع. كان هنا بالأمس... لا، أول أمس. والكابتن كروسبي أيضاً. أتعرفينه؟ إنه صديق السيد داكين. سيصل اليوم من كرمنشاه.

- أتعرف أين مكتب السيد داكين؟

- أعرف بالتأكيد. الجميع يعرفون شركة النفط العراقية الإيرانية.

- أريد الذهاب إلى هناك الآن بسيارة أجرة، ولكنني أريد التأكد من معرفة السائق للمكان.

قال ماركوس متلطفاً: "سأدلّه بنفسي"، ثم صحبها إلى رأس الزقاق وصاح بكل قوة على عادته، فهرع إليه خادم أجفلته الصيحة، وطلب منه ماركوس إحضار سيارة أجرة. ثم رافقها ماركوس إلى السيارة فتكلم مع السائق، ثم عاد خطوة إلى الوراء ملوحاً بيده فقالت له فكتوريا: كما أنني أريد غرفة، فهل هذا ممكن؟

- نعم، نعم؛ سأعطيك غرفة رائعة، وسأطلب لك الليلة قطعة اللحم الضخمة، وعندي بعض الكافيار الخاص جداً.

- ممتاز. آه يا ماركوس، هل لك أن تقرضني بعض المال؟

- بالطبع يا عزيزتي. ها هو المال، خذي كل ما تريدين.

انطلقت السيارة بعد أن أطلقت بوقاً عالي الصوت، واستندت فكتوريا إلى ظهر مقعدها وهي تمسك برزمة من الأوراق النقدية والعملة المعدنية. وبعد خمس دقائق دخلت مكاتب شركة النفط العراقية الإيرانية وطلبت السيد داكين. وعندما أدخلوها إليه رفع بصره عن المكتب الذي كان يكتب عليه، ثم نهض وصافحها بأسلوب رسمي قائلاً: الآنسة... الآنسة جونز، أليس كذلك؟ أحضر لنا قهوة يا عبد الله.

وعندما أُغلق الباب الكاتم للصوت خلف الموظف قال داكين بهدوء: ما كان ينبغي لك القدوم إلى هنا.

- لقد اضطررت إلى ذلك هذه المرة بسبب شيء لا بد لي من إبلاغك به على الفور... قبل أن يحدث لي المزيد.

- يحدث لك المزيد؟ هل حدث لك شيء؟

- ألا تعرف؟ ألم يخبرك إدوارد؟

- ما أعرفه هو أنك ما زلت تعملين في «غصن الزيتون». لم يخبرني أحد بشيء.

هتفت فكتوريا: كاثرين!

- عفواً، ماذا تعنين؟

- تلك اللئيمة كاثرين! أراهن على أنها لفقت قصة أقنعت بها إدوارد، وصدَّقها المغفل.

قال: "حسناً، دعينا نسمع القصة"، ثم مضت عيناه إلى شعر

فكتوريا وقال: اعذريني إن قلت ذلك، ولكنني أفضلك بشعرك الأحمر العادي.

- هذا ليس إلاّ جزءاً من المشكلة.

طرق الخادم الباب، ثم دخل بفنجانين صغيرين من القهوة الحلوة، وعندما ذهب قال داكين: والآن خذي كل وقتك وأخبريني بكل شيء؛ لا يمكن التنصت على كلامنا هنا.

انطلقت فكتوريا تروي قصة مغامراتها، وكعادتها عندما كانت تتحدث مع داكين، استطاعت الكلام بطريقة متماسكة وموجزة. ثم أنهت قصتها بذكر الوشاح الأحمر الذي أسقطه كارمايكل وربْطِها بينه وبين السيدة دوفارج. بعد ذلك نظرت بلهفة إلى داكين.

كان داكين قد بدا لها -عندما دخلت- أكثر انحناء وتعباً من المعتاد، أما الآن فقد رأت التماعة جديدة تبرق في عينيه. قال: ينبغي عليّ قراءة مجموعة روايات ديكنز من جديد.

- إذن فأنت ترى أنني على حق؟ أتظن أن الكلمة التي قالها هي دوفارج بالفعل... وأن رسالةً ما قد حيكت على الوشاح؟

- أظن أن هذا هو أول إنجاز حقيقي نحققه... وأنت مَن يجب أن نشكره على ذلك. ولكن المهم هو الوشاح، أين هو؟

- مع أمتعتي. دسسته في أحد الأدراج في تلك الليلة... وأذكر أنني وضعت كل شيء في الحقائب دون ترتيب عندما حزمت أمتعتي.

- ألم يحدث أن ذكرت لأحد، لأي أحد كائناً من كان، أن الوشاح يعود لكارمايكل؟

- لم أفعل لأنني نسيت أمره تماماً، وقد حشرته مع بعض الثياب الأخرى في حقيبة عندما ذهبت إلى البصرة، حتى إنني لم أفتح الحقيبة منذ ذلك الحين.

- إذن لا بد أن يكون هناك. حتى لو فتشوا أمتعتك فلن يولوا اهتماماً لوشاح قذر قديم... إلاّ إن كانت لديهم معلومات عنه، وهو أمر مستحيل فيما أرى. كل ما علينا فعله الآن هو جمع كل أمتعتك وإرسالها لك في الـ... هل لديك مكان تقيمين فيه بالمناسبة؟

- لقد حجزت غرفة في فندق تيو.

أومأ داكين برأسه وقال: هذا أفضل مكان لك.

- هل عليّ أن... هل تريدني أن أعود إلى «غصن الزيتون»؟

نظر إليها داكين بإمعان ثم قال: أأنت خائفة؟

برز ذقن فكتوريا للأمام وقالت متحدية: كلا، سأذهب إن رغبتَ بذلك.

- لا أظن ذلك ضرورياً... ولا حكيماً. وكائناً ما كانت الطريقة التي عرفوا بها بالأمر فإنني أفترضُ أن أحدهم انتبه لأنشطتك، ولن تستطيعي -والحالة هذه- أن تحصلي على المزيد من المعلومات، ولذلك من الأفضل أن تبقي بعيدة.

ثم ابتسم وأضاف: وإلاّ فلربما وجدتُ صبغة شعرك حمراء قانية في المرة القادمة.

صاحت فكتوريا: هذا ما أريد معرفته أكثر من أي شيء آخر! لماذا صبغوا شعري؟ لقد فكرتُ وفكرت ولم أجد تفسيراً لذلك، فهل تستطيع تفسيره؟

- لا أجد إلاّ تفسيراً بشعاً واحداً، وهو أن جثتك سيصعب التعرف عليها.

- ولكن لو أرادوني جثة هامدة لماذا لم يقتلوني مباشرة؟

- هذا سؤال مهم جداً يا فكتوريا، وهو السؤال الذي أريد إجابة له أكثر من أي سؤال آخر.

- أليست لديك أية فكرة عن السبب؟

قال داكين وهو يبتسم ابتسامة باهتة: ليس لديّ أيّ مؤشر يدل على السبب.

- على ذكر المؤشرات؛ هل تتذكر قولي إنني رأيت في السير كروفتن لي شيئاً بدا لي غيرَ طبيعي في ذلك الصباح في فندق تيو؟

- نعم؟

- أنت لم تعرفه شخصياً، أليس كذلك؟

- بلى؛ لم أكن قد قابلته من قبل.

- هذا ما خمّنته؛ ذلك أنه لم يكن السير روبرت كروفتن لي.

ثم انطلقت -من جديد- في سردٍ حيٍّ ابتداءً بالدمّلة التي كانت على رقبة السير روبرت، وعندما أكملت قال داكين: هكذا تمت العملية إذن. لم أفهم أبداً كيف أمكن لكارمايكل أن يكون مطمئناً إلى الحد الذي يُقتل فيه في تلك الليلة. لقد وصل سالماً إلى كروفتن لي... وكروفتن لي هو الذي طعنه، ولكنه تمكن من الفرار، واندفع إلى غرفتك قبل أن ينهار، وظل متمسكاً بالوشاح... تمسكاً يائساً بالمعنى الحرفي للكلمة.

- أتظن أنهم اختطفوني لأنني كنت قادمة لإبلاغك بذلك؟ ولكن أحداً لم يكن يعرف... باستثناء إدوارد.

- أظنهم شعروا بضرورة التخلص منك بسرعة. لقد بدأتِ تفهمين -بسرعة- الكثيرَ ممّا يدور في «غصن الزيتون».

- لقد حذرني الدكتور راثبون، بل كان تحذيره أقرب إلى التهديد، وأظنه أدرك أنني لست كما أدّعي.

قال داكين ببرود: ليس راثبون بالأحمق.

- أنا سعيدة لعدم اضطراري للعودة إلى هناك. لقد تظاهرتُ بالشجاعة قبل قليل... ولكنني مرعوبة جداً في الواقع. ولكن كيف يسعني الاتصال بإدوارد إن لم أذهب إلى هناك؟

ابتسم داكين وقال: إن لم يكن بمقدورك الذهاب إلى الجبل فسنجعل الجبل يأتي إليك. اكتبي له ملاحظة الآن، قولي له -فقط- إنك في فندق تيو، واطلبي منه أن يجمع أمتعتك ويأتيك بها هناك. أنا ذاهب لاستشارة الدكتور راثبون هذا الصباح بخصوص إحدى

السهرات التي يقيمها في ناديه، وسيكون من السهل عليَّ أن أدس ملاحظة لسكرتيره إدوارد، أما أنت فاذهبي للفندق وابقي هناك. واسمعي يا فكتوريا...

- نعم؟

- إذا ما وجدت نفسك في ورطة... مهما كان نوعها، فافعلي كل ما في وسعك لإنقاذ نفسك. إن أعداءك شديدو المراس، وأنت تعرفين الكثير مع الأسف. وبمجرد أن يصبح متاعك في فندق تيو تكون التزاماتك تجاهي قد انتهت. أرجو أن تفهمي ذلك.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

بعد أن صفّفت شعرها بكل عناية ووضعت المساحيق على وجهها، جلست فكتوريا على شرفة فندق تيو لتلعب مرة أخرى دور جولييت المعاصرة التي تنتظر روميو... وقد جاء روميو في نهاية الأمر، حيث ظهر على العشب أسفل منها ينظر هنا وهناك. نادته فرفع بصره وقال: آه، ها أنت يا فكتوريا!

قالت: "اصعد إلى هنا". وبعد دقيقة وصل إلى الشرفة التي كانت مهجورة. قالت فكتوريا: "هنا أكثر هدوءاً"، فيما كان إدوارد ينظر إليها حائراً، ثم قال: هل فعلتِ شيئاً لشعرك يا فكتوريا؟

أطلقت فكتوريا زفرة غيظ وقالت: إنْ ذكر لي أحدٌ الشعرَ فإنني أظن أنني سأضربه على رأسه حقاً.

- لقد كنت أحب شعرك كما كان من قبل.

- قل ذلك لكاثرين!

- كاثرين؟ وما علاقتها بذلك؟ ثم أين كنت طوال هذه الفترة يا فكتوريا؟ لقد قلقتُ عليك كثيراً.

- أحقاً قلقت؟ أين تظنني كنت؟

- لقد أوصلَتْ لي كاثرين رسالتك... قالت إنك أوصيتِها أن تبلغني بأنك سافرتِ إلى الموصل فجأة لأمر مهم جداً، وأنني سأتلقى منك رسالة فيما بعد.

قالت فكتوريا بصوت يكاد يوحي بالشفقة: وأنت صدقت ذلك؟

- ظننت أنك وجدت رأس خيطٍ للغزٍ ما، ومن الطبيعي -في هذه الحالة- أن لا تستطيعي قول الكثير لكاثرين.

- ولم يخطر لك أن كاثرين تكذب، وأنهم قد خدروني؟

حدق إدوارد وقال: ماذا؟!

- خدروني... بالكلوروفورم، وأجاعوني.

نظر إدوارد حوله نظرة حادة وقال: يا إلهي! لم أحلم أبداً... اسمعي، إنني لا أحب الكلام هنا، مع كل هذه النوافذ. ألا نستطيع الصعود إلى غرفتك؟

- حسناً. هل أحضرتَ أمتعتي؟

- نعم، أودعتها لدى الحمّال.

- لأن المرء عندما لا يملك أن يغير ملابسه لمدة أسبوعين...

- فكتوريا، ما الذي كان يحدث؟ اسمعي... معي سيارة. دعينا نذهب إلى مكان ما معاً؛ فنحن لم نجلس بمفردنا منذ قرون.

- منذ أن كنا في بابل!

نزل الاثنان الدرج ركضاً وخرجا إلى حيث سيارة إدوارد. وقاد إدوارد السيارة في شارع عريض من شوارع بغداد متجهاً جنوباً، وراحت السيارة تهتز وتتمايل وهي تسير عبر جنائن نخيل وفوق جسور صغيرة بنيت فوق قنوات الري. وأخيراً وصلا إلى أيكة أشجار صغيرة تحيط بها الجداول، وكانت أشجار الأيكة (ومعظمها أشجار لوز ومشمش) قد أزهرت لتوها. كانت بقعة في غاية الجمال والهدوء، وعلى بعد قليل خلفها كان ينساب نهر دجلة.

خرجا من السيارة وسارا معاً بين الأشجار المزهرة. وقالت فكتوريا وهي تتنهد بعمق: مكان رائع؛ كأن المرء في إنكلترا في الربيع!

كان الهواء رقيقاً دافئاً، وما لبث الاثنان أن جلسا على جذع شجرة ساقطة وفوق رأسيهما تتدلى البراعم الوردية. وقال إدوارد: والآن، أخبريني بما حدث معك؛ لقد كنتُ في غاية البؤس والتعاسة.

أخبرتْه بما جرى معها. أخبرته بأمر مصفّفة الشعر المزعومة، والكلوروفورم. وأخبرته عن استيقاظها مخدرة تعاني من الغثيان، وكيف هربت، وعن لقائها العرضي بريتشارد بيكر، وكيف ادَّعت أنها ابنة أخ الدكتور باونسفوت جونز وهي في طريقها إلى موقع الحفريات، وكيف استطاعت -بمعجزةٍ- المحافظةَ على دورها كطالبة في علم الآثار وصلت من إنكلترا!

عند هذه النقطة صاح إدوارد ضاحكاً: أنت رائعة يا فكتوريا! بكل هذه الأمور التي تفكرين بها وتخترعينها.

- أعرف ما تعنيه... أعمامي، الدكتور باونسفوت جونز، وقبله الأسقف.

وعند هذه النقطة تذكرت -فجأة- ما هو ذلك الشيء الذي أرادت سؤال إدوارد عنه في البصرة عندما قاطعتهما السيدة كلايتون ودعتهما لتناول الشاي. قالت: لقد أردت أن أسألك من قبل... كيف عرفت بأمر الأسقف؟

شعرت باليد التي تمسك بها تتصلب فجأة، ثم قال بسرعة... بل بسرعة كبيرة: أنتِ أخبرتني، أليس كذلك؟

نظرت إليه فكتوريا، وقد فكرت -فيما بعد- كم كان غريباً أن تحقق تلك الهفوة الطفولية السخيفة ما حققته؛ ذلك أنه فوجئ تماماً. لم يكن لديه تفسير جاهز... وغدا وجهه -فجأة- عاجزاً دون قناع.

وفيما هي تنظر إليه تغيرت الأشياء كلها وأخذت مواقعها لتنتظم في نمط متجانس، ورأت الحقيقة. ربما لم يكن الأمر مفاجئاً فعلاً. ربما كان ذلك السؤال القائل: "كيف عرف إدوارد بأمر الأسقف؟" يُلحُّ ويتفاعل في عقلها الباطن، وربما كانت تقترب ببطء من الجواب الوحيد والحتمي: إن إدوارد لم يعلم بأمر أسقف لانغو منها، والشخص الوحيد الآخر الذي كان يمكن لإدوارد أن يعرف ذلك منه هو السيد أو السيدة كليب. ولكن لم يكن من الممكن أن يكون أي منهما قد شاهد إدوارد بعد وصولها إلى بغداد؛ لأن إدوارد كان

في البصرة في ذلك الحين، ولذلك لا بد أنه عرف ذلك منهما قبل مغادرته هو شخصياً إنكلترا. لا بد -إذن- أنه عرف طَوال الوقت بأن فكتوريا قادمة معهما... وهذا يعني أن الصدفة الرائعة كلها لم تكن صدفة في نهاية الأمر، بل كانت مخططة ومقصودة.

وفيما هي تحدق إلى وجه إدوارد الذي سقط عنه القناع عرفت -فجأة- ما الذي عناه كارمايكل بكلمة «الشيطان». عرفت ما الذي رآه في ذلك اليوم عندما نظر عبر الممر إلى حديقة القنصلية... لقد رأى ذلك الوجه الشاب الجميل الذي تنظر هي إليه الآن!

لم يكن الدكتور راثبون هو الشرير... بل إدوارد! إدوارد، الذي يلعب دوراً ثانوياً، دور السكرتير، ولكنه يتحكم ويخطط ويوجه، ويستخدم راثبون رئيساً بالاسم فقط... وراثبون هو الذي حذّرها بأن تذهب قبل أن يفوت الأوان!

وفيما هي تنظر إلى ذلك الوجه الجميل الشرير تبخر كل ذلك الحب السخيف المراهق الصبياني، وعرفت أن ما أحست به تجاه إدوارد لم يكن حباً أبداً، بل كان ذلك انبهاراً... كما أن إدوارد لم يحبها أبداً، فقد مارس سحره وألقه عن عمد. لقد التقطها في ذلك اليوم مستخدماً سحره بكل تلك السهولة والطبيعية بحيث وقعت في الخديعة دون مقاومة... لقد كانت مغفلة تماماً!

غريب كم يمكن لحقائق كثيرة أن تضيء فجأة في ذهن المرء في لحظة خاطفة! والمرء لا يضطر إلى إمعان التفكير لاستخراجها؛ فهي تأتي تلقائياً على شكل معرفة كاملة وفورية. وربما كان ذلك لأن المرء -في أعماقه- كان يعرف تلك الحقائق طوال الوقت.

وفي نفس الوقت فإن غريزة معينة من غرائز البقاء، سريعة كسرعة كل الملكات العقلية لفكتوريا، جعلتها تُبقي على وجهها تعبيرَ عَجَبٍ أبله غافلاً. ذلك أنها عرفت -غريزياً- أنها في خطر ماحق، وأن شيئاً واحداً فقط يمكن له أن ينقذها... ورقة واحدة تستطيع لعبها. وقد سارعت للعبها فقالت: لقد كنتَ تعرف طوال الوقت! كنت تعرف أنني قادمة إلى هنا، ولا بد أنك رتبت ذلك. آه يا إدوارد، أنت رائع!

أما وجهها، ذلك الوجه البلاستيكي الذي لا تعابير فيه، فقد أظهر عاطفة واحدة؛ عاطفة الوله الساذج. وقد رأت الاستجابة... رأت الابتسامة التي تكاد تشي بالازدراء، ورأت الارتياح أيضاً. وكادت أن تشعر بإدوارد وهو يقول لنفسه: "يا للمغفلة الصغيرة؛ من شأنها أن تصدق كل شيء! أستطيع أن أفعل بها ما أشاء".

قالت: ولكن كيف رتبت ذلك؟ لا بد أنك واسع النفوذ، لا بد أنك مختلف تماماً عمّا تتظاهر به.

رأت الكبرياء الذي أضاء وجهه. رأت النفوذ والقوة والقسوة، التي كانت مخبأة كلها تحت قناع الشاب المتواضع المحبوب. ثم قالت بسرعة ولهفة، وكلمسة فنية أخيرة (مع أن أحداً لن يعرف أبداً كلفة هذه العبارة على كبريائها): ولكنك تحبني بالفعل، أليس كذلك؟

كان الاحتقار في عينيه الآن لا يكاد يخفى... (هذه المغفلة الصغيرة... كل هؤلاء النساء المغفلات! لا أسهل من جعلهن يعتقدن أنك تحبهن، وهذا هو كل ما يهمهن؛ فكل ما يفعله هو التباكي طلباً

للحب! لقد كنَّ مثل الإماء وقد استخدَمْتَهُنّ للوصول إلى غاياتِكَ).
قال: طبعاً أحبك.

- ولكن ما معنى هذا كله؟ أخبرني يا إدوارد؟

- إنه عالم جديد يا فكتوريا؛ عالم جديد سينهض على أنقاض العالم القديم ورماده.

- أخبرني عنه.

أخبرها، وكادت أن تنجرف رغماً عنها لتؤمن بالحلم: الأشياء القديمة السيئة ينبغي أن يدمِّرَ بعضُها بعضاً. الرجال العجائز اللاهثون وراء مكاسبهم والذين يعيقون التقدم، والشيوعيون الأغبياء المتعصبون الذين يحاولون بناء جنتهم الماركسية... ينبغي أن تقع حرب شاملة وأن يحدث دمار شامل، وعندها، العصبة الصغيرة المختارة من الإداريين والشباب (من أمثال إدوارد) سيتقدمون ويتولون زمام الموقف. كان ذلك جنوناً... ولكنه كان أمراً يمكن أن يتحقق في عالم تمزق وتفكك.

قالت فكتوريا: ولكن فكِّرْ في كل الناس الذين سيُقتَلون قبل ذلك.

- أنت لا تدركين يا فكتوريا... هذا لا يهم.

لا يهم... تلك كانت عقيدة إدوارد! أما هي فرأت أن ذلك كله يهم... كل الألوف المؤلفة من الناس البسطاء العاديين على هذه الأرض، المنشغلين بمشاغلهم الخاصة، يُنشئون عائلات ويضحكون

ويبكون، وينهضون في الصباح ويأوون إلى فرشهم في الليل. أولئك هم الناس الذين يهمون، وليس هؤلاء الأشرار!

وبكل حذر قالت فكتوريا وهي تتلمس طريقها (إذ كانت تعلم أن الموت هنا قد يكون قريباً جداً): أنت رائع حقاً يا إدوارد. ولكن ماذا عني أنا؟ ما الذي أستطيع فعله؟

- أتريدين... المساعدة؟ أتؤمنين بقضيتنا؟

ولكنها كانت عاقلة. لا يليق الانقلابُ المفاجئ؛ فسوف يبدو مبالغة. ولذلك قالت: أظنني أؤمن بك أنت فقط، وكل ما تطلبه أنت مني يا إدوارد سأفعله!

- أنت فتاة عظيمة.

- لماذا خططتَ لقدومي إلى هنا بدايةً؟ لا بد من وجود هدف.

- يوجد هدف بالطبع. هل تذكرين أنني صوّرتك يومَها؟

قالت: "نعم، أذكر" (وفكرت قائلة لنفسها: يا لك من غبية، لَكَمْ زهوتِ بذلك، وكيف ابتسمتِ عجباً!).

- لقد أثار انتباهي الشكل الجانبي لوجهك وشبهك بإحدى النساء، فأخذت تلك الصورة بغية التأكد.

- مَن التي أُشبهها؟

- امرأة تسبب لنا الكثير من المتاعب... آنا شيل.

- آنا شيل؟

نظرت فكتوريا إليه بدهشة وعدم استيعاب؛ فقد توقعت كل شيء إلاّ هذا. قالت: أتعني... أنها تشبهني أنا؟

- تشبهك شبهاً بالغاً من الجانب؛ فملامحكما من تلك الجهة تكاد تكون واحدة تماماً، وأنتما متشابهتان في الطول والبنية، وإن تكن تكبرك بخمس سنوات تقريباً. الفارق الحقيقي في الشعر؛ فأنت ذات شعر أسود ضارب للحمرة، وهي شقراء، وطريقة تصفيف شعرك مختلفة تماماً. كما أن عينيك أشد زرقة، ولكن ذلك لا يهم عند استعمال النظارات الملونة.

- ولهذا أردت إحضاري إلى بغداد؟ لأنني أشبهها.

- نعم؛ فقد رأيت أن الشبه يمكن أن... يفيدنا.

- وهكذا رتبتَ الأمر كله. والزوجان كليب... مَن هما؟

- ليسا مهمين؛ إنهما يفعلان ما يُطلب منهما وحسب.

شيءٌ ما في نبرة إدوارد جعل فكتوريا ترتعد من أعماقها، ولكنها قالت متظاهرةً بالهدوء: لقد قلتَ لي إن آنا شيل كانت هي المسؤولة، هي ملكة النحل في مشروعكم، أليس كذلك؟

- اضطررت لأن أقول لك شيئاً ما لتضليلك عما كنت تسعين إليه؛ إذ كنتِ قد عرفتِ أكثر مما ينبغي.

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "ولو صادف أنني لم أكن أُشبه آنا

شيل لكان في ذلك نهايتي". ثم قالت: من هي آنا شيل حقاً؟

- إنها السكرتيرة الخاصة للمصرفي الأمريكي والدولي أوتو مورغانثال، ولكن ليست هكذا فحسب. إن لديها عقلاً مالياً شديد التميز والذكاء، ولدينا من الأسباب ما يدعونا للاعتقاد بأنها استطاعت تتبع الكثير من عملياتنا المالية. لقد كان يوجد ثلاثة أشخاص خطيرين علينا: كروفتن لي، وكارمايكل... وكلاهما تمت إزاحتهما. وبقيت آنا شيل. وسوف تصل إلى بغداد في غضون ثلاثة أيام، ولكنها -في هذه الأثناء- اختفت تماماً.

- اختفت؟ أين؟

- في لندن، والواضح أنها تبخرت عن وجه الأرض.

- ألا يعرف أحد أين هي؟

- ربما كان داكين يعرف.

ولكن داكين لم يكن يعرف. كانت فكتوريا تعلم ذلك، مع أن إدوارد لا يعلمه... أين كانت آنا شيل إذن؟ سألته: أليست لديكم حقاً أية فكرة؟

قال إدوارد ببطء: لدينا فكرة.

- وما هي؟

- من بالغ الأهمية أن تكون آنا شيل هنا في بغداد لحضور المؤتمر، وهو سينعقد -كما تعلمين- بعد خمسة أيام.

- بهذه السرعة؟ لم أعرف ذلك.

- لقد ضربنا طوقاً حول كل مدخل من مداخل هذا البلد. من المؤكد أنها لن تأتي إلى هنا باسمها الحقيقي، ولن تأتي على متن طائرة حكومية عادية، فلدينا وسائلنا في التحقق من تلك الرحلات. ولذلك دققنا في كل الحجوزات الخاصة. يوجد مقعد محجوز على متن إحدى خطوط الطيران باسم غريت هاردن، وقد تتبعنا أمر هذه المرأة فلم نجد أحداً بهذا الاسم، فهو اسم مستعار إذن... كما أن العنوان الذي تم تقديمه وهمي لا وجود له. إننا نرى أن غريت هاردن هي آنا شيل.

ثم أضاف قائلاً: ستهبط طائرتها في دمشق بعد غد.

- وعندها؟

نظر إدوارد إليها فجأة وقال: هنا يأتي دورك يا فكتوريا.

- دوري؟

- سوف تأخذين مكانها.

قالت فكتوريا ببطء: كما حدث للسير روبرت كروفتن لي؟

كانت جملتها تلك أقرب إلى الهمس، فبعد عملية الاستبدال تلك مات السير روبرت. وعندما تأخذ فكتوريا مكان آنا شيل أو غريت هاردن... فإن الأخيرة ستموت.

وكان إدوارد ينتظر. لو شكّ للحظة واحدة في صدقها وولائها

فإنها هي التي ستموت... وستموت دون إمكانية تحذير أحد. لا، ينبغي أن توافق ثم تغتنم فرصة لتبلغ السيد داكين بذلك.

سحبت نفَساً عميقاً وقالت: إنني... إنني... آه، لا أستطيع القيام بذلك يا إدوارد. سوف يكتشفون أمري؛ فليس بوسعي تقليد اللهجة الأمريكية.

- ليس لآنا شيل لهجة محددة تميزها. وعلى كل حال سوف تكونين مصابة بالتهاب الحنجرة، وسيشهد على ذلك واحد من أفضل الأطباء في هذا الجزء من العالم.

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: إن لديهم أتباعاً في كل مكان!

- تطيرين من دمشق إلى بغداد باعتبارك غريت هاردن، ثم تؤخذين فوراً إلى فراشك ولا يسمح لك طبيبنا الشهير بمغادرة الفراش إلاّ عندما يحين وقت حضور المؤتمر. وهناك ستبسطين أمامهم الوثائق التي أحضرتِها معك.

سألت فكتوريا: الوثائق الحقيقية؟

- كلا بالطبع؛ سنستبدل بها نسخة من عندنا.

- وماذا ستُظهر الوثائق؟

ابتسم إدوارد وقال: تفصيلات مقنعة عن أكبر وأخطر مؤامرة شيوعية في أمريكا.

قالت فكتوريا لنفسها: "يا لدقة تخطيطهم للأمر!"، ثم قالت لإدوارد: أتظن أن بوسعي أن أنجو بفعلتي هذه يا إدوارد؟

كان من السهل تماماً عليها الآن -وهي تمثل دوراً- أن تطرح ذلك السؤال بكل مظهر من مظاهر الإخلاص المتلهف. قال إدوارد: أنا واثق أنك قادرة على ذلك؛ لقد لاحظتُ أن تمثيلك للأدوار يبعث فيك متعة كبيرة بحيث يغدو من المستحيل تقريباً الشك فيك.

قالت فكتوريا متأملة: ما زلت أشعر بأنني مغفلة كبرى عندما أفكر بعائلة كليب.

ضحك بأسلوب فوقي. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها ووجهها ما يزال قناعاً للوله والتعلق: "ولكنك أنت أيضاً كنت مغفلاً تماماً إذ وقعت بمثل تلك الهفوة الخاصة بأسقف لانغو، ولو لم تقع بها لما أمكنني كشفك أبداً". قالت فجأة بصوتٍ عالٍ: ماذا عن الدكتور راثبون؟

- ماذا تعنين بقولك؟

- هل هو مجرد رئيس صوري؟

انحنت شفتا إدوارد بشكل يوحي بالتسلي المتشفي القاسي وقال: راثبون مضطر للإذعان لما نريد. أتعلمين ما الذي كان يفعله طوال هذه السنين؟ كان يستغل -بذكاء- ثلاثة أرباع التبرعات التي تنصب على مؤسسته من جميع أنحاء العالم ويحولها لمصلحته الخاصة. نعم، إن راثبون في جيبنا تماماً... نستطيع كشفه في أي وقت، وهو يعرف ذلك جيداً.

شعرت فكتوريا بامتنان مفاجئ للرجل العجوز ذي الرأس المقبب والنفسية المادية. ربما كان محتالاً، ولكن الشفقة عرفت

طريقها إلى قلبه... وقد حاول أن يدفعها للنجاة بنفسها في الوقت المناسب.

قال إدوارد: كل الأمور تجري باتجاه عالمنا الجديد.

فكرت قائلة لنفسها: إن إدوارد (الذي يبدو عاقلاً جداً) مجنون في الواقع؛ فالمرء يصاب بالجنون عندما يحاول وضع نفسه موضع الإله! لقد قيل دوماً إن التواضع فضيلة، وإنني أدرك الآن لماذا هي كذلك؛ فهو ما يُبقي المرء عاقلاً وإنساناً.

نهض إدوارد وقال: آن لنا أن نذهب. يجب أن نوصلك إلى دمشق وننفذ خططنا هناك بعد غد.

نهضت فكتوريا محترسة، فبمجرد أن تعود إلى بغداد وإلى فندق تيو سيزول الخطر القريب الداهم الذي يمثله إدوارد الآن. كان دورها يقضي بأن تلعب دوراً مزدوجاً تستمر فيه بخداع إدوارد بتمثيل دور الولهانة الخاضعة، في نفس الوقت الذي تقاوم فيه خططه بالسر. قالت: أتظن أن السيد داكين يعرف مكان آنا شيل؟ ربما استطعتُ معرفة ذلك منه. ربما صدرت عنه إشارة ما.

- هذا غير محتمل، وعلى كل حال فأنت لن تري داكين.

قالت فكتوريا كاذبة وقد داهمها شيء من الرعب: لقد أوصاني بأن أذهب لرؤيته هذا المساء، وسيرى الأمر غريباً إن لم أذهب.

- لا يهم ما يراه في هذه المرحلة. لقد وُضعت خططنا، ولن يراك أحد في بغداد ثانية.

- ولكن كل أمتعتي في الفندق يا إدوارد! وقد حجزتُ غرفة.

(الوشاح... الوشاح الثمين).

- لن تحتاجي أمتعتك في المستقبل القريب. لقد جهزتُ لك ملابس تنتظرك، هيا.

صعدا إلى السيارة ثانية، وقالت فكتوريا لنفسها: "كان عليّ أن أعرف أن إدوارد ليس على تلك الدرجة من الغباء التي يسمح لي معها بأن أتصل بداكين بعد أن كشفتُ أمره. صحيح أنه يظنني مغرمة به، وأظنه واثقاً من ذلك، ولكنه -رغم ذلك كله- ليس مستعداً للمجازفة". قالت له: ألن يتم البحث عني إن أنا... لم أظهر؟

- سنعنى نحن بذلك. من الناحية الرسمية الظاهرية ستودعينني على الجسر وتسافرين لرؤية بعض الأصدقاء في الضفة الغربية.

- ومن الناحية الفعلية؟

- انتظري وسترين.

جلست فكتوريا صامتة فيما كانت السيارة تهتز فوق الطريق الوعر وتلتف حول بساتين نخيل وتجتاز جسور ري صغيرة. وتمتم إدوارد قائلاً: لوفارج... ليتنا نعرف ما الذي قصده كارمايكل بهذه الكلمة.

دق قلب فكتوريا انفعالاً وقالت: آه، لقد نسيت إبلاغك.

لا أدري إن كانت هذه المعلومة تعني شيئاً، ولكن أ. م. لوفارج جاء يوماً إلى موقع الحفريات في تل أسود.

- ماذا؟

كاد إدوارد أن يوقف السيارة في حمأة انفعاله، ثم سألها: متى كان ذلك؟

- آه، منذ نحو أسبوع. قال إنه جاء من موقع حفرياتٍ ما في سوريا. أتراه أتى من موقع حفريات المسيو بارو؟

- هل جاء إليكم أيضاً رجلان باسم أندريه وجوفيت عندما كنتِ هناك؟

- نعم، وكان أحدهما يعاني من معدته.

- لقد كانا اثنين من رجالنا.

- ولماذا ذهبا هناك؟ للبحث عني؟

- لا؛ فلم تكن عندي أي فكرة عن مكان وجودك، ولكن ريتشارد بيكر كان في البصرة في نفس الوقت الذي كان كارمايكل فيها، وراودتنا فكرة بأن من الممكن أن يكون كارمايكل قد مرّر له شيئاً.

- لقد قال إن أمتعته فُتّشت. هل وجد صاحبكم شيئاً؟

- لا... ولكن فكري ملياً يا فكتوريا: هل جاء ذلك الرجل لوفارج قبل الرجلين الآخرَيْن أم بعدهما؟

ثم تمتم وهو يعود لأسلوبه العاطفي: "لا تخذليني يا حبيبتي؛ أنت وحدك مَن يستطيع القيام بذلك". ثم أضاف قائلاً: "لا تخافي. أوراقك على أفضل ما يكون ولن تجدي صعوبة عند الحدود السورية. اسمك الآن -بالمناسبة- هو الأخت ماري ديز آنغيز، ولدى الأخت تيريزا التي ترافقك كل الوثائق، وهي المسؤولة الأولى والأخيرة عنك. أطيعي الأوامر بالله عليك... وإلاّ فإنني أحذرك بصراحة، ستتحملين كل العواقب". ثم تراجع قليلاً ولوح لها بابتهاج، وانطلقت سيارة الرحلات.

أسندت فكتوريا ظهرها إلى ظهر المقعد المُنجَّد واستغرقت في تأملات للبدائل الممكنة أمامها. إن بإمكانها -لدى مرورهم في بغداد، أو عند الوصول إلى الحدود- أن تفتعل إشكالاً ما وتصبح طلباً للنجدة وتشرح للناس أنها قد اقتيدت رغماً عنها... وبإمكانها اختيار أكثر من طريقة للقيام باحتجاج مباشر. ولكن ماذا سيحقق ذلك؟ ربما نهاية فكتوريا جونز؛ فقد لاحظت أن الأخت تيريزا قد دست في كمها مسدساً صغيراً آلياً يفي بالغرض.

إن أفضل خيار هو المضي قدماً في الأمور والإذعان للخطة... أن تأتي إلى بغداد باعتبارها آنا شيل وتلعب دورها، لأنها إن فعلت ذلك فلن تكون لإدوارد سيطرة على لسانها أو تصرفاتها من بعد. إن استطاعت الاستمرار في إقناع إدوارد بانها ستفعل كل ما يطلبه، فعندها ستأتي لحظة تقف فيها مع وثائقها المزورة أمام المؤتمر... ولن يكون إدوارد هناك، ولن يستطيع أحد -وقتها- أن يمنعها من القول: أنا لست آنا شيل، وهذه الوثائق مزورة وكاذبة.

تعجّبَتْ من أن إدوارد لم يخشَ قيامها بذلك تماماً، ولكنها رأت أن الخيلاء ميزة تعمي العقل على نحو غريب، كما توجد حقيقة يجب أخذها في الاعتبار؛ وهي أن إدوارد وزمرته مضطرون لاختراع آنا شيل إن أرادوا لمخططهم النجاح، وإن لمن المستحيل أن يتمكنوا من العثور على فتاة تشبه آنا شيل مثلها. نعم، لقد كانوا بحاجة إليها... وبهذا المعنى فإن فكتوريا جونز هي التي تسيطر عليهم وليس العكس.

زادت السيارة سرعتها عبر الجسر، وراقبت فكتوريا نهر دجلة بشوق إلى الماضي القريب.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

هبطت طائرة «سكاي ماستر» الضخمة من السماء، وكانت عملية الهبوط ممتازة. ثم سارت بهدوء على طول المَدْرَج، ثم ما لبثت أن توقفت في مكانها المحدد. وقد دُعي الركاب للنزول، وتم فصل أولئك الذاهبين إلى البصرة عن أولئك الذين سيستقلون طائرة تقلهم إلى بغداد. ومن بين هذه المجموعة الأخيرة كان أربعة أشخاص: رجل أعمال عراقي تبدو عليه مظاهر النعمة، وطبيب إنكليزي شاب، وامرأتان. وقد عبروا جميعاً نقاط التحقيق المختلفة.

جاءت -في البداية- امرأة سمراء ذات شعر أشعث لم يستطع وشاحها أن يلمه كله. ومضى التحقيق معها: السيدة باونسفوت جونز؟ بريطانية؟ نعم... تريدين الالتحاق بزوجك؟ عنوانك في بغداد رجاء؟ ماذا تحملين من مال؟

بعد ذلك أخذت المرأة الأخرى مكان زميلتها: غريت هاردن؟ نعم... جنسيتك؟ دانمركية... جئت من لندن، سبب الزيارة؟ مدلكة في مستشفى؟ عنوانك في بغداد؟ ماذا لديك من مال؟

كانت غريت هاردن شابة نحيلة شقراء تضع نظارات سوداء،

وقد وضعت مساحيق بشكل أشبه بالبقع على وجهها، وكانت ترتدي ثياباً مرتبة قديمة. وكانت فرنسيتها مرتبكة ركيكة... وقد تعين من وقت لآخر إعادة السؤال عليها لتفهمه.

قيل للمسافرين الأربعة إن طائرة بغداد ستقلع عصراً، وإنهم سيؤخذون الآن إلى فندق العباسيين للغداء ونيل قسط من الراحة. وقد كانت غريت هاردن تجلس على سريرها عندما سمعت طرقاً على الباب. فتحته فوجدت شابة سمراء طويلة ترتدي الزي الرسمي لشركة الطيران. قالت: أنا آسفة جداً لإزعاجك يا آنسة هاردن. هل لك أن تأتي معي إلى مكتب شركة الطيران؟ لقد برزت مشكلة صغيرة حول بطاقتك. من هنا رجاء.

تبعت غريت هاردن مرشدتها في الممر، وعلى أحد الأبواب كانت لافتة كُتبت بخط ذهبي: «مكتب الطيران». وفتحت المضيفة الباب وأشارت لغريت هاردن بالدخول، وعندما دخلت أغلقت المضيفة الباب من الخارج ونزعت اللافتة عنه بسرعة.

وعندما تجاوزت غريت هاردن الباب قام رجلان (كانا يقفان خلفه) برمي قطعة قماش على رأسها. ثم دسا كمامة في فمها، وقام أحدهما برفع كمها وحقنها بإبرة. وخلال دقائق قليلة ارتخى جسدها.

قال الطبيب الشاب بمرح: هذه الحقنة ستتولى أمرها نحواً من ست ساعات في كل الأحوال. هيا أنتما الاثنين، أكملا عملكما.

أومأ برأسه باتجاه من يشاطرنه الغرفة، وهما راهبتان كانتا

تجلسان دون حراك عند النافذة. خرج الرجلان من الغرفة، وذهبت الكبرى من الراهبتين إلى غريت هاردن وبدأت تنزع الملابس عن جسدها المرتخي، أما الراهبة الشابة فقد بدأت تنزع زي الرهبانية وهي ترتعد قليلاً، وسرعان ما كانت غريت هاردن تتمدد بهدوء ووقار على السرير وقد أُلبست ثياب الراهبات، فيما كانت الراهبة الصغرى ترتدي الآن ثياب غريت هاردن.

حوّلت الراهبة الكبرى انتباهها الآن إلى شعر رفيقتها الكتاني. أخرجت من جيبها صورة ونظرت إليها أمام المرآة ثم أخذت تمشط شعر رفيقتها وتصففه إلى الخلف ثم تجعله خصلات ملتفة نزولاً على العنق. ثم تراجعت خطوة وقالت بالفرنسية: مدهش كيف تغيرتِ. ضعي النظارات السوداء؛ فعيناك غامقتا الزرقة كثيراً. نعم؛ هذا رائع.

طُرق الباب طرقاً خفيفاً، ثم دخل الرجلان ثانيةً وهما يبتسمان. قال أحدهما: إن غريت هاردن هي آنا شيل دون شك؛ فالأوراق بين أمتعتها، وهي مخبأة بكل عناية بين أوراق كتاب دانمركي حول التدليك الطبي. والآن يا آنسة هاردن...

ثم انحنى باحتفاء كاذب لفكتوريا وأكمل قائلاً: سوف تمنحينني شرف تناول الغداء معك.

تبعته فكتوريا إلى خارج الغرفة، ثم عبَرَ الصالة. كانت المرأة المسافرة الأخرى تحاول إرسال برقية عند مكتب الاستقبال. كانت تقول: لا، الاسم هو باونسفوت... الدكتور باونسفوت جونز. سأصل اليوم إلى فندق تيو. الرحلة جيدة.

نظرت إليها فكتوريا باهتمام مفاجئ. لا بد أن هذه هي زوجة الدكتور باونسفوت جونز وقد جاءت للالتحاق به. وكونها جاءت قبل أسبوع من موعدها لم يكن أمراً مفاجئاً أبداً لفكتوريا؛ إذ أن الدكتور باونسفوت قد شكا مراراً من تضييعه لرسالتها التي تحدد وقت وصولها قائلاً إنه شبه متأكد من أن ذلك الموعد كان السادس والعشرين من الشهر!

لو أنها استطاعت فقط -بطريقةٍ أو بأخرى- إرسال رسالة ما إلى ريتشارد بيكر عن طريق السيدة جونز...

قام الرجل الذي يرافقها -وكأنه يقرأ أفكارها- باقتيادها من مرفقها بعيداً عن مكتب الاستقبال قائلاً: لا أحاديث مع رفاق سفرك يا آنسة هاردن. لا نريد أن تلاحظ تلك المرأة الطيبة أنك تختلفين عن المرأة التي جاءت معها من لندن.

أخذها لتناول الغداء في مطعم خارج الفندق، وعند عودتهما كانت السيدة باونسفوت جونز تنزل درج الفندق، وقد أومأت لفكتوريا دون أي ارتياب ونادت قائلة: أكنتما تتنزهان؟ أنا خارجة الآن إلى السوق.

قالت فكتوريا لنفسها: "لو أستطيع دسّ شيء في أمتعتها..."، ولكنها لم تُترك بمفردها لحظة واحدة.

غادرت طائرة بغداد في الساعة الثالثة من بعد الظهر. وكان مقعد السيدة باونسفوت جونز في مقدمة الطائرة تماماً، أما مقعد فكتوريا فكان في الخلف قرب الباب، ومقابلها -عبر الممر- جلس

الشاب الأشقر الذي كان سجّانها؛ ولذلك لم تكن لديها فرصة للوصول إلى المرأة الأخرى أو دس أي شيء في أمتعتها. ولم تكن الرحلة طويلة. وللمرة الثانية نظرت فكتوريا من الجو لترى الخطوط العامة لمدينة بغداد تحتها ودجلة يقسمها كأنه عِرق من الذهب في إحدى الصخور.

هكذا رأتها منذ أقل من شهر مضى... ولَكَمْ جرت أحداث كثيرة منذ ذلك الحين!

في غضون يومين اثنين سيلتقي هنا الرجلان اللذان يمثلان الأيديولوجيتين السائدتين في العالم لمناقشة المستقبل. وسيكون لها هي، فكتوريا جونز، دور تلعبه في ذلك.

* * *

قال ريتشارد بيكر: إنني قلق بشأن تلك الفتاة.

قال الدكتور باونسفوت جونز بإبهام: أية فتاة؟

- فكتوريا.

نظر الدكتور حوله وقال: فكتوريا؟ أين... آه، يا إلهي، لقد عدنا من دونها بالأمس.

- كنت أتساءل إن كنتَ قد انتبهت لذلك.

- إنه إهمال بالغ من طرفي. لقد كنتُ شديد الاهتمام بذلك

التقرير عن الحفريات في تل بمدار... ألم تعرف فكتوريا أين تجد الشاحنة؟

- لم تكن عودتها إلى هنا واردة أبداً... والحقيقة أنها ليست فينيسيا سافيل.

- ليست فينيسيا سافيل؟ يا له من أمر غريب! ولكن أحسبك قلتَ إن اسمها الأول هو فكتوريا.

- وهو كذلك بالفعل. ولكنها ليست عالمة أجناس، وهي لا تعرف إيميرسن. والحقيقة أن الأمر كله كان... سوء فهم.

قال الدكتور باونسفوت: "يا إلهي! يبدو ذلك غريباً جداً". ثم فكر قليلاً وقال: غريب جداً. إنني أرجو... هل أنا الملام في ذلك؟ أعلم أنني شارد الذهن بعض الشيء. أترانا استلمنا رسالة بالخطأ؟

قال ريتشارد بيكر وهو عابس لا يلقي بالاً لتأملات الدكتور: لا أستطيع فهم الأمر. يبدو أنها ذهبت في سيارةٍ مع شابٍ ولم تعد. وفوق ذلك فإن أمتعتها كانت هناك ولم تكلف نفسها عناء فتحها. يبدو لي ذلك أمراً شديد الغرابة... إذا ما أخذنا في الحسبان ورطة نقص الملابس التي كانت تعاني منها. كنت أحسبها ستحرص كل الحرص على ارتداء أفضل ما لديها. وقد اتفقنا على اللقاء هنا لتناول الغداء معاً... نعم، إنني لا أفهم الأمر أبداً. أرجو أن لا يكون قد أصابها مكروه.

قال الدكتور باونسفوت بارتياح: آه، ما كنتُ لأظن ذلك للحظة واحدة. سأبدأ غداً بالحفر في المرحلة ج. أظن أن تلك هي أفضل

فرصة لنا للعثور على مكتب السجلات. إن قطعة الطاولة تلك التي عثرنا عليها تَعِدُ بالكثير.

- لقد خطفوها مرة قبل ذلك، فما الذي يمنعهم من خطفها ثانية؟

- هذا مستبعد جداً... مستبعد جداً. إن البلد مستقر جداً في هذه الأيام. وأنت نفسك قلت ذلك.

- لو استطعتُ فقط تذكّر اسم ذلك الرجل الذي يعمل في شركة نفطية. أكان اسمه ديكون؟ داكين؟ شيء من هذا القبيل.

- لم أسمع باسم كهذا أبداً. أظن أنني سأبدل مصطفى ومجموعته وأرسلهم إلى الزاوية الشمالية الشرقية، وعندها يمكننا تمديد الخندق ط...

- هل تمانع كثيراً -يا سيدي- إن أنا عدتُ إلى بغداد غداً؟

منح الدكتور باونسفوت كامل انتباهه لزميله فجأة، وحدق إليه وقال: غداً؟ ولكننا كنا هناك بالأمس.

- إنني قلق على تلك الفتاة... قلق حقاً.

- يا عزيزي ريتشارد، لم يخطر لي وجود شيء من هذا النوع.

- أي نوع؟

- أنك قد تعلقت بها. هذه أسوأ نتائج وجود نساء في مواقع

الحفر... وخاصة الجميلات منهن! وهذه الفتاة (فكتوريا أو فينيسيا أو كائناً ما كان اسمها) جميلة تماماً بالطبع. أعترفُ -يا ريتشارد- بأن لك ذوقاً رائعاً. أمر غريب، فهي أول فتاة أعرف أنك تهتم بها.

قال ريتشارد وقد احمرّ وجهه وبدا أكثر تعالياً من عادته: لا يوجد شيء من هذا القبيل. إنني فقط... قلق عليها. ينبغي أن أعود إلى بغداد.

- حسناً، إن كنت ذاهباً غداً فبإمكانك أن تحضر معك تلك الحفارات؛ فقد نسيها ذلك السائق الأحمق.

* * *

انطلق ريتشارد باتجاه بغداد في وقت مبكر من فجر اليوم التالي، ثم ذهب مباشرة إلى فندق تيو، وهناك علم أن فكتوريا لم تعد للفندق. قال له ماركوس: لقد كان الترتيب أن تتناول عشاء خاصاً معي، وقد حجزتُ لها غرفة رائعة. الأمر غريب، أليس كذلك؟

- هل ذهبتَ إلى الشرطة؟

- آه، لا يا عزيزي؛ لن يكون ذلك لطيفاً. ربما لا ترغب هي بذلك... وأنا لا أرغب به بالتأكيد.

بعد قليل من التحري عثر ريتشارد على عنوان داكين وزاره في مكتبه. لم تخنه ذاكرته فيما يخص الرجل. نظر إلى الجسد المنحني والوجه المتردد والرعشة الخفيفة في اليدين. لم يكن هذا رجلاً جيداً! اعتذر له عن إزعاجه وسأله إن كان قد رأى الآنسة فكتوريا جونز.

- لقد زارتني أول أمس.

- أيمكنك أن تعطيني عنوانها الحالي؟

- أظنها في فندق تيو.

- أمتعتها هناك، أما هي فليست هناك.

رفع السيد داكين حاجبيه قليلاً، فقال ريتشارد: لقد كانت تعمل معنا في التنقيب في تل أسود.

- آه، فهمت. أخشى أنني لا أعلم شيئاً قد يفيدك. أظن أن لها عدة أصدقاء في بغداد... ولكنني لا أعرفها جيداً بحيث أعرف من هم أصدقاؤها.

- أيمكن أن تكون في تلك المنظمة، "غصن الزيتون"؟

- لا أظن ذلك، ولكن بوسعك أن تسأل.

قال ريتشارد: "اسمعني... أنا لن أغادر بغداد حتى أجدها"، ثم عبس في وجه السيد داكين وخرج من الغرفة. أما السيد داكين فما أن أغلق الباب حتى ابتسم وهزّ رأسه وتمتم بلهجة تأنيب: آه يا فكتوريا!

ولدى دخول ريتشارد إلى فندق تيو استقبله ماركوس ببشاشته المعتادة فصاح ريتشارد: أوَقد عادت؟

- لا، لا، إنها السيدة باونسفوت جونز. سمعت لتوي أنها وصلت بالطائرة اليوم، وقد قال لي الدكتور باونسفوت جونز إنها قادمة في الأسبوع القادم.

- إنه يخلط بين التواريخ دوماً. ماذا عن فكتوريا جونز؟

عاد وجه ماركوس ليعبس وقال: لا، لم أسمع شيئاً عنها، وأنا غير مرتاح لذلك يا سيد بيكر. إنه أمر غير مريح. إنها فتاة شابة وجميلة، وهي شديدة المرح والابتهاج.

قال: "نعم، نعم. أظن أن من المفضل أن أنتظر لتحية السيدة باونسفوت جونز". وتساءل -في سرّه- ما الذي يمكن أن يكون قد حصل لفكتوريا.

* * *

قالت فكتوريا بعدائية لا تخفيها: "أنتِ؟!"... فبعد أن رافقوها لغرفتها في فندق قصر بابل كان أول شخص تراه هو كاثرين. أومأت كاثرين برأسها بحقد مماثل وقالت: نعم، أنا. والآن إلى فراشك رجاء. سيصل الطبيب في الحال.

كانت كاثرين ترتدي زي ممرضة مستشفى وتأخذ واجباتها بجدية، ومن الواضح أنها مصممة على عدم ترك فكتوريا لحظة واحدة. تمتمت فكتوريا وهي تتمدد بائسة على السرير: لو استطعت الإمساك بإدوارد...

قالت كاثرين بازدراء: إدوارد... إدوارد! إن إدوارد لم يهتم بك أبداً أيتها الغبية؛ فأنا هي التي يحبها!

نظرت فكتوريا دون حماسة إلى وجه كاثرين العنيد المتعصب، فيما مضت الأخيرة تقول: لقد كرهتُك دوماً، منذ ذلك الصباح الأول

الذي دخلتِ فيه وطلبت رؤية الدكتور راثبون بكل تلك الوقاحة.

قالت فكتوريا (وهي تبحث عن نقطة تثير بها غريمتها): أنا -على أية حال- أكثر منك أهمية بحيث لا يمكن الاستغناء عني. إن بوسع أية فتاة أن تقوم عنك بدور ممرضة المستشفى، أما أنا فالأمر كله يعتمد على أدائي لدوري.

قالت كاثرين برضا عن الذات: ما من أحد لا يمكن الاستغناء عنه... هذا ما تعلّمناه.

- ولكن أنا لا يمكن الاستغناء عني. بالله عليك اطلبي لي وجبة دسمة؛ فكيف تتوقعون مني -إن لم آكل- أن أمثل دور سكرتيرة المصرفي الأمريكي بشكل جيد عندما يحين الوقت؟

قالت كاثرين متذمرة: أحسب أن من الأفضل أن تأكلي طالما أن ذلك باستطاعتك الآن.

ولم تنتبه فكتوريا للمغزى الشرير لذلك.

* * *

قال الكابتن كروسبي: فهمتُ أن لديكم نزيلة وصلت لتوها اسمها غريت هاردن.

أومأ الرجل الهادئ خلف مكتب الاستقبال في فندق قصر بابل وقال: نعم يا سيدي، لقد وصلت من إنكلترا.

- إنها صديقة أختي. هل لك أن ترسل لها بطاقتي الشخصية؟

ثم كتب بضع كلمات على بطاقته وأرسلها في مغلف إلى الطابق العلوي، وسرعان ما عاد الصبي الذي أخذها وقال: إن السيدة ليست على ما يرام يا سيدي. التهاب حاد في حنجرتها، والطبيب قادم حالاً. إن معها ممرضة مستشفى.

استدار كروسبي وعاد إلى فندق تيو حيث استقبله ماركوس قائلاً: أهلاً يا عزيزي. إن فندقي ممتلئ تماماً الليلة، وذلك بسبب المؤتمر. ولكن يا للأسف! لقد عاد الدكتور باونسفوت جونز إلى موقع تنقيباته يوم أمس الأول، وها هي زوجته قد وصلت وكانت تتوقع وجوده في استقبالها، وهي منزعجة جداً لذلك! تقول إنها أخبرته بأنها ستأتي على هذه الطائرة. ولكنك تعرف طبيعته... إنه يخلط كل التواريخ والأزمنة.

ثم أنهى ماركوس سرده بسخائه المعتاد قائلاً: ولكنه رجل لطيف جداً، وقد اضطررتُ للعثور على غرفة لها بشق النفس... ورفضت استقبال رجل مهم من الأمم المتحدة.

- تبدو بغداد وقد جُنّتْ تماماً.

- لقد نشروا كل الشرطة وهم يأخذون احتياطات كبيرة. هل سمعت ما يُقال؟ مؤامرة شيوعية لاغتيال الرئيس. وقد اعتقلوا خمسة وستين طالباً! هل رأيت رجال الشرطة الروس؟ إنهم يُبدون ارتياباً بالجميع. ولكن هذا جيد جداً لأعمالنا... نعم، جيد جداً في الواقع.

* * *

رنّ جرس الهاتف وجاء الجواب سريعاً: السفارة الأمريكية.

- معكم فندق قصر بابل، إن الآنسة آنا شيل تقيم هنا.

قال الصوت من السفارة: "آنا شيل؟"... وسرعان ما جاء إلى الهاتف أحد الملحقين في السفارة وقال للمتحدث: أيمكن أن نتكلم مع الآنسة شيل؟

- إن الآنسة شيل مريضة في فراشها تعاني من التهاب الحنجرة. معكم الدكتور سموليروك، وأنا أشرف على حالة الآنسة شيل. إن لديها بعض الأوراق المهمة وتريد أن يأتي شخص مسؤول من السفارة لتعطيها له. الآن فوراً؟ شكراً لك، سأكون بانتظاركم.

* * *

التفتت فكتوريا عن المرآة. كانت ترتدي بدلة جيدة التفصيل، وكل شعرة شقراء من شعرها صُففت بعناية في مكانها. كانت تشعر بالعصبية والارتباك، ولكن معنوياتها كانت عالية. وعندما التفتت رأت وميض فرح وانتصار في عيني كاثرين فاحترست فجأة لذلك. لماذا تفرح كاثرين على هذا النحو؟ ما الذي يجري؟

سألت: ما الذي يفرحك إلى هذا الحد؟

- سترين في الحال.

كان الحقد واضحاً جلياً الآن. وقالت كاثرين بازدراء: إنك تحسبين نفسك ذكية جداً وتظنين أن كل شيء يعتمد عليك. ها! لستِ سوى مغفلة.

وبقفزة كانت فكتوريا فوقها! أمسكت بها من كتفيها وضغطت بأصابعها في لحمها قائلة: أخبريني ماذا تقصدين أيتها الفتاة البغيضة.

- آخ... إنك تؤلمينني.

- أخبريني...

جاءت طرقة على الباب. طرقة تكررت مرتين، ثم طرقة أخرى مفردة بعد قليل. وصاحت كاثرين: الآن سترين!

فُتح الباب ودخل الغرفة رجل طويل يرتدي زي الشرطة الدولية. أقفل الباب خلفه وأخذ المفتاح. ثم تقدم من كاثرين قائلاً: بسرعة.

أخرج حبلاً رفيعاً من جيبه وربط به كاثرين على الكرسي بكل تجاوب منها، ثم أخرج وشاحاً وربطه على فمها. ثم تراجع قليلاً وهز رأسه باستحسان وقال: نعم... سيكون هذا جيداً.

ثم التفت إلى فكتوريا، ورأت الهراوة الثقيلة التي كان يلوح بها، وبلحظة التمعت في ذهنها أبعاد الخطة الحقيقية. إنهم لم ينووا أبداً تركها لتمثل دور آنا شيل في المؤتمر؛ إذ كيف لهم أن يخوضوا مثل هذه المجازفة؟ لقد كانت فكتوريا معروفة بشكل جيد في بغداد. نعم، لقد كانت الخطة -من البداية- تقضي بأن تتم مهاجمة آنا شيل وقتلها في اللحظة الأخيرة... قتلها بطريقة لا يمكن معها تمييز ملامحها. ولن يبقى -بعدها- إلاّ الأوراق التي أحضرتها معها... تلك الأوراق المزورة بكل عناية.

استدارت فكتوريا باتجاه النافذة وصرخت بصوت خنقه الوشاح الملتفّ على وجهها، وتقدم الرجل منها وهو يبتسم. ثم حدثت عدة أمور... كان هناك صوت زجاج يتهشم... وجاءتها يد ثقيلة طرحتها أرضاً... ورأت نجوماً... ثم عتمة... ثم تكلم من قلب العتمة صوت، صوت إنكليزي مُطَمئِن.

- هل أنت بخير يا آنسة؟

تمتمت فكتوريا شيئاً ما.

سأل صوت آخر: ماذا قالت؟

حك الرجل الأول رأسه وقال بارتياب: **قالت إن الخدمة في الجنة أفضل من الحكم في النار.**

قال الآخر: هذا قول مُقتطَف... ولكنها أخطأت فيه.

قالت فكتوريا: "لا، لم أخطئ"، ثم أُغمي عليها.

* * *

رنّ جرس الهاتف فرفع داكين السماعة، وجاءه صوت يقول: تمت «العملية فكتوريا» بنجاح.

قال داكين: جيد.

- وقد قبضنا على كاثرين سركيس والطبيب، أما الرجل الآخر فقد رمى نفسه من الشرفة وهو مصاب إصابات بالغة.

- ألم تُصَب الفتاة؟

- لقد أُغمي عليها... ولكنها بخير.

- ألم تأت أخبار بعد عن أ. ش. الحقيقية؟

- لا أخبار أبداً.

أعاد داكين السماعة، وفكر في أن فكتوريا بخير على أية حال. أما آنا نفسها فلا بد أنها قُتلت. كانت قد أصرت على التصرف بمفردها وأكّدت أنها ستكون في بغداد في التاسع عشر من الشهر. واليوم هو التاسع عشر، وما من آنا شيل. ربما كانت محقة في عدم الثقة بالمؤسسة الرسمية... لم يكن يدري. كانت توجد -بالتأكيد- نقاط تسرب للمعلومات... وخيانات. ولكن الواضح أن ملكاتها العقلية الطبيعية لم تساعدها بشكل أفضل... ومن دون آنا شيل سيكون الدليل ناقصاً.

دخل عليه مراسل يحمل ورقة كُتب عليها: السيد ريتشارد بيكر والسيدة باونسفوت جونز، فقال للمراسل: لا أستطيع رؤية أحد الآن. قل لهما إنني آسف جداً، ولكنني مشغول.

انسحب المراسل، ثم ما لبث أن عاد وسلم داكين رسالة. مزق داكين الغلاف وقرأ: "أريد رؤيتك بشأن كارمايكل".

قال داكين: أدخله.

دخل ريتشارد بيكر والسيدة باونسفوت جونز، وقال ريتشارد: لا أريد شغل وقتك، ولكني كنت في المدرسة مع رجل يُدعى هنري كارمايكل. وقد افترقنا ولم يَرَ أيٌّ منا صاحبه لسنوات طويلة، ولكن عندما كنتُ في البصرة منذ بضعة أسابيع قابلته في غرفة انتظار

القنصلية. كان متنكراً بثياب عربية، «قد استطاع -دون أن يُبدي أية إشارة لمعرفته لي- أن يتفاهم معي. هل يهمك هذا الموضوع؟

- يهمني جداً.

- تكونت لديّ فكرة بأن كارمايكل كان يرى أنه في خطر. وسرعان ما تأكد ذلك؛ فقد هاجمه رجل بمسدس واستطعت أنا أن أضربه وأسقطه من يده. وقد سارع كارمايكل بالهرب، ولكنه دس في جيبي -قبل هربه- شيئاً وجدتُه فيما بعد. لم تبدُ فيه أية أهمية... بدا مجرد «ملاحظة»... مجرد إشارة إلى رجل يُدعى أحمد محمد. ولكني تصرفت بناءً على افتراضٍ يقول إن هذه الورقة كانت مهمة فعلاً بالنسبة لكارمايكل.

وبما أنه لم يعطِني أي تعليمات فقد احتفظت بها بكل حرص وعناية معتقداً أنه سيطلبها ذات يوم، وقد علمتُ قبل أيام من فكتوريا جونز بأنه قد مات، ووصلت -من أشياء أخرى قالتها لي- إلى نتيجة مفادها أن الشخص المناسب الذي يمكنني تسليمه هذه الرسالة هو أنت.

نهض ووضع ورقة قذرة عليها كتابة على مكتب داكين وقال: هل يعني هذا شيئاً بالنسبة لك؟

سحب داكين نفساً عميقاً وقال: "نعم... إنه يعني أكثر مما يمكنك تصوّره". ثم نهض وقال: أنا شديد الامتنان لك يا سيد بيكر، وأرجو أن تعذراني على قطع لقائنا هذا بمثل هذه السرعة، ولكن أمامي الكثير مما ينبغي عليّ متابعته مما لا أستطيع معه تضييع دقيقة واحدة.

ثم صافح السيدة باونسفوت قائلاً: أحسب أنك ستلتحقين بزوجك في موقع تنقيباته. آمل أن تتمتعوا بموسم جيد.

قال ريتشارد: إنه لأمر جيد أن الدكتور باونسفوت جونز لم يأتِ معي إلى بغداد هذا الصباح. صحيحٌ أن الدكتور العجوز لا يلاحظ الكثير مما يجري، ولكنه ربما لاحظ الفارق بين زوجته وبين أخت زوجته!

نظر داكين -بقليل من الدهشة- إلى السيدة باونسفوت جونز، فقالت بصوت منخفض عذب: إن أختي إلسي ما زالت في إنكلترا. لقد صبغتُ شعري باللون الأسود وسافرت بجواز سفرها. وقد كان اسم أختي قبل زواجها إلسي شيل، أما اسمي أنا -يا سيد داكين- فهو آنا شيل.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

لقد تحولت بغداد أيّما تحول؛ فقد ملأ الشرطة كل الشوارع، وكانت الشائعات تنتشر طوال الوقت. قيل إن أياً من زعيمي الكتلتين العظميين لن يأتي، وقيل إن الطائرة الروسية هبطت مرتين محفوفة بالمرافقة الرسمية، ثم ثبت أنها لا تحتوي إلاّ على طيار روسي شاب! ثم انتشر -أخيراً- خبرٌ يقول إن كل الأمور على ما يرام؛ فرئيسا الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا موجودان هنا، في بغداد، وفي أحد قصورها تحديداً.

وأخيراً بدأ المؤتمر التاريخي. وفي غرفة داخلية صغيرة كانت تجري أحداثٌ معينة ربما كان من شأنها أن تغير مجرى التاريخ. وككل الأحداث ذات الأهمية البالغة، لم تكن مجريات ما يحدث في الغرفة درامية مؤثرة أبداً.

قدّم الدكتور ألان بريك (من معهد هارويل الذرّي) نصيبه من المعلومات بصوت منخفض دقيق: كان الراحل السير روبرت كروفتن لي قد ترك معه بعض العينات لأغراض التحليل، وكان السير روبرت قد حصل على تلك العينات خلال إحدى رحلاته في الصين، ثم تركستان، ثم كردستان وصولاً إلى العراق. بعد ذلك أصبحت شهادة

الدكتور بريك تقنية تماماً في مفرداتها: فلزّات معدنية تحتوي على نسبة عالية من اليورانيوم، ومصدر خزين اليورانيوم غير معروف بالضبط، إذ أن أوراق السير روبرت ومذكراته قد دُمرت خلال الحرب نتيجة عمليات العدو.

ثم تولى السيد داكين إكمال القصة، حيث قصّ -بصوت ناعم متعب- ملحمة هنري كارمايكل، متحدثاً عن إيمانه ببعض الشائعات والقصص المستهجنة عن منشآت ضخمة ومختبرات تحت الأرض تعمل في وادٍ بعيد لم تصله المدنية. تحدّث عن بحث كارمايكل... وعن نجاحه في ذلك البحث. وتحدث كيف وافق ذلك الرحالة العظيم، السير روبرت كروفتن لي، الرجلُ الذي صدّق كارمايكل بسبب ما يعرفه هو شخصياً عن تلك المناطق... كيف وافق على القدوم إلى بغداد، وكيف مات. ثم كيف لاقى كارمايكل حتفه هو الآخر على يد من انتحل شخصية السير روبرت.

ثم مضى السيد داكين قائلاً: لقد مات السير روبرت، ومات هنري كارمايكل. ولكن شاهداً ثالثاً ما يزال حياً، وهو هنا اليوم. وإنني أدعو الآنسة آنا شيل لتقدم لنا شهادتها.

قامت آنا شيل هادئةً رابطةَ الجأش (كما لوكانت في مكتب السيد مورغانثال) فأعطت الحضور قوائم من الأسماء والأرقام. ومن أعماق عقلها المالي المبدع حددت للحضور الخطوطَ العامة للشبكة المالية الضخمة التي كانت تمتص الأموال من التداول وتغدقها على تمويل أنشطة من شأنها أن تقسم العالم المتحضر إلى طائفتين متنازعتين. لم يكن ذلك مجرد دعوى؛ فقد أبرزت حقائق

وأرقاماً لتدعم طرحها. وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يصغون إليها فإنها كانت تملك من الإقناع ما لم تستطع قصة كارمايكل المستهجنة أن تثيره فيهم.

ثم تحدث داكين ثانية فقال: لقد مات هنري كارمايكل، ولكنه أحضر معه من رحلته الخطيرة أدلّة ملموسة وأكيدة. وهو لم يجرؤ على الاحتفاظ بتلك الأدلة معه؛ فقد كان أعداؤه يلاحقونه عن كثب، ولكنه كان رجلاً ذا صداقات عديدة. وعن طريق اثنين من هؤلاء الأصدقاء أرسل الأدلة إلى حِرزٍ أمين لدى صديق ثالث له... وهو رجل يحترمه العراق كله ويقدره. وقد تلطف هذا الصديق ووافق على الحضور إلى هنا اليوم. وإنني أشير بذلك إلى الشيخ حسين الزيارة، من مدينة كربلاء.

كان الشيخ حسين الزيارة مشهوراً -كما قال داكين- في كل أنحاء العراق كعالِم كبير، وقد وقف الآن بقامته المهيبة ولحيته المحنّاة باللون البني الغامق، وكانت سترته الرمادية مطرزة الحواف بلون ذهبي تغطيها عباءة بنية رقيقة هفهافة مما يعطيه مظهراً مهيباً. وتكلم بصوت عميق رنّان فقال: لقد كان هنري كارمايكل صديقاً لي، وقد عرفته طفلاً ودرس معي شعر شعرائنا العظام. وقد جاء رجلان إلى كربلاء ممن يسافرون ومعهم صندوق العجائب يعرضون به الصور. وهما رجلان بسيطان، ولكنهما صادقان متديّنان. وقد أحضرا لي رزمة قالا إن صديقاً لي اسمه كارمايكل الإنكليزي قد طلب منهما تسليمها إليّ شخصياً، وقد أوصى أن أحتفظ بها سراً في مكان آمن وأن لا أسلّمها إلاّ له نفسه، أو لأي رسول يقوم بترديد كلمات معينة. فإن كنتَ أنت حقاً الرسول فتكلم يا بني.

قال داكين: أيها السيد، إن الشاعر العربي المتنبي، الذي عاش قبل ألف سنة، كتب قصيدة للأمير سيف الدولة في حلب. وقد وردت في القصيدة الكلمات التالية: «زِدْ، هُشَّ، بُشَّ، تفضَّل، أُدْنُ، سُرَّ، صِلِ».

وبابتسامة منه مد الشيخ حسين الزيارة يده برزمة إلى داكين وقال: وإنني أقول كما قال الأمير سيف الدولة: «لك ما أردت».

قال داكين: أيها السادة، هذه أفلام جلبها هنري كارمايكل معه تأييداً لقصته.

ساد الصمت للحظات، ثم انبرى صوت رفيع رسمي يحمل كل حيادية البيروقراطية وبرودها فقال: سوف توضع هذه الحقائق أمام رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والسكرتير الأول لجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

قالت فكتوريا: إن ما يزعجني هو تلك الدانماركية المسكينة التي قُتلت خطأ في دمشق.

أجابها السيد داكين بمرح: آه! إنها بخير، فبمجرد أن أقلعتْ طائرتك قمنا باعتقال المرأة الفرنسية، وأخذنا غريت هاردن إلى المستشفى، وقد استعادت وعيها تماماً. كانوا ينوون تركها مخدرة لبعض الوقت ريثما يتأكدون من أن قضية بغداد قد سارت على ما يرام... وقد كانت -بالطبع- واحدة ممن يعملون معنا.

- حقاً؟

- نعم، فعندما اختفت آنا شيل رأينا أن من الأفضل أن نشغل الطرف الآخر عنها بمصيدة. وهكذا حجزنا تذكرة لغريت هاردن وحرصنا على عدم وجود أصل لاسمها وعنوانها، وقد خُدعوا بذلك وقفزوا إلى نتيجة مفادها أن غريت هاردن هي آنا شيل دون شك. وقد أعطيناها مجموعة رائعة من الأوراق المزورة لإثبات ذلك.

- بينما بقيت آنا شيل الحقيقية في المصحة حتى جاء الوقت الذي ينبغي فيه على السيدة باونسفوت جونز أن تلتحق بزوجها.

- نعم؛ حيلة بسيطة... ولكنها فعالة. وقد اعتمدتها آنا شيل بناء على افتراض يقول إن الناس الوحيدين الذين يمكن أن يكونوا موضع ثقة في أوقات الأزمات هم أفراد عائلة المرء. إنها شابة بالغة الذكاء.

- لقد ظننتُ أنني انتهيت. هل كان رجالكم يحرسونني عن بعد حقاً؟

- طوال الوقت. إن صاحبك إدوارد لم يكن أبداً على ذلك القدر من الذكاء كما كان يعتقد، وقد كنا نتحرى عن أنشطته منذ بعض الوقت، وعندما قلتِ لي قصتك في الليلة التي قُتل بها كارمايكل كنتُ -بصراحة- قلقاً جداً عليك، ولذلك كان أفضل تصرف يمكنني التفكير فيه هو إرسالك عمداً إلى تلك المنظمة كجاسوسة. فإن عرف صاحبك إدوارد أنك على اتصال معي فذلك يعني أنك ستكونين بأمان إلى حد بعيد، لأنه سيعرف عن طريقك ما نفكر فيه ونعتزمه، وستكونين أثمن بالنسبة له من أن يعمد لقتلك، كما أن بوسعه أن يمرر لنا معلومات مزورة عن طريقك. لقد كنتِ صلةَ وصل، ولكن عندما اكتشفتِ مسألة انتحال شخصية السير روبرت كروفتن لي، قرر إدوارد أن من الأفضل إبعادك حتى موعد الحاجة إليك للقيام بدور آنا شيل (هذا إن وجدوا حاجة لذلك). نعم يا فكتوريا، أنت -حقاً- محظوظة جداً جداً لجلوسك هنا معي الآن تلتهمين كل هذا الكم من الفستق.

- أعرف بأنني محظوظة.

قال داكين: إلى أيّ مدى أنت مهتمة... بإدوارد؟

نظرت إليه فكتوريا بثبات وقالت: لست مهتمة به على الإطلاق. لقد كنتُ مجرد مغفلة سخيفة، وكان ما أحسسته تجاهه مجردَ افتتانِ مُراهِقةٍ بمثلٍ أعلى لها... تصورت نفسي جولييت وغير ذلك من السخافات التافهة. عندما أُحِبُّ في المرة القادمة لن يكون الشكل هو ما يجذبني. سأحب رجلاً حقيقياً... وليس ذاك الذي يشنِّف آذان المرأة بالكلام المعسول. لن أهتم إذا كان أصلع أو كان يضع نظارات. أريده أن يكون مثيراً لاهتمامي...

سألها داكين: في نحو الخامسة والثلاثين أم الخامسة والخمسين؟

نظرت فكتوريا إليه وقالت: آه، الخامسة والثلاثين.

- لقد أرحتِني؛ فقد ظننتُ -للحظةٍ- أنك تخطبينني!

ضحكت فكتوريا وقالت: أعرف أن عليَّ عدم طرح أسئلة... ولكن هل كانت توجد رسالة على ذلك الوشاح بالفعل؟

- كان عليه اسم. إن الحائكات (اللاتي كانت السيدة دوفارج واحدة منهن) كنّ يَحِكْنَ أسماءً على منسوجاتهن. كان الوشاح -من جهة- وملاحظة التوصية التي احتفظ بها ريتشارد -من جهة أخرى- نصفين مكمّلين كلٌّ للآخر، يعطيان مؤشراً على ما يريده كارمايكل عندما يُجمعان معاً. وقد أعطانا أحدهما اسم الشيخ حسين الزيارة، وأعطانا الآخر -بعد أن عاملناه ببخار اليود- الكلمات المطلوبة لإقناع الشيخ بتقديم كنزه لنا.

- وقد حمل السرَّ في طول البلد وعرضه ذانك الرجلان

الجوّالان بعرضهما المحمول؟ نفس الرجلين اللذين التقيناهما؟

- نعم؛ شخصان بسيطان ليس في عملهما ما يمتّ للسياسة بصلة. مجرد أنهما كانا أصدقاء لكارمايكل... لقد كان لديه العديد من الأصدقاء.

- لا بد أنه كان رجلاً رائعاً جداً. إنني آسفة لموته.

- سنموت جميعاً يوماً ما. وقد كان من شأن كارمايكل أن يحسّ بالرضا وهو يعلم أن إيمانه وشجاعته قد ساهما مساهمة لا أعرف أحداً ساهم بمثلها لإنقاذ هذا العالَم العجوز الحزين من هجمة جديدة للبؤس وإراقة الدماء.

قالت فكتوريا وهي غارقة في التأمل: من الغريب أن يكون ريتشارد محتفظاً بنصف السر وأكون أنا محتفظة بالنصف الآخر. يكاد الأمر يبدو كما لو أن...

أكمل داكين عبارتها وهو يرمش بعينه: كما لو أن ذلك كان بتقدير مقصود. وهل لي أن أسأل عمّا تنوين فعله الآن؟

- سأضطر للعثور على وظيفة... عليّ أن أبدأ البحث.

قال: "لا تبحثي عنها كثيراً؛ إذ أنني أحسب أن وظيفة ستأتي إليك". ثم ابتعد قليلاً بلطف ليترك المجال لريتشارد بيكر.

قال ريتشارد: اسمعيني يا فكتوريا... لن تستطيع فينيسيا سافيل الحضور في نهاية المطاف؛ إذ يبدو أنها قد أُصيبت بالتكاف. وقد كنتِ مفيدة جداً في موقع التنقيب. هل تحبين العودة إليه؟ ولكن

أخشى أن العمل هناك لن يكون إلاّ مقابل مأكلك ومشربك (وربما عودتك إلى إنكلترا فيما بعد... ولكننا سنتحدث في ذلك لاحقاً). إن السيدة باونسفوت جونز ستأتي في الأسبوع القادم. ماذا تقولين؟

صاحت فكتوريا: آه، هل تريدونني حقاً؟

لسببٍ ما احمرّ وجه ريتشارد كثيراً، فدارى ذلك بأن سعل ومسح نظارته ثم قال: أظن أننا قد نجدك... مفيدة جداً.

- إنني أحب ذلك.

- في هذه الحالة، من الأفضل أن تجمعي أمتعتك وتعودي إلى الموقع الآن. لا أظنك تريدين البقاء دون سبب في بغداد، أليس كذلك؟

- مطلقاً.

* * *

قال الدكتور باونسفوت جونز: ها أنتِ ذي -إذن- يا عزيزتي فيرونيكا. لقد انشغل إدوارد بك انشغالاً أذهله عن نفسه. حسناً، حسناً... أرجو أن تجدا غاية السعادة أنتما الاثنين.

قالت فكتوريا متعجبة عندما ابتعد الدكتور باونسفوت جونز: ما الذي عناه بقوله؟

أجابها ريتشارد: لا شيء. إنك تعرفين طبيعته. إنه... إنه يستبق الأمور قليلاً... ولكن قليلاً جداً.

